الوحوش الضاحكة

الوحوش الضاحكة

رواية

دينيس جونسون

الحائز على الجائزة الوطنية للكتاب

ترجمة: د. قصي أنور الذبيان

Qindeel | قنديل

THE LAUGHING MONSTERS

DENIS JOHNSON

الوحوش الضاحكة

دينيس جونسون

ترجمة: د. قصي أنور الذبيان

© 2019 Qindeel printing, publishing & distrubtion

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو نقله على أي نحو، و بأي طريقة، سواء أكانت إلكترونية أم ميكانيكية أم بالتصوير أم بالتسجيل أم خلاف ذلك، إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة مقدماً.

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

موافقة «**المجلس الوطني للإعلام**» في دولة الإمارات العربية المتحدة
رقم: MC-02- 01-4730123 تاريخ 2018/10/1

ISBN: 978 - 9948 - 38 - 212 - 6

قنديل | Qindeel
للطباعة والنشر والتوزيع
Printing, publishing & Distribution

ص. ب: 47417 شارع الشيخ زايد
دبي – دولة الإمارات العربية المتحدة
البريد الإلكتروني: info@qindeel.ae
الموقع الإلكتروني: www.qindeel.ae

© **جميع الحقوق محفوظة للناشر** 2019

الطبعة الأولى: كانون الثاني / يناير 2019 م – 1440 هـ

الإهداء

إلى تشارلي وسكاوت

المحتويات

الإهداء ________ 7

I ________ 11

II ________ 101

III ________ 197

IV ________ 233

I

منذُ زيارَتي الأخيرة لمَطارِ فريتاون قبلَ أحد عَشَرَ عاماً وما زالَ المطارُ يغُصّ بفوضى عارِمة. إنَّهُ واحِدٌ مِنْ تلك الأماكن التي ما زالوا يستخدِمونَ فيها سَلالِمَ يدفَعونَها على عَجَلاتٍ إلى بابِ الطائرةِ. وما إن تخرُجَ مِن بابِ الطائرةِ حتى تَجِدَ نفسَكَ خارِجاً من سيطرةِ المناخِ الأوروبيِّ وداخِلاً في وَطأةِ الأجواءِ اللّافِحَةِ المُستَعِرَةِ لغربِ إفريقيا. لَم يَكُن الأوتوبيس الذي أخَذَنا إلى مبنى المسافرين سيئاً، ولكنه لَم يكُن مُكَيَّفاً بالهَواءِ.

داخِلَ المبنى، رأيتُ الحَشدَ المُعتاد مِنَ الحَمقى. تفحَّصتُ الوجوهَ السوداء اللاّمِعَة، ولكنَّني لَم أرَ مايكل.

خَرَجَ صوتٌ مِن أجهِزَةِ النداءِ الآليِّ، لا تُمَيِّزُ مِنهُ إلّا حروفَ العِلَّةِ فقط.

سألتُ موظَّفَ الاستقبالِ مِن فوقِ رؤوسِ الواقِفينَ في الطابورِ «هل ما سَمِعتُهُ كان نداءً على السيِّد ناير؟»

«كلا يا سيدي. لا»، أجابَني الرجلُ.

«السيِّد ناير؟».

«ليسَ للأمرِ أيّة علاقَةٍ بهذا الاسم».

رحَّبَ بي رجلٌ يرتَدي بدلَةً قاتِمَةً وربطةَ عُنُقٍ قائلاً، «أهلاً بكُم في سيراليون، يا سيِّد نايلور»، ثم ساعدني بالمُرورِ عَبرَ الفوضى. وفي طريقِنا إلى الجمارِكِ، تبادَلنا أطرافَ الحديثِ. لَم يستَغرِق الأمرُ وقتاً طويلاً للوصولِ إلى هناك، إذ لم أكُن أحملُ سوى حقيبةٍ يدويَّةٍ مَحمولَةٍ. ساعَدَني الرجلُ بالخُروجِ إلى الخارِجِ حيثُ كانَت بانتظارِنا سيارةٌ بيضاء نظيفة، كانت هوندا من طِرازِ بريليود. بادَرَني الرجلُ بقولِهِ: «أُجرَتي مئتا دولار»، قالَها وهو يبتسمُ ابتسامةً مُثيرةً للاشمئزاز. أعطَيتُهُ زوجاً من قِطَعِ اليورو المعدنيَّةِ. عِندَها قالَ: «هذا ليسَ كافٍ هذهِ الأيّام، يا سيِّدي»، فطلبتُ منهُ أن يخرَس.

أمَّا سائِقُ الهوندا فكان يُريدُ مبلغاً بِحُدودِ المليون دولار. وما أن قلتُ له، «سبنسي موني!»[1] حتى كادَ لَحمُ وجهِهِ أن يَسقُطَ إذ إنّه لم يكُن يتوقَّع أنَّني أعرف شيئاً مِن لغَةِ الكريو[2]. توصَّلنا إلى اتفاقٍ على مبلَغٍ بِخانَةِ العَشَراتِ. لم يَقبَل بأقلّ مِن ذلك، لأنَّ قلبه مَفطور من الارتفاعِ الإجراميِّ في أسعارِ الوقود، حَسبَ زَعمِهِ.

---

(1) اللغة الرسمية المتداولة في سيراليون. ـ المترجم
(2) بلغة الكريو يعني هذا التعبير، «سِعرٌ مُرتفع» أو «سِعرٌ غالٍ». ـ المترجم

على مقرُبَةٍ مِنَ المَعبَرِ، كانت هناك بَلبَلَةٌ، كانت هناكَ امرأة مع عَرَبةٍ فاكِهةٍ يقومُ رجالُ الشرطَةِ بزيِّهم الأزرق السماويّ بإلقاءِ بِضاعَتِها في الخليجِ، وهي تصرُخُ وتُوَلوِلُ كما لو كانوا يقومونَ بإغراقِ أطفالِها. احتاجَ الأمر لثلاثةِ رجالٍ من الشرطةِ لسَحبِ المرأةِ مِن أمام سيّارتِنا. ترجَّلتُ مِنَ السيّارةِ وذهبتُ إلى السِياجِ لأتنفَّسَ بعضَ النسيمِ الرطبِ العليل. على الشاطئ، مَرَّ جُنودٌ بِمَلابِسهم الرسميَّةِ واضِعينَ أسلِحَتَهم على صدورِهم؛ رَكَلَ أحدُهم عَرَبةَ المرأةِ التي أصبحت فارِغَةً مِن مُحتَوياتِها الآن. واسْتَمرَّت المرأةُ تَذرَعُ المكان ذهاباً وإياباً وهي تصرُخُ وتُوَلْوِل. وبَدأ المَشهَدُ يصغُرُ شيئاً فشيئاً كُلَّما ابتعَدنا عن المَعبَرِ الذي بَدأ يَنسَحِبُ باتجاهِ الخليجِ. قَطَعنا الكورنيش وبدأتُ بمُشاهَدةِ مدينةِ فريتاون وهي تقتَرِبُ مِنّا. حَشدٌ من الأبنيّةِ، كثيرٌ منها آيِلٌ إلى السُقوطِ، وحولها ظِلالٌ هائِلةٌ وخَرائِبُ مُوحِلَةٌ تَمتَدُّ إلى حُدودٍ لا يعلَمُها إلا الله، مُحدَودِبَةً على بُطونِها الخاوِيَةِ.

على الرصيفِ البَحريِّ لمدينةِ فريتاون، لَمَحتُ رجُلاً أعرِفُهُ، أوروبيٌّ نحيلٌ وكبيرٌ بالسِّنِ، اسمُهُ هورست. كان يقِفُ بجانِبِ سيّارةٍ مُستأجَرَةٍ مُظلِّلاً عينَيهِ بيدِيهِ وهو ينظُرُ إلى شمسِ الغروب؛ كان يُراقِبُ القادِمينَ الجُدُد. وخلالَ مُرورِ سيّارَتِنا مِن أمامِه، أرخَيتُ جَسَدي إلى أسفَلِ مقعدي وأشَحتُ

بوجهي عنه جانباً. لكنَّني بقيتُ أرقُبُهُ بعدَ تَجاوُزنا عنه. عادَ إلى سيّارَتِهِ دون أن يأخذَ أيّ راكِب.

هورست ... أظنّ أنَّ اسمهُ الأوّل كان شيئاً مِثل كوزمو، لكنه لَم يكُن كوزمو. ليو، رولو، لا أستطيع تذكُّره الآن.

طلبتُ مِن سائِقي إيميل التوَجُّهَ إلى فندق بابا ليون، فهو حَسبَ عِلمي الفندقُ الوحيد الذي تَصِلُهُ الكهرباءُ بانتظام، وفيهِ بِركَةُ سِباحَة. وما إن اصطفَفنا تحت مِظلَّةِ الفندقِ حتّى جاءت سيارةٌ مُسرِعَةٌ نَحوَنا، انحَرَفَت ثم عادَت إلى مَسارِها بِسُرعَة. كانت على نافِذَتِها لافِتَةٌ مَكتوبٌ عليها: المدرسةُ الرائِعةُ لتعليمِ قيادةِ السيارات. ورغم أنَّ الأمورَ كانت تُوحي بوُجودِ نشاطٍ تِجاريٍّ نوعاً ما إلّا أنَّني لَم أشعر بإفريقيا الجديدةِ. سألتُ إيميل عن عَدَدِ أطفالِه، فقالَ: إنَّهُم عَشرَةٌ، لكِن ماتَ مِنهُم سِتَّة.

حاول إيميل إقناعي بتغييرِ الفُندُق؛ كونه ـ حسبَ قولِهِ ـ أصبح في الحَضيضِ. لكِن كانت الأضواءُ الكهرُبائيّةُ تَسطَعُ في الداخِلِ وكانت رائِحَةُ البَهوِ تُوحي بنظافةِ المكان، ورُبّما تَعْبَقُ بالسُّمّ، تَبعاً لرأيكَ بِخُصوصِ بعضِ الموادِ الكيميائيةِ، وبَدا كلُّ شيءٍ على ما يُرام. كنتُ قد سَمِعتُ أنَّ المُتمَرِّدينَ تبادَلوا إطلاقَ النارِ مع السُّلطاتِ في مَمراتِهِ. ولكِن كانَ هذا قبلَ عَشرِ سنواتٍ، بُعيدَ هروبي؛ وكانَ مِنَ الواضِحِ أنَّهُم قاموا بترميمِهِ وترقيعِهِ بِشَكلٍ كامِلٍ الآن.

فَتَّشَني الموظَّفُ دونَ أيّ تَحَفُّظٍ، ثم فاجأني بقولِهِ:

«هذه رسالةٌ لكَ يا سيِّد ناير».

لَمْ تكُن الرسالةُ مِن مايكل ـ بل كانت من إدارَةِ الفندق. كانت مكتوبَةً بحِبرٍ أرجوانيّ اللون وبِخَطٍّ يدَوِيٍّ جميلٍ، تُرَحِّبُ بي في «المكان الذي فيهِ حَلٌّ لكلِّ مشاكِلِكَ». كانت مُوجّهَة «إلى مَن يُهِمُّه الأمر». وكانت هناك ورقةٌ صغيرةٌ مَشبوكةٌ معها، تعليماتُ الاتصالِ بالإنترنت. قالَ ليَ مُوظَّفُ الاستعلاماتِ: إنَّ خِدمَةَ الإنترنت كانت مُتوقِّفَةً، ولكن ليس بشكلٍ دائمٍ فرُبَّما تعودُ الليلة.

كان هاتِفي النَّقَّال مِن نوع نوكيا. ظنَنتُ أنَّهُ كان بإمكاني الحصول على بطاقَةِ خطّ هاتفيٍّ مِنَ الفندق، ولكنَّ الموظف أخبَرَني أنَّهُم لا يملِكونَ أيّاً منها. في هذه الأثناء كنتُ مَقطوعاً عن العالَمِ تقريباً.

هذا ما كان ينقُصُني الآن. لم أكُن أشعر أنَّني مُستعدٌ للقاءِ مايكل أدريكو. من المُحتملِ أن يكون هنا في هذا الفندق، في غرفَةٍ فوق غرفتي، ولكنَّني كنتُ أشعر أنَّهُ لم يَعُد للقارَّةِ الإفريقيّةِ وأنَّهُ لن يعود. وربما كان قد أغراني بالقُدومِ هنا بدافِعِ التسلِيَةِ والدُّعابَة ـ كمُحاولةٍ مِن إحدى مُحاوَلاتِهِ غير المَفهومَةِ.

*

كانـت الغرفـةُ صغيـرةً وكانـت تَعبَـقُ بـذاتِ الرائِحـةِ التـي تقـول: «لقـد قَتَلنـا كلَّ شـيءٍ تَخشـاهُ». كان السـريرُ جيِّـداً. وعلى المِنضَدةِ، إزاءَ السريرِ، انتَصَبَت شمعةٌ في صحنٍ صغيرٍ وبجانِبِها صندوقُ كبريتٍ باللونِ الأحمر والأزرق.

سافَرتُ مِن أمستردام عبر مطارِ هيثرو في لندن. استَغرَقت الرحلةُ ساعةً واحدةً فقط، ولذا لم أكُن أشعر بإرهاقِ واضطرابِ ما بَعدَ السفرِ جَوّاً. كلُّ ما احتجتُهُ هو بعضُ الترميم. رَشَقتُ وجهي بالماء، وقُمتُ بتعليقِ بعضِ الأشياءِ، ثم حَمَلتُ حاسوبيَ المحمولَ ومُلحقاتِهِ التي أحتَفِظُ بها في مِحفظة كِتّانيةٍ صفراء، ونَزَلتُ إلى المسبَحِ في الطابقِ السُّفليِّ.

في طريقي إلى هناك، توقَّفتُ لأطلُبَ مِنَ النادِلِ إحضارَ كأسٍ مُزدَوَجٍ من العصير، جَلَستُ على طاولةٍ بجانبِ المسبَحِ في مُحيطٍ يزدانُ بالصخورِ والنباتاتِ الموضوعَةِ بطريقَةٍ إبداعِيَّةٍ بارعِةٍ، وطَلبتُ شَطيرةً وكأسَ عصيرٍ آخر.

على بُعد طاولتين، جَلَسَت امرأة، كانت تفرُكُ يديها وتَضغَطُهُما بعضهما ببعض ثم تنحَني بوجهِها إلى الأسفلِ لتنظُرَ إلى أظافِرِها وتبتَسِم. ألقَيتُ عليها التَحِيَّة.

«كيف صِحَّتكِ؟»

«صِحَّتي الجَسَديَّةُ سَيئة».

في تلك الأثناء، بَدَأت مجموعةٌ من الراقصينَ، ومعهم

عـازفٌ للإيقـاعِ، بأخـذِ أماكنِهـم بجانـبِ المَسـبحِ تمامـاً. فَبَـدأَ الهـدوءُ يسـودُ بيـن الزبائـن. فجـأة، بـدَأتُ أشَـمُّ رائحـةَ البحـرِ. كانـت السـماءُ في تلـك الليلَـةِ حالِكـةً لا يُـرى فيهـا أيّـة نجـومٍ أبـداً. وبَـدَأَ القَـرْعُ الجُنونِـيُّ للطُّبـول.

بَدَأتُ أكتُبُ لـ تينا، وأنا خارِج تغطِيةِ شبكةِ الإنترنِت:

أنـا الآن فـي فنـدق بابـا ليـون فـي فريتـاون. لا يوجـد أيّ أثـرٍ لصديقِنـا القديـمِ مايـكل.

أنـا فـي المطعـمِ المُحـاذي لبركَـةِ السـباحَةِ فـي هـذا الوقـتِ مـنَ الليـلِ، وثَمَّـةَ فِرقَـةُ رَقـصٍ إفريقيّـةٍ، أعتقِـدُ أنَّهـم مِـن زعمـاء كيسـي (يبـدون كأنَّهُـم أبنـاء شـوارع)، يقومـونَ بـأداءِ رَقَصـاتٍ تتطلَّـبُ السُـقوطَ أرضـاً، ثـم يُشـعِلونَ النـارَ بالأشـياءِ، ويَضرِبـونَ علـى براميـلِ الكونغـا الوحشِـيَّةِ. فـي هـذه الأثنـاء، يقـومُ أحدُهـم بشـيءٍ أشبَهَ مـا يكـونُ باغتِصـابِ كومَـةٍ مـن العيـدانِ المُشـتَعِلةِ وهـو يرتـدي ملابِسَـهُ، والجالِسـونَ علـى الطـاولاتِ القريبَـةِ يقذِفونَـهُ بالنُقـودِ. إنَّـهُ الآن يَتَدَحـرَجُ علـى الأرضِ بجانـبِ المسبَحِ، وهـو يَحتَضِـنُ هـذه الحُزمَـةِ مـن العِصـيِّ المُلتَهِبَـةِ، إنَّـهُ يتَدَحـرَجُ ويتَقلَّـبُ مـرَّةً تِلـوَ مـرَّة وهـو يحتَضِـنُ الحُزمـة علـى صَـدرِهِ. إنَّهـا حُزمَـةٌ مُشـتَعِلةٌ حَجمُهـا قُرابَـةَ نصـف حَجمِـه، مُتوَقِّـدَةٌ عـن بَكـرَةِ أبيهـا. كلُّ مـا أُريـدُهُ هنـا هـو الطعـامُ والشـراب، ولكـن لَـم يَـدُر فـي خَلَـدي أنَّهـم سيقومونَ بالترفيـهِ عنَّـا بعَـرضٍ ماسوشـيٍّ مـن قِبَـلِ شـخصٍ مَهـووسٍ بالحَـرائِق.

يـا إلهـي، يـا صغيرتـي العزيـزة، أنـا هنـا فـي فنـدقٍ إفريقـيٍّ، أُشـاهِدُ شـخصاً مُلتَهِباً. أنـا منتشٍ بعـضَ الشـيءِ، لأنَّني على قناعَـةٍ أنَّـهُ مِـنَ الأفضَـلِ للمَـرءِ أن يكـونَ هكـذا فـي غـربِ إفريقيا، والعالَـمُ شـاعِريٌّ حالِـم، والليـلُ كذلـك... وأنـا أراقِـبُ رَجُـلاً.

فـي الجهـةِ المُقابِلـةِ للباحَـةِ الفَسـيحَةِ، ظَهَـرَ هورسـت وتَسـلَّلَ نحـوي مـن خـلال النيـران وضبـاب الدُّخـان. كان رجُـلاً أبيَـضَ برونـزيّ اللـون، ذا شَعْرٍ أبيـض أنيـق، يلبَـسُ سُـترةَ صيـدٍ فيهـا آلافُ الجُيـوبِ. وعـادةً مـا كان يلبَـسُ ـ الآن تذكَّـرتُ ـ حِـذاءً بُنيّـاً زاهيـاً لـه أربِطَـةٌ بيضـاء، وهـذا هـو مـا أسـتطيع رؤيَتـهُ الآن.

«رولاند! هذا أنتَ! تُعجِبُني تلكَ اللِّحيَة».

«هذا أنا»[1]، قلتُ مؤكِّداً.

«هـل رأيتَنـي علـى رصيفِ الميناءِ؟ لقـد رأيتُـكَ!» ـ ثـم جَلَـسَ ـ اللِّحيَـةُ تُعطيـكَ جاذِبيَّـةً ووَقـاراً.

ابْتَعنـا لأنفُسِـنا عصيراً. قُلـتُ للنادِلِ: «أنـتَ سـريعٌ فـي عَمَلِـكَ» وأعطَيتُـهُ اثنيـن يـورو كَبَخشـيش. «العامِلـونَ هنـا علـى درجـةٍ كافيـةٍ مِـنَ الكفـاءَة. مـن قـالَ إنَّ هـذا المكان قـد تدَهـوَرَ إلـى الحَضيضِ!».

«لم يَعُد مِن فنادِقِ السوفوتيل».

«مَن يَملِكُه؟»

---

(1) قالها بالفرنسية (C'est moi). **المترجم**

«الرئيس، أو أحد رُفقائِهِ المُقرّبين».

«ما خَطبُه؟!»

أشار إلى جِهازي. «لن تستطيعَ الاتصالَ بالإنترَنِت».

رَفَعتُ كأسي له. «ما زالَ هورست يأتي إلى هنا إذن».

«ما زلتُ زبوناً مُنتَظَماً. سِتَةُ شُهورٍ بالسنَةِ. ولكن هذه المَرَّة أُجبِرتُ على البَقاءِ في بلدي سَنَةً كامِلةً تقريباً، منذ شهرِ نوفمبر الماضي. أحد عَشَرَ شهراً».

ازدادَت الحفلَةُ صَخَباً وضَجيجاً. عَدَّلتُ وَضعِيَّةَ شاشَتي ووضَعتُ أصابعي على لوحَةِ المفاتيح. يا لَوقاحَتي. لكنَّني لم أطلُب منهُ الجلوسَ.

«إنَّ زوجَتي مريضةٌ جداً»، قال. صَمَتَ بُرهَةً، ثم أضافَ بشيءٍ من الفَخرِ، «مَرَضٌ ميئوسٌ منه».

في تلك الأثناء، وعلى بُعدِ مترَينِ على جانِبِ المسبَحِ، قامَ العارِضُ بإشعالِ النارِ بقَميصِهِ وسروالِه.

إلى تينا:

لقد رأيت جُنديَّينِ أمريكيَّينِ بملابِس عسكرية غريبة في مكتبِ الاستقبالِ في الفندق وأنا أقومُ بإتمامِ إجراءاتِ الحجزِ. هذا الفندق هو المكانُ الوحيدُ في المدينةِ الذي تِصِلُهُ الكهرباءُ ليلاً. إنَّ تكلُفَةَ الإقامَةِ هنا 145 دولاراً أمريكيّاً لليومِ الواحِدِ.

بالمُناسَبة، طالَت لِحيَتي. هذا ليسَ مِن أجلِ التمويهِ أبداً. لقد تَمَّ كشفي والتّعرُّف عليَّ.

مع هذا التَطبيلِ وهذا الصِياحِ والزَعيقِ، مَن يا تُرى يستَطيعُ أن يتحدَّث؟ ومع ذلكَ، يُصِرُّ هورست على مُواصَلةِ الحديثِ وعدم تركي بِشأني، حيث أسهبَ في الحديثِ عن مرضِ زوجَتهِ... والآنَ حان وقتُ طرحِ الأسئلة. البدايةُ كانت حول مايكل.

«ماذا؟ آسف. ماذا؟»

«قلتُ لك: مايكل هنا».

«مايكل مَن؟»

«هيا! لا أُصَدِّق!»

«مايكل أدريكو؟»

«بالله عليك!»

«هل رأيتَهُ؟ أين؟»

«إنَّهُ في الأنحاء».

«في الأنحاء أين؟ تبّاً. انظر. هورست. في بلادِ الشائِعاتِ، هل نحتاج إلى مزيد من الشائعات؟!

«لم أرَهُ شخصِيّاً».

«ماذا عساهُ يفعلُ هنا؟».

«الألماسُ؛ ببساطَةٍ».

«لم يَعُد الألماسُ سهلاً».

«صحيح، ولكِنَّنا لا نسعى نحو السُّهولة، يا رولاند. نحن نسعى نحو المُغامَرةِ. المُغامَرةُ جيدَةٌ للروحِ والعقلِ والحِسابِ البنكيّ».

«الألماسُ مَحفوفٌ بالمَخاطِرِ هذه الأيّام».

«هل تُريدُ تهريبَ الهيروين؟ العملُ بالمُخدِّرات مُريعٌ. إنِّها تُدَمِّرُ شبابَ الأُمَمِ، وهي رخيصَةٌ جداً. كيلوغرام واحد من الهيروين تُعطيكَ ستة آلاف دولارٍ أمريكيٍّ رِبحاً صافياً. أما الكيلو غرام الواحد من الألماسِ تَجعَلُكَ مَلِكاً».

كتَبتُ لـ تينا: انتهى العرضُ الآن. لا يبدو أنَّ أحَداً قد أُصِيبَ بأذى. كان المكانُ يعبَق برائِحَةِ البنزين.

«ما رأيُكَ؟» سألَ هورست.

«ما أعتَقِدُهُ يا هورست هو أنَّهم سيُخبِرونَ عنكَ، وأنتَ تعرِفُ ذلك، إذ لا يوجَدُ في هذا المكانِ سوى المُخبِرين».

أظنّ أنَّه اقتَنَعَ بكلامي، لأَنَّهُ توقَّفَ عن فِعلِ كلِّ شيءٍ خلال كِتابَتي لـ تينا:

أنا هنا الآن بسبَبِ هذا الأخرَقِ الغبيّ، الذي كان جاسوساً للإنتربول. أمَّا الآن، فيبدو أنَّهُ قد أصبح طاعِناً في السِنِّ ولم يَعُد صالِحاً لأيِّ عَمَلٍ يدفَعونَ له لِقاءَهُ. ولكنه ما زالَ يبدو كأنَّهُ شُرطيّ. إنَّهُ يدعوني رولاند كما لو كانَ شُرطِيّاً.

قد أكون في لحظَةٍ ما سألتُهُ عن اسمِهِ الأوّل. إيلمو؟

قـالَ لـي: «تمتَلِـكُ إسـرائيل سِـتَّةَ صواريـخٍ بـرؤوسٍ نوويَّـةٍ، جاهِـزَةٍ فـي المسـتَودَعاتِ ومُوجَّهَـة نحـو إيـران. وفـي أيّ وقـتٍ خـلالَ فتـرَةِ الانتخابـاتِ الأمريكيّـة المُقبِلـةِ سـتكونُ طهـران، بـوووم بـوووم، فـي خَبَرِ كانَ. ولكـن، كمـا يقـال، العَيـنُ بالعين، يـا صديقـي. وسـيكونُ الإشـعاعُ فـي كلِّ مـكان».

«كانوا يقولونَ هذا الكلام قبلَ سنواتٍ».

«أنـتَ لا تُريـدُ العَـودَةَ إلـى بـلادِكَ. فـي غُضـونِ عَشـرِ سـنواتٍ سـتكونُ الأمـورُ كمـا هـي هنـا، حِفنَـةٌ مِـنَ الأنقـاضِ. الفـارِقُ هـو أنَّ أنقاضَنـا هنـا ليسَـت نَشِـطَةً إشـعاعِيّاً، ولكِنَّـكَ لـن تُصَدِّقنـي إلّا عندمـا تَتَحَقَّـق مـن ذلـك علـى عَـدَّادِ غايغـر». لقـد مَسَـحَت الشـرابُ عنـهُ كلَّ سِـماتِه الأوروبِيَّـة. كان أبيـضَ الشَـعْرِ أحمـر الوَجـهِ، عِفريـتُ مَـرحٍ وآكلُ لُحـومِ بَشَـرٍ.

في بَهوِ الفندق، صافَحنا بعضَنا وتمَنَّينا لِبَعضِنا ليلةً سعيدةً. «بالطبعِ إنَّهـم يرغبـونَ بالإخبـارِ عنكَ»، قـال. وَقَـفَ علـى رُؤوسِ أصابِـعِ قدَميـهِ وهـو يُحـاوِلُ الوُصـولَ إلـى مُسـتوى أذُنـي اليُسـرى ليَهمِـسَ لـي، «ذلـكَ هـو السـببُ في أنَّـكَ، عندمـا تعـودُ، لـن تكـونَ الشـخصَ نفسـه الـذي أتـى».

❋

لاحقـاً، تمـدَّدتُ فـي العَتمَـةِ واضِعـاً مِذيـاعَ جيـبٍ علـى ذاتِ الأذن، وبأذنـيَ الأُخـرى كنـتُ أسترقُ السَّـمعَ لأيِّ صَـوتٍ يُوحـي ببَـدءِ عَمَـلِ المُوَلِّـدِ الكهرُبائيِّ في الفنـدق. داهَمَني صُـداعٌ مُفاجِئٌ. أشعَلتُ عـودَ ثقـابٍ نتِناً، وأشعَلتُ شَـمعَةً وفتَحـتُ النافِـذَةَ. تزايَدَت ارتِطامـاتُ الحَشـراتِ علـى الشاشَـةِ، مـا اضطَرَّنـي إلـى إطفـاءِ الشـمعَةِ. أذاعَـت محَطَّـةُ هيئـة الإذاعـة البريطانيـة (بـي بـي سـي) تقريـراً عـن عاصِفَـةٍ عنيفـةٍ بريـاحٍ سُـرعَتُها 120 كـم فـي السـاعة كانت قـد ضَرَبَـت ولايـاتِ فرجينيـا، وغـربَ فرجينيـا وأوهايـو الأمريكيّـة، عانـى علـى إثرِهـا ثلاثـةُ ملاييـن بيـتٍ مـن انقطـاعِ الكهرُبـاء.

عـادَ التيـارُ الكهربائـيُّ هنـا فـي فنـدق بابـا ليـون. اشـتَغَلَ التلفـازُ. كانـت محَطَّـة التلفزيـون الصينـي المركـزيّ (سـي سـي تـي ڤـي) تبُـثُّ باللغَـةِ الإنجليزيّـةِ. عُـدتُ إلـى المِذيـاعِ.

بَـدَأت الهواتِـفُ فـي فريتـاون بالرَنين! ذلـكَ الرنيـنُ الإنجليزيُّ! وجـاءَ صـوتُ شـخصٍ يَتَحـدَّثُ كمـا لـو كان يَتَحـدَّثُ مِـن قـاعِ بِئرٍ:

«بَدَأت الإنترنت بالعَمَلِ».

بالعَمَـل! ـ لحظَـةُ إثـارَةٍ كمـا هـو الأمـر دائمـاً. كان حاسـوبي بجانِبـي علـى السـريرِ. عبَثـت بالمَفاتيـحِ، وذَيَّلْـتُ مُلاحَظَـةً لتينـا:

سَـحَبتُ بعـضَ النُّقـودِ مـن حِسـابِ السَّـفر ـ خَمسَـة آلافِ دولارٍ أمريكـيٍّ. البِطاقـاتُ الائتمانيـةُ مـا زالـت غيـر موثوقَـةٍ هنـا. سِعرُ الصَّـرف هنـا 250 ليـون لـكُلِّ يـورو. وأكبَـرُ ورَقـةٍ نقدِيَّـةٍ هـي

الـ 100 ليـون. يَتَوجَّـبُ عليـكَ حَمـل نُقـودكَ فـي حقيبَـةِ تَسَـوُّقٍ، وفـي بعـضِ صناديـقِ الأحذِيَـةِ. أصبَحـوا الآن يطلُبـونَ دولارات. سـيبدَؤونَ بِقَبـولِ اليـورو. إنَّهـم يكرَهـونَ عُملَتَهـم.

أرسَلتُ رسائِلي الإلكترونيّةَ، وانتظَرتُ، ثـم انقَطَـعَ الاتصـالُ بالإنتَرنِـت.

كانـت قنـاةُ هيئة الإذاعـة البريطانيـة (بـي بـي سـي) تَبُثُّ برنامَجَ (شـارِك العالَـمَ برأيِكَ)[1]، وكان موضـوعُ الحَلَقَـةِ مُمِلّاً.

وفـوراً، بَعـدَ وُصـولِ رَدِّ تينـا، توقّـفَ المُولِّـدُ الكهرُبائِـيُّ عـن العَمَـلِ، فتَوقَّـفَ معـهُ طَنيـنُ الجُـدرانِ وسـادَ الظَّـلام فـي كلِّ مـكانٍ. كانَ رَدُّ تينـا:

عندما تَعودُ لن تكونَ الشخصَ نفسه الذي أتى.

لقد تَذَكَّرتُهُ فجأة. إنَّهُ برونو. برونو هورست.

*

قُرابَـةَ السـاعةِ الثالِثَـةِ صباحـاً، اسـتَيقَظتُ ولَبِسـتُ بنطـالاً وقميصـاً ونَعـلاً، وأضـأتُ مِصبـاحَ هاتفـي النوكيـا للنُـزولِ إلـى الأسـفل؛ ثمانـي خُطُـواتٍ علـى الـدرجِ، وصَلـتُ إلـى الـرُّواقِ الخافِـتِ. لـم يكـن هنـاك أيّ أحـد أبـداً. وأنـا أقِـفُ فـي الوَهَـجِ المُنبَعِـثِ مـن الشـمعَةِ والظِـلالِ الهائِلَـةِ التـي تُحيـطُ بـي، عـادَت

(1) برنامج حواري اسمه بالإنجليزية (World Have Your Say). **المترجم**

الأنـوارُ فجـأة، فانفَتَحَـت أبـوابُ المِصعديـن ثـم انغَلَقَـت، ومَـرَّةً أخـرى انفَتَحَـت وانغَلَقَـت.

*

صَحَوتُ على صوتِ عاملِ الحديقةِ وهو يَكنُسُ ذُبابَ مايو المَيِّتِ بِمِقَشّةٍ صغيرةٍ من المَمَرِّ تحت شُرفَتي. وقُرابَةَ الساعةِ السادِسَةِ أمطَرَت السماءُ لمُدَّةِ خمس عشرة دقيقة، مما طَرَدَ الحشرات من الأجواء. إنَّني أُسَمّي هذه الحشرات ذُبابَ مايو لتَسهيلِ الأمر؛ فالواحدةُ منها كانت تبدو نِصفَ صرصورٍ أيضاً. لاحقاً، في بهو الفندق، سألتُ الحارِسَ عنها، فقالَ لي بلفظٍ إنجليزيّ مُحَرّفٍ: «حشرات»[1].

كان مايكل قد اتَّصَلَ بالاستعلاماتِ وتَرَكَ لي رسالةً. سألتُ موظَّفَ الاستقبال، «لماذا لم تَقُم بتحويلِهِ إلى هاتِفِ غرفتي؟» بدا وكأنّهُ نَسِيَ سؤالي وهو يقومُ بِخَدشِ سطحِ مكتَبِهِ بأظافِرِهِ ثم يَتَمَعَّنُ بالخُدوشِ الناجِمَةِ، ثم قال: «وما أدراني أنا».

أرادَ مايكل أن يلتقي بي الساعة 16:00، في سكانلون. وهذا كَشَفَ لي عن كَثيرٍ مِن أحوالِه.

جُلتُ في أرجاءِ مطعمِ فندقِ بابا ليون في آخر عشرين دقيقة من وقتِ البوفيه المفتوحِ الذي ينتَهي الساعةَ العاشرة.

(1) قالها بالإنجليزية هكذا «In-seck». **المترجم**

وكنتُ آخر شخصٍ يأتي للإفطار. وكانَ العامِلونَ قد احتَشَدوا حول مقالي التسخين، وقد جَمَعوا ما تَبَقّى من الأطعِمَةِ في صُحونٍ لأنفسهم. إذن هذا هو ما يأكلون على ما أظنّ. وبِقُدوميَ الآن إلى هنا حامِلاً صحني أكون كَمَن سَرَقَ الطعامَ من أفواهِهم مُباشَرةً. وأخَذتُ أيضاً بعضَ البطاطا المقلِيَّةِ، والتي يُسمُّونَها هنا «البطاطا الإيرلندية»، وبِسَبَبِ نَظَراتِهم إليَّ لم أتَمَكَّن مِنَ الأكل، ولكنَّني أكَلتُ على أيّة حال. وتَحتَ تَحديقاتِهم الحَنونَةِ، أكَلتُ كلَّ شيءٍ في الصحنِ حتّى الفُتاتِ.

كُنّا في شهرِ أكتوبر والحرارَةُ حوالَي الثلاثين درجةً مِئويَّةً أغلب اليوم؛ يُمكِنُ احتمالها في الظِلِّ. وكانت الرُّطوبةُ مُرتَفِعَةً كما هي على الدوام. يَصِلُنا الآن نسيمٌ بارِدٌ مِنَ البَحرِ، وهناكَ بعضُ الغُيومِ البيضاءِ الناصِعَةِ في السماءِ، وأشِعَّةُ شَمسِ الظَّهيرة تَهوي علينا وتَطرُقنا كالسِّندان المُستَعِرِ. الزبون الوحيدُ الآخَرُ غيري كان أمريكيَّ الملامِحِ في لباسٍ مدَنيٍّ، وكان مَوشُوماً في أعلى ساعِدِهِ بِرأسٍ من رُؤوسِ ملّاحي ومُحارِبي الفايكنغ.

عادَ التيارُ الكهرُبائِيُّ. فانسابَت موسيقى الريف الأمريكيّة عبر الأجِهزَةِ الصوتِيَّةِ في الفندق. شَربتُ النصفَ الآخَرَ من قهوَتي على طاولةٍ بالقُربِ من التلفاز، ليَتَسنَّى ليَ مُتابَعَة الأخبارِ على المحطَّةِ الصينيِّة. ولكن كانت هناكَ مَحَطَّةٌ محلِّيةٌ تقومُ بالبثِّ، وكلُّ ما استَطَعتُ متابعته كان رِسالَةً دِعائِيَّةً عن مشروب الطاقة

غينيس. في هـذه الدعايَـةِ، يعـودُ الأخُ الأكبَرُ لوَطَنِهِ فـي أحد أدغـالِ أفريقيـا مِـن حياتِـهِ الناجِحَـةِ فـي المدينـةِ. يقـومُ باحتِسـاءِ مشـروب الطاقـة «غينيـس درافـت» مـع أخيـهِ الأصغـرِ تحـت وَهَـجِ أضـواء شـاعريّة لا يملِكـونَ مثلهـا فعـلاً فـي الأدغـالِ. يُنـاوِلُ الأخُ الأكبـرُ ابـن المدينـة أخـاه الأصغَـرَ ابـن الأدغـالِ تذكِـرَةً مكتوبـاً عليهـا: «هـل أنـت علـى استِعدادٍ للجلوس على طاوِلَـةِ الرجـال؟» يأخُذُهـا الأخُ الأصغَرُ بامتِنـانٍ وعزيمـةٍ، قائِـلاً، «نعـم!» كان المُعلِـن يتَحَـدَّثُ كالعظمـاء: «غينيس. طريقُكَ نحوَ العَظَمَةِ».

*

خَرَجـتُ بعـدَ الإفطـارِ إلـى الواجِهَـةِ الأماميّـة للفنـدق ومعـي حاسـوبي الـذي كنـتُ أضعـه فـي حمّالـةٍ كَتِلـكَ التـي يحمِلـونَ بهـا الأطفـال. وكُنـتُ أحزِمُهـا علـى صـدري. بَلَّـلَ العـرَقُ قميصـي، ولكِـنَّ حقيبـةَ الحاسـوبِ كانـت مُضـادَّةً للمـاءِ.

كانـت هنـاكَ سـيارةٌ واحـدةٌ فقـط مَركونَـةً فـي الخـارجِ أمـام الفنـدق. كان غِطـاءُ المُحـرِّكِ مفتوحـاً. كان عَـدَدٌ قليـل مـن الرجـالِ ينتظِـرونَ إلـى جانِـبِ درّاجاتِهـم «الأوكاد»، وهـي درّاجـاتٌ ناريّـة مـن أصغَـرِ الأنـواع، 90 سـي سـي فـي أغلـبِ الأحيـانِ. اختَـرتُ واحِـدَةً اسـمها بوكسـر، نـوعٌ صينـيٌّ. سـألتُ صاحِبَهـا: «يـا صاحِـبَ البوكسـر، هـل تعـرِفُ السـوقَ الهنـديّ؟ سـوقُ الأفيـال؟»

«الأفيـال؟» أجـابَ بصـوتٍ مُرتفِـعٍ. «لِنَذهَـب!» فَتَـحَ الكرسـيَّ

الـذي خلفَـهُ فجَلسـتُ عليـه، وأنطَلَقنـا مُسـرِعينَ نحـو السـوقِ الهنـديِّ عبـر شـوارِعَ مـا زالـت مُوحِلَـةً وزَلِقَـةً بسـببِ هُطـولِ المَطَـرِ في الليلَـةِ الفائِتَـةِ. كان يتَرنَّـحُ يَمنـةً ويَسْـرة ليَتَجنَّـبَ الحُفَـرَ والأخاديدَ والمَطَبّات والتجاويف، ولِيتَجَنَّبَ الاصطِدامِ بالمُشاةِ وبالدراجـاتِ الهوائيـةِ والشـاحِنَةِ الضخمَـةِ التـي كانـت قادِمَـةً نحوَنـا بوَجهِهـا الـذي كانَ سـيَلتَهِمُ كلَّ شـيءٍ أمامهـا ـ اسـتطاعَ أن يتَجَنَّـب كلَّ هـذه الأشـياءِ مَـرَّةً تِلـوَ مَـرَّة. وعندمـا وَصَلنـا إلـى السـوقِ المُثَبَّـتِ علـى واجِهَتِـهِ الأماميّـة لوحَـة لـ غانيشـا ـ إلـهُ المَعرِفَـةِ والنـارِ في الهنـد ـ شَـعَرتُ بأنَّني على قيـدِ الحياةِ وأكثَـرَ حَيَوِيَّـة، ولكنِّـي أيضـاً شَـعَرتُ أنَّنـي مَقتـول.

التمثـال غانيـش[1] (صاحِـبُ وَجـهِ الفيـل) كان مـا زال موجوداً، ولكِنَّهـم قامـوا بتَغييـرِ اسـم السـوق (الـذي كان يُسـمَّى سـابِقاً بِسـوقِ غانيشـا) إلـى سـوبرماركت واي 2 كاي.

قالَ لي سائِقي: «سأبقى بانتِظَارِكَ».

«لا. انتهى»، قلتُ له وأنا أعلم أنَّهُ سيبقى ينتَظِر.

تَرَكـتُ بوكسـر أمـام المَدخَـلِ، ومَشـيتُ باتجـاهِ السـوقِ، ولكنَّـني تَنَحَّيـتُ جانبـاً وانطَلَقتُ. أظُنُّهُـم يُسـمَّونَ هـذا النـوع مـن المُراوَغَـةِ فـي العالَـمِ السُـفلِيّ سِياسَـةَ البـابِ المُـزدَوَجِ.

---

(1) غانيشا أو غانيش هو إله هندوسي على شكل فيل. **المترجم**

وجَـدتُ مَمَـرّاً ضَيِّقـاً مليئَـاً بالمتاجِرِ، ولكنَّنـي لـم أكُـن أعلـم أيـن أنـا. ثـم انطَلَقـتُ إلـى الطريـقِ الأكبَـر علـى يسـاري، ومَشَـيتُ فيـه. كان الطريـقُ مُدَمّـراً تقريبـاً. انحَرَفـتُ تـارَةً فـي هـذا الاتجـاه مـارّاً بِسـائِق درّاجَـةِ أوكادا، وتـارَةً بذلِـكَ الاتجـاه مـارّاً بدرّاجَـةٍ هوائيَّـة. فَقَـدتُ وتيرَتـي فـي هـذه البيئـة. وفـي تلـكَ الأثنـاء، أصبحـت حَرَكَـةُ السيرِ بالإضافـة إلـى حَـرارَةِ الطَّقس مـن جَـرَّاءِ المَشـيِ مَصـدَرَ إزعـاجٍ لـي. لقـد تُهـتُ. وطـوال خمـسٍ وأربَعيـنَ دقيقـة، تُهـتُ بيـنَ ممـرّاتٍ مليئَـةٍ بالأوحـالِ ولا أسـماءَ لهـا، حتّـى وَجَـدتُ المَكانَ الـذي كُنـتُ ابتَغيـهِ، مُؤسَّـسةٌ صغيـرةٌ بيافِطَـةٍ كُتِـبَ عليهـا «وثائِـقَ إيلفيـس».

كانَ هنـاكَ ثلاثَـةُ ألـواحٍ شَمسِـيَّةٍ موضُوعَـة علـى حَصيـرٍ مِـنَ القَـشِّ فـي المَمَـرِّ التُرابِـي المُوحِـلِ، وكان يَتَوجَّـبُ علـى المـارَّةِ أنْ يـدُوروا حَولَهـا للمُـرور. كَتَبـوا علـى اللافتـة أيضـاً: «عُـروض: تصويـرُ وثائِـق، تجليـد، طِباعَـة، تغليـف، دفاتِـرُ فواتيـر ووُصولات، تعليـم كمبيوتـر».

فـي الداخِـلِ، كان هنـاكَ رَجُـلٌ يجلِـسُ علـى مَكتَبِـهِ وَسـطَ أدواتِـهِ وبضائِعِـهِ - مَصـدَر رِزقِـهِ - وكانـت هنـاكَ كاميـرا علـى مَنصَـبٍ ثُلاثـيِّ الأرجُـل، وآلَـةُ تصويـرِ وثائِـق ضخمـة، وجهـازا كمبيوتـر - كُلُّهـا موصولَـةٌ بأسـلاكٍ كهرُبائِيَّـة.

هَـبَّ الرجُلُ واقِفاً عن كرسِيِّهِ الـذي كان كرسيّاً دوَّاراً مصنوعاً

مـنَ الجِلـدِ ولكـن دون قاعِـدَةِ العَجَـلات، وقـال: «أهـلاً وسـهلاً. كيـفَ لـي أن أخدمـكَ؟» ثـم أردَفَ قائـلاً: «آخ!» وكأنّـهُ ابتلَـعَ بِـذرَةً. «هـذا رولانـد نايـر».

كان ذلـكَ الرجـل محمـد كالـون. لـم يكُـن ذلِـكَ احتمـالاً، فقـد دَقَّقـتُ النَظَـرَ فـي وَجهِـهِ جيِّـداً.

«أين إيلفيس؟».

«إيلفيس؟ لقد نَسيتُهُ».

«ولكِنَّكَ تذَكَّرتَني. وأنا أيضاً أتَذَكَّرُكَ».

بـدا حَزينـاً، وخائِفـاً أيضـاً. لكِنَّـهُ تَظاهَـرَ بالابتِسـام. أسـنانٌ بيضـاء، بَشَـرَةٌ سـمراء، وعيـونٌ ذاتُ بؤبـؤٍ مُصْفَـرٍّ سَـقيم. كان يرتَـدي قميصـاً أبيَـضَ وبنطـالاً بُنّـيَّ اللـون، وحـول خَصـرِه حِـزامٌ أسـودُ لامِـعٌ مـن البلاسـتيك. ونَعـلٌ بلاسـتيكيٌّ بيتِـيٌّ بَـدَلاً مـن الحِـذاءِ.

«مـا المُشـكِلَةُ هنـا يـا كالـون؟ تَفـوحُ مِـنْ مَتجَـرِكَ رائِحـةُ مراحيـضٍ».

«هل تُريدُنا أنْ نَتَشاجَر؟».

لم أُجِبهُ.

كلُّ شـيءٍ كان واضِحـاً علـى وَجهِـه، فـي ابتسـامَتِه، وفـي عينَيـه الدامِعَتيـن. «إنَّنـا الآن علـى نَفـسِ الخَـطِّ يـا رولانـد، فَفـي أوقـاتِ السِّـلم، كمـا تَعلَـم، لا يوجَـدُ إلا خَـطٌّ واحِـدٌ». فَتَـحَ لـي كُرسِـيّاً

مَطوِيّاً كان إلى جانِبِ مَكتَبِهِ وهو مُستَمِرٌّ في الدَّوران. «كُنتُ أُرَجِّحُ أنَّكَ مَوجُودٌ في فريتاون».

لَم أجلِسْ. «لماذا؟».

«لأنَّ مايكل أدريكو مَوجُودٌ هنا أيضاً. لقد رأيتُهُ. هذا الهَارِبُ الفارُّ».

«تدعو مايكل بالهَارِبِ؟».

«هاه!».

«إنْ كانَ هو هارباً، فأنا أيضاً كذلِكَ».

«هاه!».

شَعَرتُ بالامتعاض، وعلى استِعدَادٍ للجدالِ، كانَ محمد، وما زالَ، محقّقاً جيّداً. «اسمَع» قلتُ له، «مايكل لا ينتَمي لأيَّةِ قبيلَةٍ مِن قبائِلِ سيراليون، ولا لأيَّةِ مَشْيَخَةٍ مِن مَشيَخاتِها. أظنّ أنَّهُ أصلاً مِن أوغندا. لذلِك، إن كانَ قد غادَرَ إلى هناكَ سابِقاً، فهذا يَعني أنَّهُ لَم يَهرُب».

«لِمَ لا تَجلِس لنَتَحَدَّث؟».

«إنَّ برونو هورست في الأرجاء».

«أُصَدِّقُ ذلك. وأنتَ كذلِكَ».

«هل يعمَل لدى إحدَى شركاتِ الرّحلاتِ الجَوِيَّةِ؟».

«كيفَ لي أن أعرف؟».

«لا أدري كيفَ لكَ أنْ تَعرِف. ولكِنَّكَ ستَعرِف».

«ولدى مَن يَعمَل رولاند ناير؟».

«نادِني ناير فقط. ناير موجود هنا في فريتاون لِغَرَضٍ واحِدٍ ومُحّدَّدٍ: أعمالٌ شَخصِيَّةٌ خاصَّةٌ. والأُمورُ هنا مُقرِفَةٌ حقاً».

«ولدَى مَن تَعمَل؟».

لَمْ أكتَرِث بِسؤالِهِ.

«لدى أيّ أحد، كالمُعتاد»، قال.

لم أكُن يوماً مِن رِجالِ التعذيبِ، ومَا غاصَت قَدَمايَ يوماً بِدِماءِ ضَحايايَ قَطّ ... «لا أستطيع أن أتَصَوَّرَ كيفَ انتهى بِك المَطافُ إلى هنا»، قُلتُ لهُ. «إنَّكَ مُخطِئٌ تماماً في كُلِّ هذا».

«بالله عليك! مُخطِئٌ تماماً بِماذا؟»

«أنتَ مُراوِغٌ خبيثٌ».

ضاعَت الابتِسامَةُ عن وَجهِ محمد. «إنّني أسْمَعُ الطَنْجَرَةَ تقولُ للإبريقِ، «أنتَ أسوَد»، هل تعرِف هذا التعبيرِ؟»

كانَ لديهِ وُجهَة نَظَرٍ. «حسناً»، قُلتُ. «كلانا أسوَد»، أثارَ هذا جَذوَةَ المَرَحِ لديَّ.

ثم عادَت الابتِسامَةُ إلى وَجهِ محمد. «ناير، أنا لا أُريدُ أن أقَعَ في الزّلل بَعدَ كلِّ هذا الوقتِ الطويلِ - صِدقاً - وَقد حانَ الوقتُ تقريباً لتأخُذَني إلى الغَداءِ!»

«الغَـداءُ ليـسَ خـارِجَ الحِسـاباتِ»، قلـت. «ولكـن قبـلَ ذلِـكَ اسـمَح لـي باستِخدامِ حواسـيبكَ لِبِضـعِ دقائِـق».

«لا أحد منها يَعمَلُ».

«أُريدُ الأجهِزَةَ التي في الطابق السُفليّ».

«لا يوجَـدُ طابِـقٌ سُـفلِيّ». كان كاذِبـاً مُريعـاً. حَملَقـتُ بـهِ حتّـى بـدأَ يفهَـمُ مـا أرمي إليـه. «بِحَـقِّ السَّـماء!»

«دَعنا نُلقِي نَظرَةً داخِلَ خِزانَتِكَ».

«كُلُّ يـوم يأتـي بمفاجـآت جديـدَةٍ!» بَـدا وكأنّـهُ أكَلَ شيئاً فاسِـداً ولكِنَّـهُ لذيـذٌ. «هـل تَعمَـل لِمَصلَحَـةِ بُنْيَـة الناتـو لِتَبـادُلِ المعلومـاتِ الاستِخباراتِيَّة (إن آي آي إيـه)»؟

«دعنـا نَتَّبِـع البروتوكـول». اقتضـى البروتوكـول أن يبتَعِـد عـن طريقـي.

عـادَ وجَلَـسَ فـي مَكانِـهِ وأشـغَلَ نَفسَـهُ بِكَومَـةٍ مِـنَ الإيصـالاتِ، غَمَرَتـهُ مَوجَـةُ فَـرَحٍ عـارِمٍ وأنـا أعبُـرُ السـاحَةَ الفارِغَـةَ تِجـاهِ حُجـرَةِ المَماسِـحِ الأرضِيَّـةِ المَفتُوحَـة، والتـي يَتِـمُّ اسـتخدامها أيضـاً كَمِرحـاض، إذ كانَـت تحتَـوي علـى دَلـوٍ للفَضَـلاتِ مُغطـىً بِلَـوحٍ خَشَـبيٍّ، وعلـى الأرضِ إلـى جانِبِـهِ كانـت هنـاكَ لُفافَـةٌ بنّيّـة اللـونِ مِـنَ الـوَرَقِ الصِحِـيِّ ـ هـذا هـو سَـبَبُ الرائِحَةِ الـنَتِنَـةِ التي تَطغَى علـى المَـكانِ.

استعَنتُ بقارئ الشيفرات على جهازي، وهو جِهازٌ يَتِمُّ تثبيتُهُ على سِلسِلَةٍ من المفاتيح. الشيفرَةُ التي تتكَوَّنُ مِن ثَمانيَ خاناتٍ تَتَغَيَّرُ كلَّ تسعين ثانية. دَخَلتُ الحُجرَةَ الصغيرةَ وأغلَقتُ البابَ خلفي. وبِمُساعَدَةِ مِصباح هاتفي النوكيا أزَحتُ رُقعةً على الحائط الخَلفيِّ وأدخَلتُ الأرقامَ في الإنترلوك[1] ثم دَفَعتُ الجدار فانفَتَح، ونَزلتُ إلى الأسفَلِ على الدَّرج المَعدِنيِّ. انغَلَقَ الجدار خلفي من تِلقاءِ نفسِهِ دونَ أيّة مُساعَدَةٍ مني.

كانَت الأنوارُ الأربَعَةُ هنا مُضاءَةً.

كنتُ قد دَخَلتُ هذا المَكانَ السِرِّيِّ أكثر من مَرَّة، منذ زَمَنٍ بعيدٍ. تمَّ بِناءُ هذا المَكانِ وَفقاً للمعاييرِ والمواصَفاتِ الأمريكيّة، ليسَ بالأمتارِ بل بالأقدامِ: مَساحته 10×16 قَدَماً، بجُدرانٍ خُرسانِيَّةٍ يبلغُ ارتفاعُها ثمانيةَ أقدامٍ، ومُزَوّدٌ بِدَرَجٍ مُكَوَّنٍ من اثنتي عشرة دَرَجَةً تؤدي للأسفل، وبنكِ طاقَةٍ للشَحنِ موضوعٍ في قَفَصٍ مُشَبَّكٍ ومُثبّتٍ ببراغٍ في الأرضِ الخُرسانِيَّةِ. وعلى كُلِّ جدارٍ، تَمَّ تثبيتُ مِصباحٍ كهرُبائِيٍّ موضوع في قَفَصٍ مُشابِه. طاوِلَةُ مَكتَبٍ وكرسيّ، وكِلاهُما معدَنيّان ومُثبّتانِ أيضاً بالأرض. على الطاولةِ يوجدُ جِهازا كمبيوتر - أصغرُ بكثيرٍ مِنَ الوِحداتِ التي كنا نستخدِمُها قبلَ اثنتي عشرة سنة.

---

(1) نظام قفل الأبواب الآلي. **المترجم**

جلستُ وأخرجتُ من حقيبتي جهازاً تم تمويهه على شكلِ ولّاعةِ سجائر، جهازٌ تمّ إصدارُه من قِبَلِ الناتو يُشبهُ ذاكرة الفلاش (يو أس بي)، ومُزوَّدٌ بالخوارزميات المُدْمَجة. يُصدِرُ هذا الجهازُ وميضاً. رَفَعتُهُ إلى وجهي وقُمتُ بمَسحِ قُزحِية عيني وأدخَلتُهُ في المكانِ المُخصَّصِ له على جانِب الجهازِ الذي أمامي. قمتُ بتشغيلِ الجهازِ وتسجيلِ الدخول. ومن خلال البروكسي[1] الخاص بالناتو إنتيل، بعثتُ «لا شيءَ للإبلاغِ عنهُ» ـ لكنّي بعثتُ ذلك مرتين، وكان هذا بمثابَةِ إخطارٍ لتينا لتَتوقَّع وصولَ رسالةٍ إلى بريدها الإلكترونيّ الشخصيّ. ستعرِف تينا أنَّهُ يتوجَّبُ عليها تخزين الخوارزميات العسكرية. كنا نستخدمُ برنامجَ تشفيرٍ من النوع عالي الخصوصية (بي جي بي)، وكما يوحي الاسم، فهو برنامجٌ يُؤمِّنُ حماية جيدة.

قمتُ بتسجيلِ الخروج من موقع استخبارات الناتو. ثم قمتُ بإيصال لوحَةَ مفاتيحي بوحدة التحكم وقمتُ باتّباعِ الخطوات، فأنشأتُ شبكةً افتراضيّةً خاصّة، وأرسلتُ:

ابعثي لي الملف «3TimothyA». كلمةُ السّر الخاصة بك «NEMCO» ستعمل.

لم يكن ثمة شيء يُسمع سوى صوتُ أنفاسي وصولاتُ ثلاثِ مراوحِ تبريدٍ صغيرةٍ. كانت المراوح تعمل على تبريد

(1) خادم وسيط. **المترجم**

وحدات الجهاز وليس مُستخدِم الجهاز. مسحتُ وجهي ورقبتي بمنديلي الذي اعتصر بالعرق. بدأت أنفاسي تتسارع أكثر وأكثر. جاوَزَت الساعةُ الـ 13:00 بقليل، حسب ساعة هاتفي النوكيا، وقتُ الظهيرة في أمستردام. لم أسمح بضياع أيّ وقت أبداً. ربما تكون تينا قد غادرت للغداء الآن. انزعجتُ من عدم قدرتي على السيطرة على أنفاسي والتخفيف من حِدّة تسارعها.

لكن تينا كانت ما زالت على مكتبها وكانت على أهبة الاستعداد. بعثتُ لها: «إنّني على استعدادٍ لتلقّي تلك الصور».

وفي غضون دقيقتين كان الأمر قد انتهى.

أعتقدُ أننا، ومن خلال هذه العملية، نكون قد دخلنا كلانا في مغامرة قد تكون نهايتها السجن مدى الحياة. ولكن واحداً منا فقط كان يعلم بذلك. وكأيّ شخص يعمل في مجال الاستخبارات، لم تسأل تينا أيّ سؤال إطلاقاً. بالإضافة إلى أنها كانت تحبني.

صعدتُ أعلى الدرج ودخلتُ متجر وثائق إيلفيس وأنا أضع جهازي على صدري كالسابق، كما لو كنت أحمل بضاعة ما، ولكن الأمر لم يكن كذلك. كانَ مُحَرِّكُ أقراصٍ مِن نوعِ ذاكِرَة الفلاش (يو أس بي) مشبوكاً في حَلَقَةٍ مِن حَلَقاتِ حِزامِي في منطِقَةِ الخَصْرِ، وكانت البِضاعِةُ مُحَمَّلةً عليه.

كان محمد ينتظر على كرسيّه المكسور، وكان ينظرُ بثباتٍ وجديّةٍ إلى ناحيةٍ أخرى.

«هيا بنا نأكُل»، قلتُ.

أكلنا في مطعم برادي في آخر الشارعِ. كان طعاماً هنديّاً جيّداً.

خلال أواخرِ التسعينيات، ولسنواتٍ عديدةٍ بعد ذلك، عندما جَذَبَ هذا المكانُ اهتمامَ وسائل الإعلام، كان كالون يعملُ مراسلاً لوكالة الأسوشييتِد بريس للأنباء ومُخْبِراً لوكالَةِ المُخابراتِ المركزية (سي آي إيه). ومن ثم تم تحويلُهُ إلى الخدمات السرية في سيراليون لنَقلِ الأسرارِ من قلبِ الأحداثِ القذرة. وقد أضرَّ بالكثير من الأشخاص. وقد حصل الآن على وظيفةٍ في الناتو.

وعليّ الاعتراف بأن فكرةَ استخدامِ وكالة المخابرات المركزية لمحمد كالون هي مَحضُ افتراضٍ مني ليس إلا. وما يُثيرُ هذه الفكرة داخلي هو امتلاكي لحَساسيّةٍ حادَّةٍ تجاه الأشياء، إذ إنّني أملِكُ أنفاً حساساً لأنواعٍ مُعيّنةٍ من العطور. فلِلمُخبرينَ رائِحة كريهة.

تركتُ كالون يطلبُ الطعامَ لكلينا بينما ذهبتُ أنا إلى مرحاض الرجال. أقفلتُ البابَ خلفي بالترباس وأخرجتُ جوازَ سفري من جيبة قميصي ووحدة تخزين البيانات (كروزَر) المشبوكة بحلَقَةِ الحزامِ في بنطالي. كم أتوقُ جداً للتخلص منه. كنتُ جباناً، لكن الوضع كلهُ كان جديداً بالنسبة لي.

عـادةً مـا أحمـلُ جـواز سـفري فـي كيسٍ بلاسـتيكيٍّ لـه سَحّابُ إقفـال. أخرجـتُ جـواز سـفري مـن الكيـس ووضعـتُ مكانـه وحـدة تخزيـن البيانـات ولففتهـا بإحـكام بالكيـس البلاسـتيكيّ وبحثـتُ عـن مـكانٍ آمـن لإخفائهـا.

كان فـي المرحـاض مَقعـدان وكلاهمـا مثبَّـتٌ بـالأرض. وكان لـكُلٍّ منهمـا دوَّاسـةُ قـدمٍ لفتـح مـاء السـيفون. تفحّصـتُ بـلاط الجـدران الأربعـة، حرّكـتُ المـرآة، حرّكـتُ أصابعـي حـول إطـار النافـذة. حاولـتُ رفـع البلاطـات بيـن المرحاضيـن ـ فلتَـتْ إحداهُمـا. وبإصبعـي أحدثـتُ شِـقّا فـي الأرضيـة أسـفل البلاطـة. وضعـتُ الكيـس الـذي يحتـوي علـى وحـدة البيانـات فـي الشِـقِّ وأعـدتُ البلاطـة إلـى مكانهـا.

وحتـى يبـدو كل شـيء طبيعيّـاً، ضغطـتُ علـى دوَّاسـة أحـد المقعديـن. إلّا أنهـا لـم تعمـل ولـم يخـرج المـاء. جرّبـتُ الأخـرى فرَشَـقَت حذائـي بالمـاء. غسـلتُ يـديَّ علـى المغسـلة ثـم عـدتُ إلـى مجالسـة محمـد كالـون.

تحدثنـا خـلال الغـداء عـن أشـياء لا أهميّـة لهـا، إلا عندمـا سـألتُه بشـكل مباشـر: «مـاذا يحـدث؟» فقـال: «مايـكل أدريكـو هـو ما يَحدُث».

*

لـم يكـن هنـاك مـكان آخـر أذهـب إليـه، لذلـك وصلـتُ إلـى فنـدق سـكانلون قبـل الموعـد المحـدد بسـاعة. يُعَـدُّ هـذا الفنـدقُ

الفندقَ الأهَمّ بالنسبة لفريتاون مقارنة بالفنادق الأخرى الأفضل. فعندما استقطبت المنطقةُ اهتمام الصحفيين، كان هذا الفندق هو المكان الذي نزل به معظمهم. إنه مبنىً مُكوّنٌ من أربعة طوابق في مكان يَعُجُّ بأبخرة الديزل، وعندما يكون الطقس جافّاً يَعُجُّ بالأتربة المُتطايرة.

كان يُخيّمُ السكون والضوء الخافت على البهوِ في داخل الفندق - الكهرباء مقطوعة في هذه الأثناء يا سيدي - ولكن كان المكان يغصّ بالخلق. في وسط البهو، وقف شخصٌ يلبس بزّة رياضية مُلوكِية مُكوَّنةً من قطعتين ولونها أرجوانيّ. جسمه ضخم ورأسه، الذي يُشبه الرصاصة، كان أصلع وبلَون الشوكولا. وبينما كان يتمخّطُ بصوتٍ عالٍ وعنيف مُستخدِماً منديلاً قماشياً أبيضَ، كان يُحرّكُ رأسه من جانب إلى جانب. كان الناس يحملقون به أو يحاولون التأكد أنهم لم يفعلوا. كان هذا الرجل مايكل أدريكو.

طوى مايكل منشفته وألقاها على كتفه عندما كنتُ في طريقي باتجاهه. ورغم أنَّ موعدنا كان بعد ساعةٍ من هذا الوقت إلّا أنه اعتبر حضوري هنا - كما يبدو - تقديماً لوقت الموعد. كانت أولى كلماته لي، «ماذا، ماذا؟»، وهو تعبيرٌ يستخدمه مايكل غالباً. هذا التعبيرُ له العديد من الوظائف، كلُّ واحدةٍ تُناسِب موقِفاً معيَّناً. قد تكون الترجمة الجامعة الشاملة لهذا التعبير هي «بالله عليك».

«أشكُرُكَ على القدومِ إلى المطار للّقاءِ بي».

«كنتُ هناك! أين كنتَ أنت؟ راقبتُ كل الذين نزلوا من الطائرة ولكني لم أرَكَ بتاتاً. أقسم على ذلك!» كان يكذبُ دائماً.

قدّمَ يده الضخمة وصافح يدي مصافحة لطيفة. أحدَثَ فرقعة بأصابعه.

«يا إلهي يا ناير، لحيتُك رمادية!»

«وشعري ما زال أسود كلون الغراب».

«هل للغربان لِحى؟» بهذا السؤال شَعَرَ أنه يقفُ على قدم راسخة، كونه أصلع. «إنها تروقُ لي». وقبل أن يتسنّى لي إيقافه كان قد مدَّ يده ولمسها. «كم عمرك؟»

«لا يفصلني عن الأربعين شيء يمكن الحديث عنه».

«تسع وثلاثون».

«ثمان وثلاثون».

«مثلي أنا! لا! مهلاً! أنا سبع وثلاثون».

«أنت ست وثلاثون».

«أنت على حق»، قال. «متى بدأتُ التوقُّف عن العَدّ؟».

«مايكل أنت تتحدث بلكنة أمريكيّة. لا أستطيع تصديق ذلك».

«وأنا لا أصدِّقُ أنك آتٍ بلحية مكتملة أنيقة إلى هذه المناطق الاستوائية».

«إنها تنمو سريعاً».

«وكذلك بالنسبة للهجتي»، قال ذلك، ثم توجّه بالحديث إلى النادل بلغة الكريو الثقيلة، والتي لم أستطع متابعتها وفهمها. ولكن وصلني انطباع بأن أحدنا سيحصل على شطيرة دجاج.

سألتُ العامل فيما إذا كان لديهم حلّاقٌ، ولكنه هزّ رأسه وقال: «لا وجود لمثل هذا الشخص هنا».

سألتُ مايكل، «هل ما زلتَ تحمل معك آلة حلاقتك؟».

ابتسم ابتسامة عريضة ثم داعب رأسه الأصلع وقال: «أنا دائماً حليق الرأس». ثم قال للعامل: «أرسل الشطيرة إلى غرفتي رقم اثنين ثلاثة صفر».

«أعرف غرفتك»، قال العامل.

«تعال يا ناير. دعنا نقوم بقصِّها بماكينة الحلاقة. ستشعر أنك أصغر سناً. هلمَّ بنا، هيا». وهو يَهُمُّ بالقيام، التَفَتَ إلى الخلف وخاطب موظف الفندق قائلاً، «ماء معلب أيضاً». كان يمشي وهو ينظر إلى الوراء، فاصطدم بامرأة إفريقيّة ببشرة فاتحة، بدا لي أنها تقصَّدَت الانحراف باتجاهه ليَحْدُثُ الاصطدام. نظر إليها من أعلى وقال: «ماذا، ماذا؟». كان من الواضح أنهما صديقان، بل وأكثر.

لـم أندهِـش أنهـا كانـت جميلـة، وشـابّة أيضـاً ـ أخَمِّـن أنـه لـم يمـضِ وقـت طويـل علـى تخرجهـا مـن الجامعـة.

كانـت تلبـس زِيَّ عمـال الإغاثـة أو لبـاس سـفاري، بنطـالٌ كاكـيّ اللـون وسـترة صيـد، وحـذاء خفيـف ولكنـه قـويّ ينـاسـب المشـي لمسـافات طويلـة. وعلـى هـذا الأسـاس أخطـأتُ فـي الحُكـم عليهـا. حقـاً، هكـذا كان الأمـر، حكمـتُ عليهـا مـن خـلال ملابسـها، وكان الحكـم خاطئـاً. ولكـن الانطبـاع الأوّل كان قويـاً.

بدا مايكل وكأنّهُ مُستاء. «الكل هنا في نفس الوقت».

«ليـس لوقـت طويـل، أقـومُ فقـط باستكشـاف المـكان». مـن لهجتهـا بـدت أمريكيّـة.

«تستكشفين أين؟» كان مبتسماً لكن لم يعجبه ذلك.

«أبحثُ عن بطاقات معايدة».

قلتُ: «عليكِ الذهاب إلى فندق بابا ليون من أجلِ ذلك».

«نعم، فندق بابا ليون»، أوضح مايكل. «لكنه بعيد جداً».

«حسناً، سأستقل سيارة».

تنهّد مايكل.

«لا تتبرّم»، قالت. «سأعود في غضون ساعة».

«انتظـري لكـي تتعرّفـي علـى صديقـي رولانـد نايـر. هـذه دافيديـا سـانت كليـر».

«صديقٌ آخر؟ كلُّ أحد صديقه»، قالت دافيديا سانت كلير مُوَجِّهةً الحديث إليّ، «هل قال أولين؟»

«اسمي الأوّل هو رولاند، ولكني لا أستعمله نهائياً. نادِني ناير رجاءً».

«ناير أفضل»، أخبرها مايكل. «إنه اسم أكثر حِدَّة. انظري». واستمر بحديثه قائلاً: «قومي بتزيين أظافرك في الفندق أو افعلي أيّ شيء، ضيِّعي بعض الوقت، ودعونا نلتقي في مطعم بوارتشي لتناول العشاء، عشاء مبكر، الساعة السادسة مساءً. يجب علينا أن نتعرف على بعضنا، ناير من أعزّ أصدقائي».

قلتُ: «لقد أنقذ حياتي».

«نعم؟» ورفَعَت حاجبيها عالياً.

قال مايكل: «نعم هذا صحيح».

«أكثر من مرة»، قلت.

«ثلاث مرات».

«لقد أبقاني على قيد الحياة، يومياً»، قلت. وتفَحَّصَتني المرأةُ ناظِرَةً إليّ بعناية، كما لو أنَّني أوضَحتُ شيئاً كانت تتساءل عنه، ذلك النوع من النظرات التي لا أفهمها. سألتُها «هل أنتِ إيفواريان؟»

أضحكها السؤال. «من؟ أنا؟»

«ظننتُ ذلك بسبب استخدامك للغة الفرنسية».

«هذا فقط من أجلِ الدُّعابة. أنا فتاةٌ من كولورادو».

«أنا شخصياً نصف أمريكيّ»، قلت. وقدَّمتُ يدي لمصافحتها. وضَعَت إصبعين على معصمي وبَدَت كأنها تراقِبُ وجهي لتقديرِ أثر لمستِها عليَّ، وهو ما حفَّزني، في الحقيقة، كما يفعل النشيد الوطنيّ. نَظَرَت في عينيَّ مباشرة وقالت: «هلو».

وبعد ذلك: «وداعاً».

*

في غرفة رقم 230، لاحظتُ وجود حقيبة بعجلات، خمَّنتُ أنها لا تخصُّ مايكل لأنها بعيدة عن نَمَطِهِ وذائقته. ولكن لا شيء يوحي بوضوحٍ بأن الفتاة دافيديا قد قضت ليلتها هنا.

ضغط مايكل على مفتاح الكهرباء. «لا كهرباء حتى الآن!» توجّه نحو الخزانة وفتح أحد الجوارير، ثم استدار نحوي حاملاً بيده سوطاً جلدياً له ضفائر، طوله بحدود المتر ومعقود من نهايته. أمسَكَهُ بمقبضه ثم أخرج خنجراً. «لن يعرف أحد عن خنجري».

«ولكن يا مايكل، سيعرفون عن سوطك».

«حسناً، ليعرفوا شيئاً على الأقل. من الإنصافِ أن يتم تحذيرهم. انظُر كم هو حادّ. أستطيع حلاقة لحيتك به».

«أرني أين آلة الحلاقة، من فضلك».

وبينما كنتُ أقوم باستنزاف بطارية آلة حلاقته على المغسلة باذلاً قصارى جهدي في الضوء الذي كان يصلني من خلال النافذة الصغيرة، كان مايكل ينظف أسنانه مُستخدِماً فرشاةَ أسنانٍ يتدلَّى من طرفها عنكبوت.

كان هناك فرشاةُ أسنانٍ أخرى موضوعة في كأس ماء، وأنبوب دهون للوجه، ونوعان من مزيل العرق. «قل لي اسم صديقَتِكَ مرّة أخرى».

بصق في المغسلة وقال، «لديَّ مليون صديق»، مثله مثل أيّ أمريكيّ. «انظُروا» صاحَ «هذا رولاند ناير يخرج من الأدغال». واستمر في تنظيف أسنانه، واستمر بالحديث بفمٍ مليءٍ بالرغوة، «لديكَ شعر رماديّ في لحيتك ولكن لا يوجد مثله في رأسك».

«يومان معك كفيلان بإصلاح ذلك». تحدثتُ إلى صورته في المرآة التي كانت جنباً إلى جنب إزاء صورتي.

«أنا إسكِندِنافيٌّ ولديّ شعر أسود وعينان رماديتان، أو زرقاوان، تبعاً للبيئة المحيطة. وإذا أردتُ أن أكون ذا مظهر يثير الإعجاب، فما عليّ سوى البقاء بعيداً عن الشمس للحصول على بشرة بيضاء تتلاءم مع خصلات شعري الأسود كلون الغراب. هذا هو الشكل الذي سأحصل عليه. ولكنّي أحبُّ أثر الشمس على وجهي حتى في المناطق الاستوائية».

لمايكل ملامحُ وسيمة؛ أنف صغير، عُقابيٌّ حادٌّ وقصير مستقيم، عظام صُدْغٍ عالية، عينان واسعتان مليئتان بحب الاستطلاع، على شاكلة العارضين الأثيوبيين، وأما بالنسبة لشفتيه، فلا أستطيع وصفهما. يتوجبُ عليكَ أن تلاحقه لأيام حتى تستطيع رؤية شفتيه بحالةِ استقرارٍ وسُكون. فهو دائماً يضحك ولا يتوقف عن الكلام. قَوامه عضليّ ضخم، ولكنه نحيل بأناقة. تفهمون ما أرمي إليه: ليس بلطَجِيّاً سفَّاحاً ومع ذلك كان قاتلاً. لم أرَهُ إطلاقاً وهو يقتُل. ولكن في عام 2004، ونحن على طريق كابول، قندهار، أطلقَ أحدُهم النار علينا. فطلب مني مايكل الاستلقاءَ على الأرض وذهب إلى أعلى التلة. فتزايد إطلاق النار، ثم بعد ذلك، توقَّفَ كلُّ شيءٍ تماماً. عاد من أعلى التلة وقال، «قتلت في التوّ شخصين». ثم استأنفنا رحلتنا.

أطلَعني ذاتَ مرة على صورةِ صبيٍّ صغير وجهه يشبه وجه مايكل أدريكو، ويده بيد رجل، قال إنه والده. كان الدم العربي واضحاً على سِماتِ والدِ مايكل، وكذلك مايكل.. هناك خَطٌّ من الكريما غير مرئي لي في القهوة، لكنه واضحٌ ومرئِيٌّ لزملائه الأفارقة.

كان أحياناً يُقدّمني لهم على أنّني أخاه. وأكادُ أجزِمُ أنَّ أحداً لم يُكذبه.

كان ينظف أسنانه بالفرشاة بقوة. وكان العنكبوت يترنَّحُ من

جانب إلى جانب على خيطه المُتدلّي من مقبض الفرشاة. شطف أسنانه واختفى العنكبوت.

راقبَني وأنا أُمشّط شعري. أظنّ أنَّ الأمر أثار إعجابه كونه كان أصلع. ضحك. «إن خيلاءك لا تزيدُك جمالاً، إنها فقط تزيدُ من غرورك». في تلك اللحظة، دبَّت الحياة في أنوار السقف، «عاد التيار الكهرُبائي. دعنا نشاهدُ الأخبار».

جلس على السرير وبدأ بالضَّغط بقوة على أزرار ريموت التلفاز. وكان يدفع بالجهاز وهو بيده باتجاه الشاشة وكأنّهُ يقومُ بقذف الإشارة إلى الشاشة قذفاً. «الأخبار. الأخبار. الأخبار». كانت المحطة تبثُ أخباراً رياضية ونتائج كرة القدم. استقر على الشبكة النيجيرية. كانوا يبُثُّونَ شيئاً كمسابقة غناء للهواة. فَكَّ أربطة حذائه الرياضي الأحمر، وقد كان نظيفاً جداً، وركله من قدميه بعيداً وشرع بتدليك قدميه، كل قدم بيد. كان يرتدي جوارب صفراء زاهية.

«مايكل _ ».

ضحك مايكل وهو يتابع التلفاز.

«مايكل، حان الوقت لتُخبِرَني شيئاً. اتّصَلتَ بي، وأتيتَ بي إلى هنا _ ».

«أنتَ من اتَّصَل بي! سألتَني عن الأحوال فقلتُ لك تعالَ إلى سيراليون وسأُطلعكَ على خطة».

«لا تُطلعني على الخطة، بل قل لي ما هي».

فقدتُ التواصل معه فقد كان مُنغَمِساً بمراقبة الشاشة وفمه نصف مفتوح، ويداه تقبِضانِ على قدميه. الإعلان الدعائي لمشروب الطاقة «غينيس»، الأخوان الأسودان، وتذكِرَةُ الحافلة التي تخرج من الأدغال.. يقومُ الأخُ الأكبر ابن المدينة بتحرير أخيه الأصغر من لعنةٍ لا أحد منهُما يعلم ما هي، وجَنْباً إلى جنب يذهبان إلى مملكة الحضارة. لمَعَت عينا مايكل وابتسم ابتسامة عريضة واسعة. وابتسامة صامتة. كثيراً ما رأيته مدفوعاً إلى ذرف الدموع ـ هذا هو الحال الذي كان يبدو عليه. شيءٌ ما سَلَبَ قلبَه سلباً. مِن أخٍ لأخيه، وصولاً إلى العظمة. تأثّرَ مايكل بذلك. لقد كان يبكي.

وما إن انتهى الإعلانُ حتى قفز إلى الحمام، ورشق وجهه بالماء على المغسلة، امتخط بمنديله القماشي، ثم وقف مُشْرِقاً على الباب.

«هذه هي الخطة: أنا رجلٌ جديدٌ، وأعتزم فِعلَ ما يفعله الرجل الجديد».

وقف الآن في منتصف الغرفة، عارِضاً لي الغدر بيديه الممدودتين. «هل تريد خطة؟ سأعطيك النتائج فقط. ستعيشُ كملك. مُجمَّعٌ سكنيّ على الشاطئ. خمسون رجلاً يحملون الرّشاشات لحمايتك. يلجأ إليك القرويون من أجلِ كلّ شيء. خمس مائة رجل في ميليشياتك. أنت تعرف أنك تريد كل هذا؛

يُشعِلون ناراً كبيرة، يأتي الرجال السحرة ويمُدّون أذرعتهم على طولها، كالثعابين، ويتحولون إلى كل أنواع الحيوانات، ثم يبدؤون بقرع الطبول، كل ذلك لك وحدك يا ناير! نحن بحاجة لذلك. هذا هو ما نريد. وأنت تعلم أنّ هذا مُتاح هنا. لا يوجد مكان آخر على وجه الأرض نستطيع فيه الحصول على مثل هذا الشيء».

«أرض الفوضى هذه، وأرضُ اليأس».

«وفي خِضَمِّ هذا كله، نتمكن من منع أيّ أحد من الوصول إلينا. يستطيع الواحد هنا أن يختار وادياً، بمداخل ضيقة ـ مداخل حصينة ـ ويدّعي أنها دولته، مثل روديس في روديسيا».

«لا أكادُ أصدِّقُ أذنيَّ، رجلٌ أسودٌ يتحدث بهذه الطريقة».

«سنجعل السياسيين يُقبِّلون أقدامَنا. وكل أربع سنوات سنغتال الرئيس».

«الرئيس نفسه؟».

«إنها نهايةُ فترةِ الرئاسة! نحن من سيسيطر على ذلك».

«كم كان عدد الرجال المُدجَّجين بالرّشّاشات؟».

«كم قلتُ كان عددهم؟ ألفاً، ناير، سآتي إليك أيّام الأحد على متن مركبي. سأُرسيهِ على رمالِ شاطِئِك المَحْميّ. سيلعبُ أطفالُنا معاً. ستكونُ زوجاتنا سمينات. سنلعبُ الشطرنج ونُخَطِّط لحملات».

«أنت لا تلعب الشطرنج».

«لم ترني منذ سبع سنوات».

«يا رجل، أنت لا تلعب الشطرنج».

نظر إلـي مجروحـاً، بوجـهٍ عـارٍ جـداً. «ولهـذا يجـب أن يكـون الشـخص هـو أنـت بالـذات. أنـت الوحيـد الـذي يعـرف كل هـذه الألعـاب».

«وألعابك أنت أيضاً، أليس كذلك؟».

«يجب أن يكون أنت».

قلت، «مِنَ الأفضلِ أن يكون الأمر شيئاً غير الألماس».

«ليس الألمـاس. ليس هـذه المـرة. هـذه المـرة سيقتصر اهتمامنـا علـى الصُّلـب والمعـادن».

«أوَلَيسَ الألماسُ من المعادن أيضاً؟».

«هـذا هـو سبب فشـلي فـي شـرح وجهـة نظـري»، قـال مايكل. «لأنـك تستعلم عـن كل التفاصيـل علـى شـاكلة السيد المُحقِّق».

«آسف. هل هو الذهب إذن؟».

«دعنـي أخبـرك الآن: عليـك الابتعـاد عـن الذهـب هنـا، إلّا إذا قلـتُ لـك غيـر ذلـك. الذهـبُ هنـا زائـف. سترى الذهـب الحقيقـي فـي لحظـة مشـاهدتك لسـبيكةٍ وزنهـا كيلـو غـرام، ولكـن بعـد المشـاهدة، ستكون قـد وقعـت فـي مكـانٍ مُظلِـمٍ يَغُصُّ بالأشـرار».

«سأنتظرُ إشارة منك».

جلس بجانبي على السرير ووضع يده على كتفي. «أريدك أن تفهمني. رسمتُ خطة كاملة لهذا الأمر من الألف إلى الياء. ناير، ستكون نقطة الياء خلّابة. هل صَدَفَ أن أخبرتُكَ عن حادثة إنقاذي لحياة الرئيس الغيني؟».

لم أشعر بالارتياحِ من جرّاء جلوسه المُلاصِقِ جداً لي، لكنها عادة أفريقيّة عادية. سألتُه، «مايكل، ماذا بشأن الفتاة؟ ماذا تكون بالنسبة لك؟».

«إنها أمريكيّة».

«قالت لي ذلك بنفسها».

«سمعتها وهي تقول لك ذلك».

«من هي يا مايكل؟»

«ستتكشَّف لك أشياء أكثر لاحقاً».

كان هذا أسلوبه، طريقته المُتْعِبةُ التي لا تتغير. المعلومات كانت كالبصلة، يجب تقشيرها طبقة طبقة.

«وماذا بشأنك؟ ما هو جواز سفرك؟»

«غانا»، قال. ولم يظهر عليه أنه كان سعيداً بذلك. «غانا سترحب بي دائماً».

أزَحْتُ يده جانباً ونهضتُ. «كفانا هراءً. مايكل، هلمّ بنا نحتسي القهوة».

«قبل الساعة ألف وستمائة»، قال:

«لا أشرب سوى الماء المعلب».

«كما يقولون، إنها ألفٌ وستمائة في مكان ما». نظرتُ إلى الوقت على هاتفي. «في واقع الأمر كما يقولون هنا».

«إنّي نَتِن! اخرُج ريثما آخُذُ حمّاماً».

نظرتُ إليه من أعلى وأنا واقف - «سؤالٌ أخير: ماذا عن ذَهَبِ الكونغو؟»

«ناير - أنت تتقدمني بأشواط بعيدة جداً».

«لو كنتُ أتقدمك، لكنتُ عرفتُ ماذا أفعلُ هنا في فريتاون بدلاً من الكونغو حيث يكمن الذهب».

«المهم أنك أتيت دون أن تعرف السبب».

«أعرف لماذا أتيتُ».

«لكنك لا تعرف لماذا طلبتُ منك المجيء. أنت جئت دون أن تطلب تفسيراً».

«كنتَ ستكذب لا محالة يا مايكل».

«لأغراضٍ أمنيّة، ربما. أجلْ. من أجلِ حمايتك - خلال تنقلك بين المطارات. ولكننا نبقى أصدقاء ولا نكذب على بعضنا».

وصَدَّقَ الكلام.

❋

وأنا في طريقي إلى المصعد، انطفأت الأنوار في الرواق. نزلتُ على الدرج. قاموا بإشعال الشموع في مكتب الاستقبال، وفي البهو، وفي غرفة الطعام الفسيحة، اختلطت الروائح، الكالونيا والمسك مع رائحة البارافين، وازدَحَمَت في الظُّلمة. تَسمَعُ أصواتَ الناس - الضَّحِكات - وترى ابتساماتهم التي تلمعُ خلال ضوء الشموع. طلبتُ عصيراً.

جالت تينا في ذهني. شربتُ العصير على عجل وطلبتُ نوعاً آخر.

لماذا لم أقُم بتحميل المعلومات الثمينة على وحدة التخزين في أمستردام، وجنّبْتُ تينا التورُّط في هذا الأمر. بدا الأمر في غاية السهولة - الآن. ولكن تَمَّ إرسالي إلى هنا، إلى فريتاون، بمَهَمَّةٍ عاجلةٍ تخُصُّ استخبارات الناتو. ليس لديَّ أدنى فكرة عن أيّ نوعٍ من الخُطَطِ الأمنية قد يَصدُر، بآخر لحظة، وتأمُرني السلطات بإجرائها. كل شيءٍ كان محتملاً، بما فيه اقتيادي إلى مكاتب المطار الأمنية ومواجهتي باثنين من المراقبين التابعين لاستخبارات الناتو، مِن هؤلاء الذين يلبسون قفازات مطاطية. ولأنني خشيت أن يتم تفتيشي، جعلتُ من تينا كبش فداء.

بعدما أتيتُ على الكأس الثانية وأكلتُ الزيتونة الثانية، أصبح كل شيء على ما يرام حقاً. لا يَكُفُّ كثيرٌ من الموجودين هنا عن مراقبتي. لكن لا أحد يرى. يتطلب الأمر جهداً كبيراً

لإيقـاظ فضولهـم. الناتـو، الأمـم المتحـدة، المملكـة المتحـدة، الولايـات المتحـدة ـ صخـبٌ بيروقراطـيّ صامـتٌ، مهمـوسٌ بِرقَّـةٍ ومعسـولِ الكلام. إنهـم حمقـى، عميـان، غافلـون مسـتهترون، ليـس بينهـم مـن يهتـم، لا أحـد منهـم أبـداً.

كان مـن الممكـن أن أفكـر بهـذه الطريقـة فـي البدايـة. ولأننـي جبـان ولا أطيـقُ العيـش وحيـداً فـي الهاويـة، بـدأتْ تينـا تعيـشُ هـذا الوضـع بجانبـي دون أن تعـي ذلـك.

قـد نتزوج، تينـا وأنـا، بعـد عودتـي، وبعـد الالتقـاء بالجهـة التـي أتواصـل معهـا وبيـع البضاعـة وكسـبِ مـالٍ يكفـي لقضـاءِ عـدة شـهور عسـل. وبعدمـا أكـون قـد ارتحـت مـن مهمَّتـي الحاليـة، وهـي إرسـال التقاريـر، إذا كان بالإمـكان، حـول أنشـطة ونوايـا مايـكل أدريكـو.

*

عنـد بدئـي بشـرب النصـف الثانـي مـن كأس العصيـر، سـمعتُ صـوت مايـكل فـي بهـو الفنـدق ـ «مـاذا حـدث لشـطيرتي؟»

تَبِعَه موظف المكتب. «إنها في طريقها إلى غرفتك يا سيدي».

«أرْسِلها إلى المقهى، هلّا فعلتَ ذلك؟»

جلـس علـى المقعـد الفـارغ بجانبـي، وطلـب غينيـس. قلـت، «حقـاً؟ غينيـس؟»

«الغينيس جيد لك. دعنا نجلس وحدنا».

انضممتُ إليه على إحدى الطاولات، حامِلاً معي العصير، رشفتُ رشفتين وكنتُ جاهزاً لمُواجهتِه.

«تحدث يا ميغيل. فإما أن تتحدث أو أغادر».

«أنا هنا لأتحدث»، قال. «ها نحن نتحدث». ولكن كل ما كان يقوم به هو مصّ الشراب.

«هذا المكان عبارة عن مزبلة. ما المشكلة في بابا ليون؟»

«يَعرِفُني كثيرٌ من الناسِ هناك».

«حسناً. أنتَ مُفلِس».

«إنَّني مُلتَزِمٌ بميزانيةٍ محدودة. هل هذا أمرٌ مَشين؟»

«إنه أمرٌ مُقلِق».

«ولماذا تُقلِق نفسك؟ هل هي حقاً مشكلتك؟»

«هب أنَّني أعمل معك، سينتهي بي المطاف في هذه الزريبة. أنا لا أستطيع الركض ذهاباً وإياباً».

«هذا خيارُكَ أنت يا ناير. لا تلُمْني على ذلك».

«هل أنا منخرطٌ بالعمل معك؟»

«ذلك أيضاً خيارك أنت».

أخذتُ نَفَساً وعدَدتُ إلى الخمسة، ثم أطلقتُ تنهيدةً تَسْتعِر بالهذيان. «ماذا عن الفتاة؟ هل هي معنا؟»

«التقيتُها في كولورادو».

«تهانينا».

«أشكرك، أنا رجلٌ محظوظ».

«من هي؟»

«سيتم الكشف عن المزيد لاحقاً». لَمَعَ ضوءُ ولّاعة في الغرفة، إذ قام أحد الأشخاص في المجموعةِ المُكوَّنةِ من خمسة رجال بيض، قُرْبَنا، بإشعال سيجارة. اشْرَأَبَّ مايكل برأسِه ناحيَتَهم دون النظر إليهم مباشرة، امتلأ وجهه بتعابير المؤامرة. «والآن، من هم هؤلاء الأشخاص؟»

«طيّارون. روس. يعملون لدى مجموعة الرحلات الجوية المستاجرة».

«لا تبدو عليهم هيئة الطيارين المدنيين. ما زالوا صغاراً بالسن، وعلى مستوى من الرشاقة. لماذا ليس بينهم شخص واحد على الأقل بِبَطنٍ كبيرة مثل تلك التي لدى شاربي البيرة؟ انظُر إلى قَصَّةِ شُعورهم ـ كلها على نَسَقٍ واحد».

«حسناً، جيد جداً. من هم؟»

فجأة، نهض من مكانه ومشى صوب طاولتهم. بدأ بالحديث. أجابوه، ثم قَفَلَ عائداً وبين شفتيه سيجارةً ليست مُشعَلَةً وعاود الجلوس. «إنها سيجارةٌ من نوعِ روثمانز»، قال. «أسترالية».

«هل ما زلت تدخن؟»

«بين الفينة والأخرى. ولكن كل شيء باعتدال». تناول الشمعة التي بيننا وأشعل سيجارة الروثمانز، ثم اعتدل في جلسته وبدأ ينفث الدخان فوق رأسي. «ناير، هناك من يتتبَّعُ أثري».

«هل هم هؤلاء الأشخاص؟»

«قد يكون أيّ أحد».

«هل أنت في ورطة؟ ما هو وضعك؟»

«في آخر المطاف سأزودك بالمعلومات».

«كُفّ عن هذا! يا إلهي!» كان صوتي هو الأعلى في الغرفة. خفَّفتُ من حدّة صوتي، ولكنّي اقتربتُ من وجهه. «أتوقّع أنك تعمل مع الرجال الكِبار. تنقلون الأموال. توزِّعون العقود الحكومية. تُحوِّلون المساعدات، تختلسون عائدات النفط، أشياء من هذا القبيل. المال يا مايكل. المال. ليس الحصى والمساحيق».

«لا تسمح لكلامك أن يصِل إلى هذا المستوى من القوة يا صديقي. لدينا وقتٌ طويلٌ لكثيرٍ من التطورات. دعنا نستمتع باللحظة». سَحَقَ سيجارته في صحنِ الشمعةِ ونَظَرَ بعيداً داخلاً في حالةِ صمتٍ خاصّ.

يتوجَّبُ على المرء أن يتوَخَّى الحذر معه، فهو، إذا ما جُرِحَتْ مشاعره، يقومُ بإيقاف الاستعراض جُملةً وتفصيلاً.

انتظَرتُهُ حتى يخرجَ مما كان فيه. ولم يَطُل انتظاري.

«مرّت سبع سنوات على لقائنا سوية آخر مرة يا ناير. أبلُغُ الآن ستاً وثلاثين من العمر. تغيّرتُ تماماً. أنا مختلف. أنا جديد». استدار باتجاهي بشكل كامل ووضع قبضتيه المُحكَمتينِ على الطاولة كما لو كان يُقَدِّمُ دليلاً على تَحَوُّلِهِ إلى شخص جديد. «غادرتُ أفغانستان منذ أربع سنوات. خضعتُ لتدريبٍ لمدة سنتين في فورت براغ، في كارولاينا الشمالية، وبعدها تم تحويلي إلى فورت كارسون، في كولورادو. في فورت كارسون، عَمِلتُ كمُدرِّبٍ للمجموعات الدولية، غالباً القادمين من أمريكا الجنوبية، وأحياناً من الشرق الأوسط. كانوا مُلزَمينَ بالبقاء في موقع التدريب. وأنا كذلك؛ فكلما كنتُ جزءاً من فريق التدريب، كنتُ مُلزَماً بالبقاء في الموقع. وبين الانتهاء من تدريب مجموعةٍ والبَدءِ بتدريبِ مجموعةٍ أخرى كان يتسنى لي الخروج إلى المدينة بملابس مدنية. وأنا في الواجب، كنتُ أرتَدي زِيَّ الجيشِ الأمريكيّ وكنتُ أضعُ رتبة رقيب. ولكني لم أكُن فعلاً في صفوف الجيش الأمريكيّ».

جاء نادلٌ ومعه شطيرة في صحن. تجاهله مايكل. وضع الصحن على الطاولة. وتجاهلها مايكل أيضاً.

«وَعَدوني بإقامةٍ دائمةٍ في الولايات المتحدة يا ناير. لكنهم

كذبوا. قالوا لي: إنَّني في طريقي للحصول على الجنسية الأمريكيّة. وكذبوا أيضاً. أخبروني أنَّني سأدخل الجيش الأمريكيّ كضابط وسيكون بوسعي أن أترَقَّى إلى كل الرُتَبِ التي يمكِنُ لمواهبي ومهاراتي أن تقودني إليها. وكذبوا أيضاً».

انتَظَرَ تعليقاً مني. ولكنني لم أُقدِّم واحداً. كان الرجال قُبالَتنا بالغرفة يشربون كما يشرب الروسيون، ويضحكون كالروسيين.

«اسمعني يا ناير. أستطيع أن أصنعَ لك قنبلة. فقط أعطني خمس دقائق وسأفعل ذلك دون أن أغادِرَ مكاني. فقط أحضِر لي علبة كبريت، وأضواء عيد الميلاد، وبعض السُكّر. أستطيع قتل رجل عن بُعدِ ألف متر. وسبق لي أن فعلتُها. أنا رجلُ شجاعةٍ وانضِباط، وكانت مكافأة ذلك أنَّني أصبحت بلطجياً مأجوراً. رجلُ عصابات، حجرُ شطرنج، مُسَنَّن في روبوت مُبرمَج ليُحِيك لك الأكاذيب».

«بالتأكيد. كلنا نتقدم بالعمر ونصبح أكثر حكمة. هذه وجهة نظري نوعاً ما».

«تمعَّنتُ في كل الفرص المُتاحةِ لي لتغيير وضعي، وقد اخترتُ أفضلها».

«أعطني جزءاً من الخطة. أيّ شيء».

«أوّلاً وقبل كل شيء»، قال، «سنذهب إلى أوغندا من أجلِ زواجي».

«أوه يا إلهي، لا أدري هل عليّ أن أشعر الآن أنَّني أكثر تَبَصُّراً بمُجرَياتِ الأمور بعض الشيء، أم أكثر حيرَةً وارتِباكاً».

«صحيح، أنا مخطوب».

«هذه ليست المرة الأولى».

«ولكنها الأخيرة. فكما قلت لكَ أنا رجل جديد».

«هل هذا هو سبب وجودي هنا؟ ولا شيء آخر؟»

«من المهم الآن أن تبقى بعضُ الأشياءِ مُبهمَةً وبحاجةٍ إلى المزيد من التوضيح، وأن نتقدم بالأمور خطوة خطوة. ناير، من فضلك، عليك أن تثق بي. تذكّر.. ألم نجنِ مرَّةً أو مرّتين، كثيراً من المال؟»

«لقد جنينا المال الكثير، ما يزيد على قدرة أشخاص في العشرينات من عمرهم».

«الآن كبرنا ونضجنا. ويجب علينا أن نصبح أثرياء. هل تَطلُب مني أن أقبلَ بما هو أقلّ من ذلك؟»

«أنا لا أطلبُ منك أن تقبل بما هو أقل». انكَبَّ، إذا جاز التعبير، على زجاجة الغينيس، وغَرِقَ في أعماقِ نفسه ليستجمع كلماته. «هذا هو وعدي لك: سنصبح أثرياء».

كانت عيناه ثابتتين. صدَّقتُهُ. أو كنتُ على أيّ حال متعباً، متعباً من عدم التصديق. «هذا جيد بما فيه الكفاية»، قلت.

«لذلك دعنا نذهب الآن. دعنا نذهب لتناول العشاء مع خطيبتي».

ونحن نَهُمُّ بمغادرة مقاعدنا، رجَّحتُ، أغلب الظن، بأن المجموعة روسيةُ الأصلِ - وهو ما قادني إليه مايكل - جميعهم أقرب إلى عمر الشباب، رزينون مُتَّزِنون وأنيقون. سمعتُ أحدَهم يقول، «هل يعجبك ذلك!»

ترك مايكل شطيرته. وشربتُ كأسي عن آخره، واستسلمتُ لما يجري الآن. في نهاية المطاف، سيدفعون لي مقابل كل هذا.

*

وصَلْنا إلى مطعم بوارتشي مبكرين، واحتسينا القهوة على الفور. لم تكن دافيديا قد وصلت بعد - وبدأ مايكل يَزِنُّ عليّ بفكرةِ «من منا اتصل بالآخر أولاً؟»

«كان عنوانك في فورت كارسون لديَّ، ولذا فمِنَ المؤكدِ أنك من اتَّصَلَ أوّلاً، إذ بدون ذلك ما كان بوسعي معرفة مكان إقامتك».

«نعم، نعم؛ ولكن بعد انقطاعنا عن بعضنا لمدة عام، تلقيتُ رسالة منك محوّلة من فورت كارسون، كان ذلك في شهر أغسطس».

«مُحوّلة إلى أيّ موقع؟»

«وبعـد ذلـك، أرسـلتُ لـك جواباً وقلـتُ لـك: تعـال إلـى سـيراليون الجميلـة».

«مـن المحتمـل أن أكـون فـي تلـك الأثنـاء قـد اتصلـت بـك أولاً. ولكـن مـا المهـم بهـذا الأمـر؟».

«كل شيء على قدر من الأهميّة».

«مِـن عـدد الأوروبييـن الموجوديـن، أسـتطيع الحكـم علـى الطعـام بأنـه جيـد هنـا. مطعمٌ هنديٌّ رَحْبٌ على مشارف المدينة، علـى الشـاطئ فـي الهـواء الطلـق، باسـتثناء أن سـقفه مصنـوع مـن القـش، يصِلُـه نسيمُ البحـر العليـل الرطـب، وصـوتُ المـوج الهـادئ الرقيق على الشـاطئ في مرمـى أسـماعنا. ورمالُ الشـاطئ البيضـاء الندية ناعمةٌ كالملح. وفي غضـون خمس عشرة دقيقة سيحل الظـلام وسـيصبح مـن المحـال تحديـد معالـم الأشـياء.

طالَـت شُـكوكُ مايـكل كل الأشـخاص. أشـار إلـى رجـل أوروبي في منتصف العمر يجلس في المطعم، «إنـه مِـن رجالِ وكالـة المخابـرات المركزيـة. أعرفـه».

«أستطيع رؤيته من الخلف».

«كان مديـراً للموظفيـن الأساسيين في السـفارة في مونروفيـا. تعرّفـتُ إليـه آنـذاك».

«أنت؟ متى؟»

«عندما كان تشارلز تايلور يتوَلَّى أمورَ الشرق».

«مِنَ المفروض أنك كنت في ذلك الوقت في الثالثة عشرة؟ الثانية عشرة؟»

بدا على محياه أنه قد أثار الشكوكَ حول نفسه. «أنت لا تعرف عن حياتي».

انتهى النهار في برهة، وحلّ الليل، وتحوّلت كل الأصوات التي حولنا إلى صمت، لمدةٍ دامت عشر ثوانٍ. على بُعْدِ مئات الأمتار، حيث يبدأُ البُنيان، لم نَعُد نرى ولو ضوءاً واحداً في المدينة التي أصبحت بلا كهرباء تماماً. والضجيجُ القادمُ من الفراغ لم يكن من أبواق السيارات وأصواتِ محركاتها بالقَدْرِ الذي كان من البشر وحيواناتهم البائسة. في تلك الأثناء، تراكَضَ النادلون من طاولة إلى طاولة يُشعِلون فتائل القناديل ذوات الزجاجات الطويلة.

وما إن انتهَوا من ذلك حتى دخلت دافيديا سانت كلير إلى المشهد. رشيقة وأنيقة، ترتدي فستاناً أفريقياً. لديها المظهرُ المُتَعارَفُ عليه في كل نساء مايكل. لم يكن يقبل أن يرتبط بواحدة ليس لها ذلك المظهر. حتى في دول العالم الثالث، كان دائماً ينجح في العثور عليهن، في عروض الأزياء، وجلسات التصوير، في احتفالات الكوكتيل الدبلوماسية. تَبِعَتْها النَظَراتُ كما لو أنها قبضت عليها بيديها.

وقفتُ لها دافِعاً مقعدي إلى الوراء. فكاد أن ينقلب على البلاط لولا تَدَخُّل مايكل الذي قام بِمَدِّ رِجله وهو جالس لمنع سقوطه. قمتُ بإعادة الكرسي إلى وضعه الصحيح.

ضَحِكَت دافيديا. «هذا حَدَثٌ فعلاً».

«تكريماً لفستانك»، قال مايكل. سحبتُ الكرسي لها لتجلس. فقال مايكل: «ها هو ناير يسحبُ الكرسي لك».

«لقد اشتريتُ هذا الفستان لتوّي من متجرٍ في بابا ليون. إنه من وادي تيسيو». قامَت بالدوران والاستعراض لتعرِضَ لنا فستانها من جميع الأنحاء. كان الفستان في أغلبه أبيض اللون، منقوشاً عليه بعض الزهور، أظُنُّها حمراءَ اللون، كان من الصعب تمييز لونها في ضوء الشموع، يصل طوله إلى الكاحل، بلا أكمام.

جَلَسَت مُلقِيةً حقيبةَ تَسَوِّقها جانباً وابتَسَمَت.

كان شَعْر دافيديا قصيراً وشبه طبيعيّ؛ ولكن ليس لنهايته، إذ لم يكن معقوداً بإحكام، بل مضموماً بشكل مُرْتَخٍ تقريباً في ضفائر متلاصقة. كانت متوسطة الطول، وأقرب إلى الرشاقة من الامتلاء المُغري. كان لها وجهٌ، أودُّ القول: إنه ذو طراز غرب أفريقيّ؛ وجه واسع، وأنف عريض، شفتان مكتنزتان، ذقن ناعم، عينان كبيرتان طفوليتان، تنظرُ من عُمْقٍ بعيدٍ من ورائهما بشيء مغاير لانفتاح الأطفال.

أخذ مايكل زمام المبادرة وطلب لنا قليلاً من كل شيء، وبما يزيد عن حاجة كل واحد منا. تنافس نادلان شابان مع بعضهما للحصول على شرف خدمتنا، وخدمة دافيديا، بنوعٍ من المَكْرِ المكتوم. بدت دافيديا وكأنها تَقْبَلُ بهذا كأحَدِ حقوقها.

وعلى قدرِ الروعة التي تمتلكها دافيديا، فإنها كانت تمتلك سمات بناتيَّة غير مكتملة التكوين بعد. دُهِشْتُ عندما عَلِمْتُ أنها توقفت عن سَعْيِها للحصول على الدكتوراه لتتفرّغ للعمل في معهد دراسات السياسات العامة، بل ودُهِشْتُ أكثر عندما علِمْتُ أنها تخلَّتْ عن كل هذه الأشياء من أجلِ مايكل أدريكو. قمتُ بإحصاء عدد خطيبات مايكل، فوجدتُ أنّها الخطيبة الرابعة التي يُعَرِّفُني إليها مايكل حتى الآن. لم يكن يطلب منهن الزواج. كان يطلب الخطوبة فقط.

دار حديثٌ طويل بيني وبين مايكل خلال العشاء، وتنافسنا في التباهي والاستعراض، كما بدا لي الأمر، مثلنا مثل نوادلنا. تطوّع مايكل بتقديم معلومات لا تمتُّ للحقيقة بِصِلَة من مخزونه المليء بالمعلومات المُحَرَّفة. «إن لناير أقرباء في جنوب كارولاينا».

«جورجيا»، قلت. «أتلانتا، جورجيا».

«من أفراد العائلة؟».

«الكلُّ، عدايَ وعدا والدي».

«والده سويسري».

«دنماركي»، قلت. «أنا نصفُ دنماركي».

كان مايكل على وشك التحدث حين قالت دافيديا: «اهدأ يا مايكل»، ثم واصَلَت قائلة: «لا أعتقد أنَّني التقيتُ يوماً بأيّ أحد من الدنمارك».

«يُسيؤون فهم الدنمارك، أنا نفسي لست متأكداً أنَّني أفهمها».

«لا أدري ماذا تقصد بذلك»، قالت.

«هل لي أن أسأل كيف التقيتما، أنت ومايكل؟».

«التقينا في فورت كارسون».

«هل كنتما في الجيش؟».

«لا».

«جيد».

قال مايكل: «عندما التقيتُ بناير هنا عام 2001، كان يعمل مع الناتو».

«الناتو؟ هنا؟ هذا المكان ليس شمال الأطلسي تماماً».

«أرسل الناتو أشخاصاً إلى هنا بعد أسبوعين من أحداث الحادي عشر من سبتمبر»، قلت.

«هل ما زلت معهم؟ ما الذي تقوم بعمله؟».

مَدَدتُ إليها بطاقة أعمالي التعريفية التي كنت أحتفظ بها في محفظتي. «الميزانية والشؤون المالية».

«ما هو المقصود بـ الشراكات التكنولوجية؟».

«نحن نقوم بدراسة الأرقام للشركات التجارية المهتمة بالدخول في شراكة مع القطاع العام بمشروعات ضخمة. الاتحاد الأوروبي، أقصد. لسنا عالَمِيِّين تماماً. إنها أمورٌ مُمِلَّة. ولكنَّ أموري جيّدة إلى حَدٍّ ما».

قال مايكل: «عندما التقينا كان ناير مع استخبارات الناتو».

انتَظَرَت إلى أنْ قلتُ، «بنية الناتو لتبادل المعلومات الاستخباراتية».

«سبوك»[1].

«لم يَعُد هناك من يستخدم هذه الكلمة».

«أنا فعلت، الآن».

«على أيّة حال، لم أكُن كذلك. كنتُ أُرسلُ برقياتٍ بلغة إنجليزيّة صريحة ومباشرة. وكنتُ أقارِنُ بين المشروع والجدول الزمني حتى يتسنى لهم مراجعة الجدول الزمني بما يتلاءم مع سير المشروع والعودة لديارهم رابحين في نهاية كل أسبوع».

«وماذا كان ذلك المشروع؟».

---

(1) كلمة انجليزية (spook) عامية تعني «جاسوس». **المترجم**

«أشياء مُمِلَّة».

«عَمَـلُ نايـر كان يتعلـق بتمديـد كوابـل الأليـاف الضوئيـة وكالة المُخابـراتِ المركِزيَّـة (سـي آي إيـه)».

«الناتو لا تتعامل مع وكالةِ المُخابراتِ المركِزيَّة»، قلت.

«المـواد التـي كنـتَ تضَعهـا فـي الأرض كانـت مـوادّ أمريكيّـة، لا تُحـاوِل خِداعـي».

«كلُّ ما كنتُ أفعله هو التِجوال في أنحاء سيراليون كأبْلَه».

«وبعد ذلك في أفغانستان»، قال مايكل.

«لقد كنتُ أبْلَهَ هناك أيضاً».

«وأنـا أشـهد علـى ذلـك»، قـال لدافيديـا. «كان ذلـك هـو المكان الـذي وجدتـه فيـه بعـد سـنة مـن الانفصـال، فـي جـلال أبـاد، كان يقـود سـيارة مسـروقة تابعـة للأمـم المتحـدة».

«يا لكم مِنْ بَشَر!» قالت.

«أيُّ طفـلٍ كنـتُ آنـذاك. كنـتُ أظـنّ أنَّنـي الكولونيـل سـتودارت أو شـخص ذو أهميّـة».

«ستودارت؟»

قال مايكل: «لقد قَطعُوا رأسه في أفغانستان».

«في القرن التاسع عشر»، قلت، لأُبَدِّدَ ذهولَها.

«أوه، ستودارت ـ نعم ـ ».

«كان عمره خمسة وثلاثين عاماً. تقريباً بِعُمري!» قال مايكل.

«من باب التوضيح»، قلت، «كان مايكل هو مَن يقودُ تلك السيارة المسروقة».

«كان جميع موظفي الأمم المتحدة يختبئون كالجبناء في مُجَمّعِهم في كابول، ويشربون حتّى الثُمالة وهم يراقبون الناس تسرق مَعدَّاتِهم».

«هل كنت تقوم بتركيب كوابل الألياف الضوئية هناك أيضاً؟»

«لا».

«لا أحد يدرك هذا»، قال مايكل. «كان للجيش الأمريكيّ شبكته العنكبوتية الخاصة. كان لهم نظامهم الخاص المستقل من الكوابل في كل أنحاء العالم. وكان لهم ملاجئ اتصالات مّحَصَّنة تَخُصُّهُم وحدهم في كل مكان».

«ملاجئ؟ كملاجئ الحماية من القنابل؟»

«مستودعاتٌ تكنولوجيةٌ محصنةٌ وآمنة»، قلت. «تلك التي في غرب أفريقيا آخذة بالتعفن والتآكل وهي في مكانها. لا أحد يأبه بهذا المكان».

«مايكل»، قالت دافيديا: «لم يصدف أبداً أن أخبرتني عما كنت تفعله في أفغانستان».

«كان مايكل حارسي الشخصي».

شعر بالإساءة. «كان لي واجبات عدة هناك. قمتُ بنقل عدد كبير من السجناء».

«ماذا عن الآن، اليوم»، قلت. «ما هي واجباتنا الآن؟ ليخبرني أحد أرجوكم. هل نحن هنا من أجلِ حفلة عرس؟».

قالت دافيديا: «أجل».

«إذن يا مايكل ليس لهذه الرحلة أيّة علاقة بالأعمال التجارية».

«في الحقيقة، سنُبقي أنوفنا، خلال ترحالنا، مُهيئةً لرائحة الأعمال».

ضحكت دافيديا، وقلت: «تعبيرك خاطئ ولكن الرسالة وصلتني».

قال مايكل: «دافيديا ستتزوج وهي تلبس حذاءً من الذهب الخالص. وستحتفظ به طوال حياتها».

«وهل يحظى كل هذا بموافقتك؟»

«نعم»، اكتفت دافيديا بالقول.

«هل نحن فعلاً ذاهبون إلى أوغندا؟»

قال مايكل، «سنطير إلى عينتيبي[1] الأسبوع القادم، هل هذا

(1) عينتيبي أو انتيبي: مدينة في أوغندا تقع على ضفاف بحيرة فيكتوريا. كانت مقر حكومة البلاد قبل استقلالها عام 1962. **المترجم**

جيد؟ هل تستطيعُ المجيء؟ في أوغندا يعرفون كيف يقيمون حفلات الزفاف. وَدِدتُ لو كان الحفل حفلين».

«هل تريد زوجتين؟».

«خُذ الكلام على مَحمَلِ الجَدّ! عروستان وعريسان. لقد أخبرتُ دافيديا أنك خاطب».

«على وشك الخطوبة»، قلت.

«ألسنا كلنا كذلك!»، قالت دافيديا. «ماذا تعمل خطيبتك؟».

«إنها محامية، ولكنها تعمل لدى الناتو في أمستردام - إنها من نصيبكم في واقع الأمر. تعمل لصالح الأمريكان».

«لقد قابلها ناير في كابول»، قال مايكل.

«ما قاله صحيح، بالطبع. لكننا أنا وتينا لم نرتبط بأيّة علاقة هناك، تعارَفنا فقط. كانت تَشغل منصب مدّعٍ عام للأمم المتحدة. تعرَّفتُ أنا ومايكل عليها قليلاً».

«أنت تظنين أن كل النساء عشيقاتي. هل تظنين أن لديَّ وقت لا محدود للحب؟»

«هذا ما أظنه تماماً».

«قبل الأمم المتحدة»، قلت، «خدَمَتْ تينا بمنصب مدَّعٍ عام في ديترويت. واشتَرَكَت في إحدى المرات بعملية مداهمة للمخدرات وحَمَلَت رشّاشاً».

«إذن هي خطيرة. هل هي جميلة؟»

«نعم، ولكنها أذكى بكثير من أن تُولِي اهتماماً كبيراً لذلك، وتسعى دائماً لأن تبقى عادية بسيطة، وهذا ما أفضله».

قالت دافيديا لمايكل: «لو كان الأمرُ بيدك، لاستعرضتَ بي في كل الأرجاء».

قالت، «أحياناً يكون لك وجهٌ متعطِّشٌ كصبيٍّ صغير». وضَحِكَت. وددت لو تفعل شيئاً غبياً، شيئاً تُهَشِّمُ فيه الصورة الجميلة. لمَحَتْني وأنا أنظرُ إليها. «لا يبدو عليكَ بتاتاً أنكَ تمُتُّ بأيّة صلة بجورجيا. كم من الوقت قضيتَ هناك؟»

«وقتٌ قليل. ربّاني أبي في أوروبا، أغلب الوقت في سويسرا. لا أظنّ أنه كان يملك حق الحضانة القانونية ـ أعتقد أنَّني كنت مخطوفاً».

«هل ما زال على قيد الحياة؟».

«والدتي ووالدي ما زالا على قيد الحياة».

«ومتى ترى عائلتك الأمريكيّة؟»

هذا السؤال الذي أحبذ دائماً أن أحيد عنه. ولكنني شعرتُ أنَّني أريدها أن تعرف. «لا يوجد اتصال بيني وبين والدتي وعائلتها منذ أن كان عمري ثماني سنوات».

«ولكنكَ، أنتَ»، شَعَرَتْ بالارتباك. «أنتَ ترى والدك، أليس كذلك؟»

«نلتقي مع بعضنا كثيراً. إنه يعيش في أمستردام أيضاً».

كان مايكل يُحملِق بي. «هذه أشياء لم أسمع عنها سابقاً».

أخبرته دافيديا، «يَكمُنُ السبب، ربما، في أنك تتحدث أكثر مما تسمع». قالت ذلك بتودد. ظَنَنتُ أنَّني انتهيت من أسئلتها، ولكنها استمرت بمُداهَمَتي «في أيّ مجال يعمل والدك؟»

«إنه طبيبٌ في مستشفىً تعليميّ. كمُدرِّسٍ أكثر منه كطبيب، بعبارة أخرى. اعتقد أنه مجنون بعض الشيء».

«ووالدتك؟»

«كما قلت لك، لا يوجد تواصل بيننا. أميل إلى الاعتقاد بأنها سعيدة».

«وهذا ما أرَجِّحُهُ أيضاً».

في هذه الأثناء ظَهَرَ مُتَسوّلٌ بملابس رثة، خرج من الظلام. كتب بسرعة على الأرض بطبشورة بيضاء: السيد نيلو كرون/ دكتور بالألعاب البهلوانية. ثم شرع بالشَقْلَبَةِ وهو يحمل صَحناً فيه أرز نيء، دون أن يُسقِط حبة أرز واحدة. ثم كرر الخدعة حاملاً هذه المرة كأساً من الماء، ودون أن يسكب قطرة ماء واحدة.

تجاهله الكل، الموظفون، الزبائن والكل. لكن دافيديا قالت: «أعطِهِ شيئاً يا مايكل».

لـم يُعطِـهِ مايـكل سـوى نظـرة عابسـة متجهمـة، ثـم قـال، «لا تُشَـجّعي هـؤلاء البشـر».

ابتسـمت دافيديـا ثـم التقـت عيناهـا بعينَـي البهلوانـي، أو بأحَـدِ عينيـه، فقـد كان تجويـف عينـه الأخـرى مُشَـوَّهاً ومُغلقـاً ـ ممـا دفعـه إلـى الحديـث. أخـذ يسـتخدم الإشـارات للتعبير عـن أفـكاره مـن خـلال سلسـلة مـن التصفيـر والصريـر والزعيـق، كان علـى مـا يبـدو قـد فَقَـدَ أحـد حبالِـه الصوتيّـة أيضـاً. «أحياناً يسـود شـعور بـأنَّ النبـي كان هنـا بالتحديـد»، قـال لدافيديـا: راكعـاً أمامهـا ومُلامِسـاً يدهـا. كان يرتعـش ويهتـز حسـب حِـدَّةِ الرسـالة التـي كان يسـعى لإيصالهـا: «النبي بذاتـه، فـي هـذه البُقعَـة، ذهـب خلـف زاويـة تلـك البنايـة هنـاك. انظُـري هنـاك، الغبـارُ الـذي تسـبب بـه رداءه الـذي كان يَجُـرُّ علـى الأرض مـا زال يتطايـر». حمـل الدكتـور كـرون نفسـه وطبشـورته وعـاد إلـى الظـلام، مُكْتَفِيـاً وراضِيـاً بمـا فعـل. ثـم أتـى أحـد نوادلنـا راكضـاً بقطعـة قمـاش ومسـح لقبـه واسـمه.

❋

لاحقـاً، عندمـا قمنـا بإيقـاف سيارةٍ أمـام المبنـى، أخَـذَت دافيديـا بذراعـي وقالـت: «بمـاذا يقضـي المدعـي العـام فـي أفغانسـتان؟»

«تقصديـن تينـا؟ بـكلِّ شـيء. كان ذلـك تمامـاً بعـد الغـزو. لفترةٍ قصيـرةٍ مـن الزمـن، كانـت الأمـم المتحـدة هـي القانـون الوحيـد. اخْتَصَّـت بقضايـا جرائـم العنـف ضـد المـرأة، بشـكل أساسـيّ».

«هل كانت إحدى نساء مايكل؟»

«هل تشعرين بالغيرة؟»

«هل تَشعُر أنت بذلك؟»

«اسمعي، أيّاً كانت نساؤه الأخريات، فأنتِ لستِ مثلهن».

«أشكرك»، قالت.

استقلا السيارة، وتمنَّينا لبعضِنا ليلةً سعيدةً. ثم مَشَيتُ قافِلاً إلى مكان إقامتي. مرَرتُ بالشاطئ وأنا أدندنُ، تُضيءُ طريقي الأعدادُ الهائلةُ من النجوم التي تُرَصِّعُ سماء الليل. كان لحركة الأمواج اللطيفة وتدافعها إيقاعٌ من نوع ما. لم يكن القمر قد ظهر بعد. تقافَزَت بين الفينة والأخرى مجموعاتٌ من الأسماك الفسفورية على جانب الشاطئ في الظلام.

كان فندق بابا ليون على بُعْدِ كيلو متر واحد من مطعم بوارتشي. وصلتُ وأنا ما زلت متعباً، وكنتُ أتطلَّعُ لقضاء عدة ساعات من الراحة الخالية من الأحلام. ولكن من أين لي مثل هذا الحظ؟

كان التيار الكهربائي مقطوعاً، وبهو الفندق مظلماً. وكان الموظف المناوب يغط بالنوم على كرسي فاخر إزاء الباب. أيقظتُهُ فنهض وناولني المفتاح وورقة مطوية مرتين فيها رسالة مكتوبة بخط اليد:

أتيتُ يوم الثلاثاء ولم أجدك. ـ ح

يعني هذا أَنَّني أصبحت الآن على ارتباطٍ بموعدٍ غداً الخميس بعد الظهر، وذلك للتفاوض على بيع محتويات وحدة تخزين البيانات. سألتقي بالطرف المُتَّصِلِ، حامد، في مطعم البوارتشي - وسيحدث الأمرُ كأنّهُ بِمَحضِ الصدفة، حسب الترتيبات التي كنا قد اتفقنا عليها قبل عدة أسابيع في أمستردام.

صعدتُ الدرج كل ثلاث درجات بخطوة واحدة. ولسوء حظي تعافَيتُ فجأة من حالة التعب التي كنتُ فيها. نَصَبتُ أرجوحَتي الشبكيّة على الشرفة وتمددت عليها في عليل البحر. لكنَّني دخلتُ إلى الداخل في ساعات الفجر الأولى حين بدأ المطر بالتساقط. أشعلتُ الشمعة وفتحتُ حاسوبي المحمول. لا إنترنت. كتبتُ لتينا وأنا في حالةِ عدمِ اتصال.

إنَّني أقضي ليلةً سيئةً. أشتاقُ لكِ، وفي بعض اللحظات أشتاقُ حتى لقِطَّتك الهَرِمَة ولأُختِها الشريرة البشعة، الكلبة. لم يَلِمَّ بي الحنين بَعْدُ للسيِّدةِ صاحبة المنزل - ما اسمُها؟ السيِّدة ريمبل؟ ولكنني على الأرجَحِ سأَصِلُ إلى تلك المرحلة قريباً.

أكلتُ لقمة واحدة من شطيرتي ولكني وجدتُها قد فَسَدَت. لم يمضِ على إخراجي لها من الحقيبة سوى دقيقتان. تباً لهذا المناخ، لا شيء يَجِفُّ سوى الخبز، يا للبؤس اللعين.

- وسمعتُ النحيب في نبرتي فطرقتُ مفتاح الحذف.

*

وما إن بدأ النهار، حتى قمتُ بمغادرة فندق بابا ليون متجهاً إلى سكانلون، الطابق الثالث. المكان الذي أستطيع فيه أن أدوس بحذائي سقف غرفة مايكل رقم 230، وأزلزلُه تحتي. هذا لا يعني أنَّني سأقوم بإيقاظه حتى لو كان في الغرفة. لقد أخذتُ منه أقصى كفايتي أخيراً. علماً أنه لم يمضِ على وجودي في هذه القارة سوى ست وثلاثين ساعة فقط.

وقفتُ في وسط غرفتي وأنا أتساءل كم من الأشياء يتوجب عليّ إفراغها من الحقيبة، خاصة أنني لا أعرف مدة إقامتنا. قررتُ أن أطرح الأمر للنقاش.

ارتَعَدَت فرائِصي عندما فُتِحَ بابُ غرفتي على مصراعيه فجأة. كنتُ قد نسيتُ إقفاله بالمفتاح.

وقف المدير على الباب. كان عربياً قصيراً ممتلئ الجسم. بدا كأنه مصدوم بذات درجة انصدامي. «إنَّني أبحثُ عن المُنَظِّفة»، قال.

كل ما خطر ببالي قوله هو: «هل تقصد مُدبِّرَةُ الغُرَف؟»

«نعم، هو ذلك».

«إنها ليست هنا».

أغلق الباب وذهب.

غيّرتُ رأيي بشأن تفريغ كل محتويات الحقيبة، فأخرجتُ

جوارب نظيفة وملابس داخلية، وأبقيتُ كل شيء في الحقيبة.

قال أحد رأسَيَّ للآخر، كان يتقصّد تفتيشَ أغراضِك، فقال الرأس الآخر، لا تنفعل، البشر يخطئون، ثم قال الأوّل: مهما يكن، يا صديقي، لقد جعلوك تتحدث مع نفسك.

*

«الحياةُ قصيرةٌ» يقول مايكل دائماً، ودائماً ما يكون هناك خوف في وجهه عندما يقولها، لأنه يفهمها ويقصدها؛ فهذه الحياة تنتهي سريعاً.

مايكل مُحارِبٌ، وفارِس. يتلقّى أوامِرَهُ من القادة، ويتظاهر بأنّه يطيعهم. أما نحن البقيّة فنعيشُ كإقطاعيين وفلاحين.

هذا ما كان يجب على تقريري أن يقوله، وهو تقريري الثاني والأخير من فريتاون. وكان يجب عليه أن يقول أيضاً:

العالمُ بالنسبة له يتكَوَّن مِن بُقَعٍ ناعمةٍ وبُقَعٍ صَلبَةٍ وثُقوبٍ. تضاريسٌ أرضيّةٌ يجوبُها ولا يتوقَّفُ إلا للأكلِ والشربِ والتبرُّزِ والتبوُّلِ وممارسةِ الحُبّ، أو لمعالَجَةِ جِراحِه.

يُعرِّفُ مايكل نفسَهُ على أنَّه واحِدٌ من قبيلة كاكوا، وهي قبيلةُ عيدي أمين دادا[1] وقصته كالآتي: بعد نَفْيِ عيدي

(1) عيدي أمين دادا (1925ـ2003) رئيس أوغندا الثالث بين عامي 1971 و 1979 ويوصف دائماً بالدكتاتور العسكري. **المترجم**

أمين، وعندما بدأت الأعمالُ الانتقاميّةُ ضد قبيلة كاكوا، تم أخذُ الصبيِّ مايكل إلى كامبالا ليتلقّى تعليمَهُ في المدارس المسيحيَّةِ التبشيريّة ... لكن التبشيريات لا تأخذ صبياً من قريته وترسله إلى مدرسة في المدينة. ربما تم اختطافه من قبل عصابة إجرامية وعاش في الشوارع كصبيّ فاسد.

يَدّعي أنه أنهى دراسته الثانوية، لكنّي أظنّ أنه لم ينخرِط بها أصلاً. انضمَّ إلى صفوفِ الجيش الأوغندي، ودخل مدرسة الضباط. وقبل تقليده الرتبة العسكرية تم تكليفه بالعمل في معسكرٍ تدريبي فريد من نوعه على طول نهر الأورنج في جنوب أفريقيا حيث تعلّم التكتيكات الإرهابية على يد عملاء إسرائيليين، تابعين لوحدة دوفديفان، كما يقولُ أحياناً، أو للموساد، كما يقولُ أحياناً أخرى.

سواء صَحَّ هذا الكلام أم لم يَصِح، ما المُهِمُّ في الأمر؟ لا تعيشُ حقائِقُ مايكل إلّا في الأساطير، أما في عالَم الحقائق والتفاصيل فإِنَّها تموت.

وإذا كنتم تظنون، يا رؤسائي، أنَّني أتيتُ للانضمامِ إليه هنا في أفريقيا، لأنكم أرسلتموني بهذه المهمة، فأنتم مخطئون. عدتُ إلى هنا لأنَّني أحِبُّ الفوضى، والفوضوية السياسية، الجنون، وانهيار الأشياء. وما مايكل إلا مُجَرَّدُ مُبَرِّرٍ لهذه العودة.

وإذا كان مايكل يظن أنَّني أُحِبُ الجيش والحَرَمْلِك، فهو

يكـون بذلـك يُخْطِـئ فَهْمِـي أيضـاً. لا أريـدُ أن أعيـش كَمَلِـكٍ - كلُّ مـا أريـدُهُ هـو أن أعيش. لا أسـتطيعُ فِعـلَ ذلـك وحـدي. لـديَّ كلُّ المُكوِّنـات، ولكنَّنـي بحاجـةٍ إلـى مُعالِـجٍ لإثـارَة المِرْجَـل. أحتـاجُ إلـى مايـكل.

هذا ما كان يَتَعَيَّنُ على تقريري قوله.

أمـا التقريـر الفعلـي، فقـد قمـتُ بإرسـاله علـى جنـاح السـرعة مـن خـلال مكتـب وثائـق إيلفيـس. الظِـلالُ المتقاطِعـةُ فـي أكـواخِ القَـشِّ، وروائِـحُ المِسـكِ الخانِقـة التـي تَصْـدُرُ مـن الجـدران، وفكـرَةُ أنَّ محمـد كالـون يمشـي علـى أخمَصِ قدميـه جيئـة وذهابـاً فـوق رأسـي، لا شـيء مـن هـذا شَـجَّعني علـى الجلـوس وكتابـة رسـائل وحـوارات مطوّلـة. كتبـت:

تـمَّ الارتبـاطُ مـع جِهَـةٍ مـا. سـيتم تغييـرُ الموقـع قريبـاً. المزيـد مـن التفاصيـل خـلال 48-72 سـاعة.

«لا غـداءَ اليـوم»، قلـتُ لمحمـد عَقِـبَ صعـودي مـن طابقـه السـفلي، بعـد خمـس دقائـق فقـط مـن نزولـي إليـه.

وكان قـد قـام عمَّـا يُسـمّى كرسـياً وقـال: «لقـد تناولـت غدائـي. مـا رأيـك بعشـاء هـذا المسـاء؟ لـديَّ بعضُ الأخبـار لـك».

«عشاء؟ لا. أخبرني فقط».

«جيـد جـداً إذن»، قالهـا وخيبـة الأمـل بادِيَـةٌ عليـه: «أريـدُ أن أوضِّـح شـيئاً لـك. تـم إلحَـاقُ مايـكل أدريكـو بالقـوات الخاصـة

الأمريكيّة في شرق الكونغو. يوجد وحدة هناك، كما تعلم، تقوم بملاحقة «جيش الرب»[1] للمقاومة.

«سمعتُ عنها».

«إنَّهُ غائبٌ دونَ إذن.. وهذا ما أقصده عندما أُسَمِّيه هارب».

«حسناً»، قلت.

وكان بإمكاني أيضاً أن أقول في تقريري إنه من خلال تَكَتُّمِهِ ومُراوَغَتِهِ فقد أنشأ حاجزاً أمام تساؤلاتي، خاصة فيما يتعلق بسؤالي الأوّل: إذا كان هدفنا هو الكونغو، أو أوغندا، فماذا بحق السَّماء نفعل في سيراليون؟

هذا هو الجواب، جاء من محمد كالون. إذن فرّ مايكل إلى هنا، على الأرجح، ليستقر في أيِّ مكانٍ يسمح له بالدخول إليه بجوازِ سفرهِ الغيني. وفريتاون ليست خياراً سيئاً. أيُّ شيءٍ قد يحصُلُ هنا. يمكن هنا للخَوَنَةِ والهاربين أن يتبخروا أمام ناظريك.

قال محمد: «دعنا نلتَقي على العشاء في بابا».

«في منتصف طريقنا إلى هناك ستقول، ما الدَّاعِي لدَعْوَتي إلى وجبَةٍ مُكلِفة؟ لِمَ لا تعطيني ثمنها نقداً».

«حسناً، بالتأكيد.. أستطيع الاستفادة من بعض النقود».

(1) تُعرف أيضاً باسم «حركة الرب» للمقاومة وهي حركة تمرد مسيحية مسلحة في ثمانينيات القرن العشرين. **المترجم**.

أعطيتُـهُ رُزْمَـةً مـن الليونـات[1] يبلـغ سـمكها نصـف إنـش، ولكنهـا لا تسـاوي شـيئاً تقريبـاً، ثـم خرجـتُ إلـى حـر الظهيـرة الـذي لا يُصدِّقُـهُ عقـل.

علـى مقربـة مـن مكتـب وثائـق إيلفيـس، كان هنـاك رجـل فـي كُشْـكٍ مـن قطـع خشـبية ولديـه مُوَلِّـدٌ كهربائـيّ وسـتالايت. كان يقـوم بتأجيـر الحاسـوب بنظـام السـاعة. جلسـتُ علـى كرسـيّ مُتهالِـك تحـت مظلّـةٍ بجانـب كُشـكِه. وجـدت علـى الإنترنِـت تقريـراً لرويتـرز. كانـت الفقـرة الختاميـة للتقريـر تقـول:

سـتنتمي مَهَمَّـةُ «جيـش الـرب» للمقاومـة لمـا يقـرب مـن الـ 100 جهـة تشـغيلية خاصـة، حسـب مـا كشـفت عنـه مصـادر مـن البنتاغـون. رفضـوا الإفصـاح عـن الوحـدة التـي تـم إناطـة المَهَمَّـةِ بهـا. إلّا أنّ تقريـراً إخباريـاً فـي صحيفـة كولـورادو سـبرينغز ذكـر أن المجموعـة العاشـرة للقـوات الخاصـة، فـي فـورت كارسـون، كولـورادو، سـتكون هـي الوحـدة التـي سـتتولّى هـذا الأمـر. هـذه الوحـدة عـادة مـا تقـوم بعمليـات خاصـة فـي أوروبـا وأفريقيـا.

رغـم ضـراوَةِ الحـرارة، إلا أنَّنـي مشـيتُ إلـى سـكانلون. كنـتُ غاضبـاً، ليـس علـى مايـكل، الـذي كنـت غاضبـاً بسـببه، ولكـن علـى محمـد، فالغضـب عليـه أهـون.

---

(1) العملة الوطنية في سيراليون. **المترجم**

توقفتُ في طريقي عند فندقِ قلعة العاج لأتحدث مع الرجال الموجودين هناك. كانوا من غرب أفريقيا، رجالٌ غامضون وصعبو المراس، وكانوا يتظاهرون بالقيام بإدارة شؤون الخدمات الجوية التي يقودها الطيّارون الروس. ليس أمامنا إلا اللجوء للروس بسبب عدم وجود خطوطٍ جويَّةٍ حقيقيةٍ تسمح لنا بالسفر إلى الخارج دون تأشيراتٍ أوغندية، رغم أن أوغندا تُصدِرُ التأشيرات للمسافرين القادمين إلى عينتيبي دون أيّة مشاكل - وهذا ما أكده لنا مايكل. سألتُهم عن أجور الرحلات ومواعيدها. كان من الواضح عليهم أنهم لا يستوعبون مجرد رغبتي بمعرفة ذلك. واجهتُهم بابتسامة الأوروبيّ الأبيض المُصابِ بمرارة المعاناة والتعب، وأنه لم يتبقَّ أمامي سوى الانتحار كَخَيارٍ وحيد. كشفوا لي أخيراً عن الأسعار والأوقات. مايكل، دافيديا وأنا سنخرجُ من هنا خلال أقل من ثمان وأربعين ساعة.

عند الساعة الثالثة بعد الظهر، دخلتُ البوارتشي مرة أخرى. كان عدد الزبائن قليلاً والمكان هادئاً. في البدء ظننتُ أنّ الشخصَ المُتَّصِل لم يأتِ بعد، وعندما حددتُ موقِعَهُ، رأيتُهُ يجلس على إحدى الطاولات الأصغر حجماً، ليس أمامه سوى نظارته الشمسية. ظننتُه شخصاً آخر كَوني لم أكُن قد رأيته سابقاً إلا في بدلات عمل رسمية. لكنه كان حامد، الشخص الذي تحدثتُ معه عدَّة مرات في أمستردام.

لـوَّحَ لـي للذهـاب إلـى طاولتـه، جلسـتُ معـه. أعطانـي انطبـاع أنـه فـي منتصـف العمـر ومُولَـعٌ بالراحـة. كان يرتـدي لباسـاً كتانيـاً فضفاضـاً أبيـض اللـون مع سترة. شـكله عربـيّ أكثر منه أوروبـيّ، عـدا عينيـه، فلـم يكـن لونهمـا بنيّـاً بـل رماديـاً باهتـاً. سَـحَبَ كُـمَّ قميصِـهِ إلـى الأعلـى ليتحقَّـقَ مـن الوقـت فـي سـاعته التـي كانـت مـن طـراز روليكـس كومانـدر. كان يرتـدي سـتة خواتـم مُرَصَّعَـة بالجواهـر، ثلاثـة فـي كل يـد.

«تماماً على الوقت المحدد».

قَدَّمَ لي بطاقة أعماله الزائفة، وقدّمت له بطاقتي.

«هل ترغب بأكل شيء؟» قال. «وجبةٌ سريعةٌ من نوع ما؟»

«لا شيء، أشكرك. هل طلبت شيئاً؟»

«هل تشاركني بشرب بعض الشاي؟»

«إن لم تَكُن قد طلبت»

«ليس بعد».

«جيد، لِمَ لا نَتَمَشَّى على الشاطئ؟»

«لا أحدَ يسمعُنا هنا. نستطيعُ أن نتحدَّث».

«أشعرُ بالتَّوتُّرِ والعَصبيَّةِ في الأماكن المغلقة»، قلت.

«هيا، لا تكن ساذجاً. فقط أخبرني بما لديك».

«أنت تعرف ما لديَّ».

«أريد أن أعرِفَ ما الذي سأقوم بشرائه».

«دعنا نمشي. لا أحب أن نقوم بهذا هنا». كنتُ أريدُ أن نتوارى عن أعيُنِ العامة، لأنَّني لم أكُن أضمنُ ردة فعلِهِ إزاء الأخبار التي أحملها إليه. «هل تمانع؟»

تنهَّدَ ثم التقَطَ نظارته الشمسية.

ولبستُ نظارتي أيضاً، ومَرَرنا من تحت السقف إلى نسيم البحر الحار الذي لا ينقطع بينما الشمس تَصُبُّ جام غضبها على رؤوسنا. شعرتُ أنّ الشاطئ يغلي خلال نعال صندلي. كان لا يُرى غيرُنا، وأخَمِّن أننا، بظِلالِنا الشريرة، كنا لا نبدو إلا كزوجٍ مِنَ المجرمين المحتالين الذين يُخطِّطون لعمل شيطانيٍّ ما.

عندما وصلنا بالقُربِ من حافَّة الماء، توقَّفَ عن المسير. «الآن وقبل أن نُصابَ بضربةِ شمسٍ أو جفافٍ أو أيِّ شيءٍ، ماذا لديك؟»

«إنَّه تماماً ما سبق أن أخبرتُكَ به. خرائط لمواقع كوابل الألياف الضوئية العسكرية الأمريكيّة التي تَعْبُرُ سبع دولٍ غرب أفريقيّة. جمهوريّة مالي إحداها. ولديّ أيضاً، على نِظامِ المِلاحَةِ الجي بي أس، إحداثيّاتٌ لاثني عشر مخبأً تكنولوجيّاً سِريّاً ومُحصَّناً تعود لاستخبارات الناتو». وكان بإمكاني إضافة المخبأ السِرّي في الطابق السفلي لمكتب وثائق إيلفيس.

«أنتَ على يقينٍ بالنسبة لدولة مالي».

«مالي. نعم. أمرٌ قطعيّ غير قابل للشك».

كانـت دولـةُ مالـي هـي المنطِقـة السـاخنة حاليـاً. وكانـت هـي الصنَّـارةُ التـي تـم اصطِيـادُ حامـد بهـا، جَعَلَتْـهُ يتحَـوَّلُ إلـى وجـهٍ مُتَعطِّـش.

«دعنـي أبنـي اتِّفاقـي معـك علـى هـذا الأسـاس»، قـال: «وأرجـو أن تعذرنـي: هـل تعـرف مـا يمكـن أن يحصـل لمـن يقـوم ببيـع سـلعة زائفـة؟»

«أتوقَّع أن يتِمَّ اغتيالي».

«توقّعاتُك دقيقة».

«لستُ قَلِقاً. إنَّها سِلعَة جيّدة جداً».

«ماذا بشأن النقل؟»

«مسألةُ ضغطةِ زِرّ. كلُّ الأشياءِ مُخَزَّنَةٌ لديَّ».

«نستطيعُ عَمَلَ كلِّ شيءٍ رَقَمِيّاً؟»

«نعم صحيح. لستَ بحاجةٍ لأن تلمِسَ أيَّ شيءٍ».

«هل ما زلتَ تشتَرِطُ الدَفْعَ نقداً؟»

«نعم، نقداً فقط».

«والسّعرُ هو عشرون ألف دولار أمريكيّ».

«لا»، قلت. «ليس عشرون ألفاً. هذا لم يَعُد المبلغ الصحيح».

كانت هذه هي الجزئية التي لم تعجبني.

أوشَكَ على إعطاءِ رَدٍّ سريعٍ إلا أنَّه كَتَمَهُ. مِنَ المُؤكَّدِ أنّه بَدَأ بالعَدِّ إلى العشرة. «لستُ أفهمُ ما تقول».

«لم يَعُد السّعرُ عشرين ألفاً». لكَ ومن جيبِكَ الخاصّ، الثمنُ لا شيء - لأننا نتعامل مع بعضنا كشُركاء».

«شُرَكاء بماذا؟»

«سنكونُ شريكين بالتساوي في عمليّة الشراءِ التي تقومُ أنتَ بها. أنا أُقَدِّمُ السلعة وأنتَ تُقَدِّمُ العميل».

زَمَّ فَمَهُ بطريقةٍ بَشِعَةٍ وأصدَرَ صوتاً حاداً بلسانِهِ. «هذا غير مقبول بتاتاً». رَفَعَ نظّارَته الشمسية. «ماذا تظن؟ أنتَ لا تعرف شيئاً عن عملي».

«أظُنُّ أنَّني أعرف. الصينيون في كل مكان على هذه القارة، وهم يدفعون مبالغ سخيفة. إنْ لم يَكُن الصينيون هم من ستقوم بالبيع لهم، فستكون بذلك أحمق».

عادَ وَوَضَعَ نظّارته على عينيه. «لا أحِبُّ هذا الحوار. أنتَ عنيفٌ جداً. وتستخدم نبرةً شخصيّةً».

«أنا أحاولُ أن أكون قاطعاً وحاسماً ولكن لغايات العمل فقط. ليس في الأمرِ قَضيّة شخصيّة. أنا فقط أقول إن الصينيين سيدفعون الكثير من أجلِ شيء جيد كهذا. وما لديَّ شيء جيد».

«كُنّا قد اتَّفقنا على عشرين ألف دولار. هكذا كان الاتفاق بيننا».

«لقد تجاوَزْنا تلكَ النقطةَ الآن. نحنُ الآن نتحدَّث عن شَراكَة. هذه سلعةٌ ممتازةٌ لها إمكانيّاتٌ طويلةُ المَدى. مدىً طويلٌ جداً. إنَّ الحصولَ على هذه المادةِ لا يمكن اكتشافه».

طَقْطَقَ بلسانه مرة أخرى وأدارَ ظهرَهُ ومشى باتجاه المطعم، وتركني وحدي على الشاطئ.

وعندما أصبحَ على بُعدِ عشرةِ أمتار تقريباً صاح وهو ينظرُ من فوق كتفه «أنتَ دجّال»، ومشى دون أن ينظر خلفه أبداً.

ضَجَّ رأسي. بدا تغييرُ السعر خطوة جريئة في لُعبَةٍ لا قواعد لها ولا تعليمات. لكن، ما هو الشيءُ الجريءُ وما هو الشيءُ الغبيُّ؟

ألقيتُ نظرةً على بطاقة أعماله: الإنتاج الإبداعي، خدمات الأفلام والإنترنت.. حامد فيصل؛ المدير الإداري.

في أمستردام، كان اسمه الأخيرُ مُختلفاً، أما اسمه الأوّل فكان نفسه - حامد. كان ثرثاراً واجتماعياً ويتمتَّعُ بِروحِ الدُّعابة. ذهبنا معاً لمشاهدة فيلم، وكان الفيلم باللغة الإنجليزيّة واسمه «ثلاثون دقيقة بعد منتصف الليل»[1]، وهو فيلم من أفلام الإثارة والتشويق ومن إنتاج هوليود. وبعد مشاهدتنا لهذا الفيلم، الذي كان عن مقتل أسامة بن لادن، بدأ حامد بإطلاق النُّكاتِ على «الشهيد العظيم». «لن يكون الأمرُ مُسلِّياً لأقربائي

---

(1) فيلم (Zero Dark Thirty).

في لبنان»، قال. «ولكن ما الذي يُهِمُّني بالأمر؟ فأنا لستُ لُبنانِيّاً حقاً. أمي فرنسية، وزوجُ أمي أيضاً. نشأتُ في مارسيليا. وأنا فرنسي. فرنسا بلد سعيد». كما قلت، كان ثرثاراً. ولكن اليوم، في فريتاون، لم يَكُن لدى أيٍّ منا نُكاتٌ لنقولها.

أعطيتُهُ الوقتَ الكافي حتّى يختفي تماماً، إذا كان هذا ما يريده. ثم ذهبتُ عبرَ المطعم إلى مكان السيارات أمام المدخل. كان حامد يجلس على طاولةٍ إزاءَ المدخل وأمامه فنجان في صحن. انطَلَقتُ إلى الجهةِ الأماميَّةِ دون النظر إليه.

«لحظة، انتَظِر لحظة. تعالَ. أشارَ إليَّ كي أجلسَ، فجلستُ معه مرَّة أخرى. كان بيدِهِ قلمُ حبرٍ. «كيف لي أن أُصَدِّقَ أيّاً مما تقول، عندما تكون كاذباً؟»

«سأُعطيكَ عَيِّنَةً صغيرةً لتتأكد؛ عيِّنَةٌ كافيةٌ لتُدرِكَ أن هذا بمثابةِ كِنزٍ استخباراتيٍّ دفين، جارٍ ومستمر، لكل مَن يَلِجُ في مسألةِ الكوابل».

«ماذا لديهم لغاياتِ الكشفِ عن هذا الولوج؟».

«لا شيء جدير بالملاحظة ما لم يكونوا قد قاموا بتحديثِ الأنظمةِ خلال السنوات العشر الماضية. ولكن لم يحصُل أيُّ شيءٍ من هذا القبيل».

«أعِدْ لي بطاقة أعمالي من فضلك».

«حسناً، إذا كان هذا ما تريد».

«ربما تُقرِّر معاودة الاتصال بي». لَعَقَ طَرَفَ قلمِهِ وأخَذَ البطاقة لبُرهَةٍ وأعادها لي بعد أن كَتَبَ على ظهرِها عنوانَ بريدِهِ الإلكترونيّ. كان نطاق العنوان دوت-يو كيه. «فقط إذا أردتَ أن تحترِمَ الاتفاقيةَ الأصليّةَ بيننا»، قال.

«بالتأكيد».

«لا تستخدم الخمسة والعشرين».

«كان يقصد معيار التشفير المُطَوَّر (إيه إي أس - 25[1]، والمعروفُ بالمعيار الأمريكيّ. «طبعاً لا»، قلت.

«قم بتدوير البروكسي الخاص بك بعد كل خمس عشرة كلمة».

«بالتأكيد. آمل ألّا يكون هناك أيَّة مشكلة في استخدام اللغة الإنجليزيّة».

«الإنجليزيّة، الفرنسية، الدنماركية. لا مشكلة لديَّ. ولكن تَخَيَّر كلماتك.. لا أعلام حمراء».

قطعتُ ورقةً من دفتر ملاحظاتي واستعرتُ قلمه. «هذا عنواني الإلكترونيّ. ربما تبادلنا الأفكار ووصلنا إلى تفاهم ما».

حدَّقَ بعنواني الإلكترونيّ دون أن يقرأ. انتظرتُ. «حسناً»، قال. «وما العيبُ في ذلك؟ فكِّر بالسعر وأعلِمني بذلك لاحقاً».

انتابني شعورٌ بالغرور، وفكَّرتُ: لن يسمحَ لهذه الصفقةِ أن تفلِتَ من يدِهِ، خاصَّةً وأنَّ دولة مالي بالموضوع.

---

(1) AES-25 uk.

«أرسِل لي العينة»، قال. «لرُبَّما أُعيدُ اعتباراتي، هذا كلُّ ما يمكنُ أن أعِدَكَ به. ولكن بِوِسعِكَ أن تَثِق بوعدي، لأَنَّني، دعني أقول لك، لستُ كاذِباً».

وبانتهاء الأمر على هذا النحو وبهذه الملاحظة، لم أُبادِر بمصافحته. عدتُ إلى الشاطئِ مرة أخرى. كانت الحرارة تُضاهي حرارةَ دمي، كلاهُما كان يتدفق ويتأجج. مشيتُ على حافةِ الشاطئِ باتجاهِ المطاعم الأخرى التي كانت أمامي، والتي احتشدَت أمامها سياراتُ أجرةٍ كثيرةٍ.

خلعتُ صندلي ورطَّبتُ قَدَمَيَّ في الظِلالِ، وراقبتُ المُحيطَ وهو يتَمَدَّدُ ويتقلّص، واستمعتُ إليه وهو يتنهَّد.

البحرُ هنا دافئٌ كما الحَمَّام. إنَّه مُعتِم، ليسَ أزرق تماماً، بل أقربَ إلى السواد، أسود لامِع.

تخوضُهُ إلى أن تفقِد القُدرَةَ على المِضِيِّ أكثر. تسبحُ بعيداً حتى تَصِل إلى عدمِ القُدرَةِ على الاستمرارِ في ذلك. ثم يأخُذُك.

*

على طاولةٍ خارج كوخ كونسيت، والذي من خلاله يُديرُ الطيّارون الروسُ شركة الطيران- بأُسطولِها المُكوَّن من طائرةِ رُكَّابٍ صغيرةٍ واحدة، تَولَّى أمورَنا شابٌّ من سيراليون وكان يتحدثُ بلغةٍ إنجليزيَّةٍ سليمة. وبينما كان الرجلُ الشابُّ يحملُ

جوازَ سفرِ مايكل، حاولتُ أن أستَرِقَ النظرَ إلى الجواز. كانت دافيديا تختلسُ النظرَ أيضاً - إلى جوازي وجواز سفر مايكل. «إنَّه أمريكيّ»، قلت لها. «لديَّ جوازُ سفرٍ دنماركي أيضاً، ولكنِّي لا أستخدمُهُ أبداً». كانت دافيديا أمريكيّة.

كانت دافيديا تلبسُ لباسَها السفاري، بينما كان مايكل يرتدي بدلةً ذاتَ تجاعيدٍ، وحذاءً رماديّاً مصنوعاً من جلد الأفعى. منَ النظرةِ الأولى، بدا لون ملابسه ورديّاً، ولكنه كان، عن قرب، كتانيّاً أبيضَ اللون، ومُخطَّطاً بخطوطٍ دقيقةٍ حمراء.

عندما استعادَ مايكل جواز سفره، فتح لي المجال لأُلقي نظرةً عليه - وثيقةٌ غينيَّةٌ ذاوية. «أخبرتُكَ أنَّني أنقَذتُ الرئيسَ الغينيّ».

«مرَّتان، على أقلِّ تقدير». أعدتُهُ له. «لم يبقَ له سوى شهرين وتنتهي صلاحِيَّته يا مايكل».

«لا تَخَف. هناك عددٌ كبيرٌ من أفرادِ عائلتي في أوغندا، ومِثلُهُم في الكونغو. أحَدُ هذين المكانين سيُطالِبُ بي وسيَزعُم أنَّني له. سأقومُ بالتحرِّيات الضرورية».

لم نكن في فريتاون، بل على مهبطِ طائراتٍ في شرق المدينة بمحاذاة المحيط. كانت طائرتنا بالانتظارِ في حقلٍ من الأعشابِ الطويلةِ. قلتُ للشاب: «هذه الطائرةُ من نوع بومباردر تشالينجير، أليسَ كذلك؟ تستخدمها قُوَّاتُ الخطوطِ الجويّة الدنماركيّة الملكيّة لنقلِ البضائع».

«ليس هـذا النـوع»، قـال: «هـذه مـن نـوع الـ 600، وقـد تـمَّ إيقـافُ اسـتخدامها منـذ عـام 1982».

في الأثناء، كانت دافيديا تُظلِّلُ عينيها بإحدى يديها. ولدى سماعها هذا الكلام حَملَقَت وقالت: «هل تقصِد أنَّ عُمرَ هذه الطائرةِ ثلاثون عاماً؟»

«الطائرةُ التي ترَينَها الآن عُمرُها يزيدُ على الثلاثين بسنَتين»، قال: «لكنَّها طائرةٌ ممتازةٌ، طالما لا يَتِمُّ تحميلها بأكثر مما تتحَمَّل».

قال مايكل: «ناير، هل تذكُرُ الخطوطَ الجويّةَ الروسيّة؟ تلك التي تم تسييرها بين فريتاون ومونروفيا خلال الحرب؟ كانت تُدعى الخطوط الجوية الـ ... شيء ما؟ شيء روسية.

«لم تكُن خطوطاً جويَّةً. كانت شركةً مُتَمرِّدَةً، مِثلُها مِثلَ هذه».

«كانوا الوحيدين الذين لديهم الجرأةُ الكافيَّةُ للطيران إلى مونروفيا».

«تقصِد أنَّهم كانوا على قَدْرٍ كافٍ من الجنون؛ في نهايةِ المطافِ سَقَطَت الطائرةُ، أليس كذلك؟»

«هذا صحيح، ولكن ليس على المسارِ المونروفيّ. في ذلك الوقت كانت الطائرةُ عائدةً من مُلتقىً سِرِّي، وكانت مُحَمَّلَةً باليورانيوم المُعالَج».

خالَفَنا الموظفُ الشابُّ الرأيَ. «لم يكن ثمّةَ دليلٌ على

ذلك، وفي واقعِ الأمرِ كان كلُّ ذلكَ مَحضُ افتراءٍ وتلفيق. تماماً».

«هل كنتَ هناكَ في موقعِ الحُطام؟» قال مايكل: «إذا كنتَ هناك، فقد كان عمرك خمس سنوات».

«يورانيوم مُعالَج؟» سألَت دافيديا. «أنتَ تقصِدُ مُخَصَّب؟»

«نعم بالضبط. كانت الطائرةُ محمَّلة فوق طاقتها بالـ «إتش إي يو» والذي تمَّت سَرِقَتُه من تينيكس».

«إتش إي يو؟»[1] قالت دافيديا: «ما هو الـ إتش إي يو؟ مَن هو تينيكس؟» ـ وكانت تبدو كأنها تتحَدَّث إليَّ، هزَزتُ رأسي، وقالت: «أينَ سَقَطَت؟»

«هذا هو الجزءُ الجميلُ في القِصّة»، قال مايكل.

«لم يتم العثورُ عليها إطلاقاً»، قال الموظف: «ولكن بالاستِنادِ إلى الوقائع، كانت تحمِلُ على مَتنِها حُمولَةً ليست ذاتَ أهمِيَّةٍ».

«يو ـ 235؟ هل هذا عديمُ الأهميَّة؟» تساءَلَ مايكل، ولكنه لم يكن يتوقع أننا قد سمعنا تساؤله. ظَهَرَ كأنّهُ من أنواعِ رجالِ العصاباتِ في بدلته المُخطَّطةِ تلك.

حاولتُ التخمين: «اليورانيوم عالي التخصيب».

«لم يكن على متنها شيءٌ من هذا القبيل»، قال الموظف.

---

(1) اليورانيوم عالي التخصيب (HEU). ـ المترجم.

ومِن تعبيرِهِ بدا كأنَّه قد باتَ يحملُ شعوراً بالكراهيةِ تجاه مايكل على وجه الخصوص.

لا تكادُ ترى مدرج الطائرةِ إلّا عندما تمشي عليه. ترابٌ أحمرُ مرصوصٌ ومخفيٌّ تحت الأعشابِ الشاطئية.

كان يلزم حجز حمولة الطائرة كاملة كشرطٍ لإقلاعها، وإلا سيعملُ الروس على تأجيل الرحلة، وهذا هو السبب في عدم وجود رحلات أسبوعية لديهم. انتظرنا مع ما يقارِبُ العشرين مسافراً، أفارقة، وهنود، وعرب، وبعض الأوروبيين البيض. انتظرنا بجانب مبنى المسافرين الذي كان في نهايته حاوِيةُ بضائعَ تابعةٌ لسفينةٍ مفتوحة، لم يكن بداخلها سوى أربعةُ مقاعدَ مسرح. لم يجلس أحَدٌ في الداخل، فالحرارة هناك كانت مُرَوِّعَةً. غَطَّت الغيومُ السماءَ، ولكنَّها كانت غيوماً ناصعة، وانعكَسَت صورتُها على سطحِ البحرِ بضراوةٍ شديدة لدرجة أنَّه لم يكن بمقدورِكَ النظر إلى الماء.

وَصَلَت سيارةُ هوندا بريلود بيضاء إلى كوخ كونسيت، وتوقَّفَت. لم يَتَرَجَّل منها أحَد. استَطَعتُ تمييزَ الرجل الجالس في مقعدها الخلفيّ. قلتُ لمايكل: «انظُر هناك، إنه برونو هورست».

«برونو، في مكانِ مغادرتِنا. حسناً. لا شيءَ يُثيرُ الدُعابةَ في هذا الأمر!»

«لا أستطيعُ تمييزَ الرجل الذي يتوَلّى القيادة، ولكن ليس عندي أدنى شَكٍّ بأنَّه محمد كالون».

ألقيتُ التحيَّةَ بيدي. ردَّ السائقُ وحدَهُ بالتلويح. ميَّزتُهُ أيضاً. كان إيميل، الشخصُ الذي أقَلَّني إلى بابا ليون أوَّلَ يومٍ لي في فريتاون.

كانوا يلمِسونَ كلَّ شيءٍ كنتُ قد لمسته.

قام الموظفُ بالنداءِ على رحلتنا. وبينما كان الآخرون يُلَمْلِمُونَ أشياءَهم، مشيتُ إلى الشاطئِ حامِلاً هاتفي بيدي. وعندما أوقفَني النادلُ، فَتَحتُ غِطاءَ هاتفي وأخرَجتُ بطاقةَ الهاتفِ وقذَفتُها إلى الأمواجِ. إذا كان بوِسْعِ الناتو إنتيل تَتَبُّعَها، فليفعلوا إن استطاعوا.

أعدتُ التفكيرَ، فوَجدتُ أنَّني لستُ بحاجةٍ للهاتفِ أيضاً. تمنّيتُ أُمنيَةً ورميتُهُ في البحرِ لأبعَد ما يُمكِن. تمنَّيتُ دِرعاً سحرية، والقُدرَةَ على الاختفاء.

عاودتُ الانضمام لمجموعتي. ونحن نَهُمُّ بالصعودِ على متنِ الطائرةِ، وَقَفَ شخصٌ بزِيٍّ زيتونيِّ اللونِ يحمِلُ معه عصا كشفٍ إلكترونيّة وأخذ يُمَرِّرها على مُحيطِ أجسادِ المسافرين، ويُدَغدِغُ الأماكنَ التي انطَلَقَ عليها صفيرُ الجهاز، أقصدُ نحن المسافرين الرجال، إذ لم يلمَس النساءَ أبداً. صَعدنا إلى الطائرةِ على درجاتٍ معدنيّةٍ تَمَّ تصنيعها مِن أجزاءِ حافلاتِ سفرٍ

قديمةٍ تم وصلُها ولَحْمُها على شكلِ مصعدٍ درجيٍّ معقوف. كان أمامنا شخصٌ هزيلٌ جداً بدا كأنَّه مِسمارٌ من القماش؛ كان مريضاً جداً لدرجة أنَّكَ لا تستطيعُ تمييزَ جنسه، ذكراً كان أم أنثى. لا لون له ولا وزن، ومحمولٌ على أكتافِ شابَّينِ يصعدانِ به سلم الطائرة. «إنه ذاهبٌ إلى ديارِهِ ليموت»، قال مايكل.

جَلَستُ بجانب الشباك المُطِلِّ على جناحِ الطائرةِ فوق أحد المُحرِّكَين. بينما جلس مايكل ودافيديا في الصَفِّ الذي أمامي من جِهَةِ المَمَرّ. وعندما بَدَأت المُحرِّكاتُ بالدَوَران، أطلَّ علينا مِن غرفةِ القيادةِ أحَدُ أفرادِ الطاقَم، وأظن أنَّهُما كانا اثنين فقط - كان رجلاً أشقر يلبسُ جينزاً وقميصاً أبيضَ، وشبشباً. وبدأ بالتَجَوُّلِ إلى آخر الممر وهو يقول: «هل أتحدَّثُ بالإنجليزيّة؟ هل هذا جيد؟ إذن دعونا نُجَرِّبُ ذلك. أريدُ أن أنبِّهكم حول تعليماتِ السلامةِ على متن هذه الطائرة. هل قُمتُم بربطِ أحزِمتكم؟ إنَّه خيارُكم، أنا لستُ أمّكم. اتَّفَقنا». قال: «إنَّها رحلةٌ لمُدَّةِ ستَّ عشرةَ ساعةً ونِصفُ الساعة، سنتوقف خلالها مرَّةً في مطار كوتوكا الدولي في آكرا، ومرَّةً أخرى في ياووندي، وستكون محطَّتُنا الأخيرةُ في عينتيبي. لذا من الأفضلِ أن يكونَ لديكم تأشيرةَ دخولٍ لغانا وإلا ستكونونَ بحاجةٍ إلى تأشيرةِ دخولٍ إلى الكاميرون، إن كنتم تظنون أنكم ذاهبون إلى هناك. إن كنتم تريدون الحصول على تأشيرةِ

دخولٍ لأوغندا، فلا مشكلة، سيُعالِجون الأمرَ في المطار دون أيّةِ مشاكل كبيرة. أيّاً كانت وُجهَتُكم، عليكم أن تتوقعوا أن تكون الجمارك على درجةٍ عالية من الجَدّية والحَزم. إنهم دوماً حازمون مع مسافرينا. جَدِّيونَ جداً». ودَّعَنا مُلَوِّحاً لنا بيده، ثم عاد إلى قُمْرَةِ القيادةِ وأقفلَ البابَ خلفه.

قضيتُ خمسةَ أيّامٍ في فريتاون ولم أعرِف عن أيِّ شيءٍ ـ سوى أنَّني سأهبِطُ في أوغندا كَبِداية.

أقلَعَت الطائرةُ فوق البحر، وانحرَفَت بمَسارِها انحرافاً حادّاً مُثيراً للغَثيان، ثم انخفَضَت انخِفاضاً حادّاً نحو الأرض لدرجة أنَّها أوشَكت على مُلامَسةِ أعشاب الحقلِ أسفلَ مِنّا. استطعنا رؤيةَ الطريق السريع المُتّجِهِ شَمالاً عن كَثَب، وهذا كان آخرَ ما رأيتُهُ من فريتاون: حادثَ سَيرٍ على الطريق ـ مزارعاً يتحَدَّثُ بكلتا يديه، ماعزاً مُضَرَّجَةٌ بالدماءِ وتتلَوّى عند قدميه، سيارةً أبوابُها الأربعة مُشْرَعة، ملحوظةً مُلصَقةٌ على زجاجِها الخلفيّ من الداخل كُتِبَ عليها: المدرسة الرائعة لتعليم قيادة السيارات.

II

حَصَلنا على تأشيراتِ الدخولِ إلى أوغندا في مطار عينتيبي دون أيّةِ مشاكلَ تُذكَر. بدأتُ أعاني من تَبِعاتِ وآثارِ السفر الطويل، ومن اهتِزازاتِ وارتِجاجاتِ الطائرة، إضافةً إلى الهُبوطَينِ اللذين تخلَّلا الرحلة، فقد أبْقُونا في مقاعدنا في حالةِ اختناقٍ لما يزيدُ عن الساعتين فيما استمرَّت درجةُ الحرارةِ في مقصورة المسافرين داخل الطائرة في الازدياد لتُضاهي درجةَ حرارةَ الظُّلمَةِ المداريّة المُحيطة؛ ولهذا السبب، انتابَني شعوٌر أنَّني لم أكُن على قيدِ الحياة، كما وشعرتُ أنَّني قد دخلتُ مجالاً مُتَوَسِّطاً سيجعلُني في طيِّ النسيان. هذا إضافة إلى سلاسَةِ تجاوزنا إجراءات المسؤولين في عينتيبي وسهولةِ مرورنا عبر مبنى المسافرين انتهاء بخروجنا إلى حيث سيارات الأجرة، كُلُّ هذا زادَ مِن اختلاطِ الأمور لديَّ وتشوّشي أكثر فأكثر. خَطَرَ ببالي أننا قد نكونُ بحاجةٍ للعودةِ إلى الداخلِ لإعادةِ التأكُّدِ من صِحَّةِ وسلامَةِ أختامَ الدخول. قال مايكل: «إنَّ جماعَتي هنا لا يُحِبُّون الإزعاج الذي ليس له أيّ معنى. هذه ليست غرب أفريقيا. اطمَئِن». جَلَبَ لنا مايكل سيارة. غَفَت دافيديا في السيارة فوراً، سانِدَةً رأسها على كتفه.

وشَقَقنا طريقَنا صَوبَ أماكِنِ نومَنا. داعبَ وجوهَنا هواءٌ بارِدٌ وَصَلَنا من خلالِ نافذةِ السائق المفتوحة. خمّنتُ أنه كان يأتي من بحيرة فكتوريا.

بفَضلِ قُيودِ ميزانيةِ مايكل، أقَمْنا في مكانٍ اسمُهُ الأجنحة التنفيذية؛ مكانٌ يحتوي على مَتجَرٍ لإعادةِ بيعِ اللوحاتِ الفنيَّة. كانت اللوحات مُعلَّقَةً على بعضِ جُدرانِه بشَكلٍ مائلٍ، ولكن بكُلِّ مصداقية، كانوا يُقدِّمون مبيتاً وإفطاراً كما قال مايكل. مكانٌ جيِّدٌ ويقَعُ على بُعدِ كيلومترين من البحيرة والفنادق الحقيقية. قُمْنا بالتَجَوُّلِ بين غُرَفِ المبنى، الذي يتكون من طابق واحد فقط، بَحثاً عن غرفة بسريرٍ صالحٍ غير مكسور، فمررتُ بأربع عشرة غرفة. كنا قد وصَلنا مُتأخِّرين عن موعدِ الإفطار.

قضيتُ جُلَّ نهاري بالتَّجوال في الطُّرُقاتِ الموحِلَةِ بحثاً عن هاتفٍ نقّال، وأخيراً عثرتُ على واحد، نوكيا أيضاً. تناولتُ غداءً متأخراً أمام دُكّانٍ للخدمات السريعة يسمي نفسه مؤسسة الإيمان، وقمتُ هناك أيضاً بشَحنِ رصيدِ هاتفي بدقائق، وأرسلتُ رسالةً لمايكل: «انتَبِه، هاتفٌ جديد. تناوَلوا غداءَكُم بدوني. فأنا الآن أجلسُ على طاولةٍ وآكُلُ دجاجاً، والدجاج يتَجوّلُ في الأنحاءِ حول قدميّ».

استيقظتُ لاحقاً من غَفوَةٍ عميقةٍ على طَرَقاتِ مايكل وصِياحِهِ على بابِ غرفتي: «ناير، الغداءُ إجباريٌّ هنا».

استيقظتُ لمدة ثلاث ثوانٍ، شعرتُ خلالها أنَّني كنتُ على استعداد للمُغامرة، وكنتُ على وشكِ مُلامَسة أرض الغرفة بقدمي، لكنَّني غفوتُ. ثم صَحوتُ من جديد وليسَ لديَّ أدنى فكرة أين أنا. تفحَّصتُ هاتفي الجديد. مرَّت ساعةٌ أخرى. امتلأ الجوُّ خارج شباك غرفتي بالتراتيل، فثَمَّةَ جَمهَرَةٍ من الناس على مقرُبَةٍ مِن غرفتي كانوا يؤدُّون صلواتهم. ثم بَدَأت تَصِلُني أصداءٌ غير مفهومة لموعظةٍ دينيّةٍ عبر مكبرات الصوت. ومع انتهاء الموعظة، كنتُ قد أخَذتُ حمّاماً بارداً وحدّدتُ موقعي في عينتيبي، وكان اليومُ يومَ الأحد.

في المطعم، وجدتُ مايكل ودافيديا على الشُّرفةِ يجلِسان حول طاولةٍ بيضاء، وأمامهما بقايا الغداء، كان سباغيتي، وعلى الأرجح كان معلباً. لم أكُن جائعاً. شَرِبَ العاشقان السعيدان العصير الطازج، وشَرِبتُ أنا مشروباً غازيّاً بطعم البرتقال. أخبرَنا مايكل أنّنا قد سافرنا من فريتاون باتجاه جنوب شرق لمسافة خمسة آلاف كيلومتر، وأننا هبطنا خمسة كيلومترات في الشمال من خط الاستواء وعلى بُعْدِ عشرين كيلومتراً جنوب العاصمة الأوغندية، كامبالا، وعلى بُعدِ ثلاثمائة كيلومتر شرقي جبال القمر ومنابع نهر النيل أيضاً؛ وأن الارتفاع كان بحدود 1200 متر، ولا يمكِنُ لنا أن نتوقَّعَ أن تزيدَ درجةُ الحرارةِ عن 30 درجة مئوية، وأنَّهُ مِنَ الأفضلِ لنا

أن نقـومُ بتعديـلِ الوقـتِ علـى سـاعاتنا للسـاعةِ 8:42 بعـد الظهـر، لأننـا فَقدنـا سـاعةً بسـبب اتجاهِنـا نحـو الشـرق. ثُـمَّ بـدأ مايـكل، بِمُرافَقَـةِ الأغنِيـةِ التـي عَزَفَهـا جِهـازُ التسـجيل لـدى عامـل المطعـم، يُغَنّـي لخطيبتـه بصـوتٍ مرتفـعٍ، وواضـحٍ وجميـل، مُـردِّداً كلمـاتَ أغنيـةِ «لا يوجـدُ جَبَـلٌ مرتفـعٌ بمـا يكفـي» مـع المغنييـن مارفـن غـاي وتامـي تيريـل.

توجَّهـتُ إلـى النـادل وطلبـتُ منـه إيقـاف الأغنيـة، وكوبـاً مـن القهـوة، التـي احتسـيتها سـريعاً وانطلقـت.

وعندمـا انضمَمـت لرفقائـي مـرة أخـرى، قـال مايـكل: «كنـتُ أقـوم للتـوِّ بالشـرح لدافيديـا، غـداً سـننطلق باتجـاه الشـمال إلـى جبـل نيـوادا، أو بذلـك الاتجـاه شـمالاً. كان سـتانلي[1] قـد استكشـف المـكان هنـاك للبحـث عـن منبـع النيـل».

«سـيتم الكشـف عـن المزيـد لاحقـاً»، قلـت. كنـت أُدرِكُ أَنَّنـي خـلال الأيـامِ الأخيـرةِ الماضيـة قـد شـربتُ أكثـر مـن أيِّ وقـت طـوال حياتـي. إذ لـم أسـتطع أن أشـعرَ بالراحـة والاسـترخاء، أو أشـعرَ أَنَّنـي أشْـبِهُ نفسـي فـي هـذه المنطقـة، دون أن يَضِـجَّ رأسـي بشـيءٍ مـا.

(1) الرحالـة الأمريكـي مورتـون سـتانلي، اكتشـف بحيرة إدوارد عـام 1889. **المترجـم.**

«قريَتي هناك»، أخبرنا مايكل، «على مرأى من جبل نوادا». ثم أردفَ قائلاً: «يَتِمُّ التواصل معي من قِبَلِ الأرواح. شيءٌ ما أو أحَدٌ ما يقومُ الآن بالاتصال بي. لا، أنا جادّ. إنّها أرواحُ أسلافي، وأرواحُ قريتي».

«أيّة قرية؟ ظننتُ أنك، نوعاً ما – ماذا أنت في الأصل، بالله عليك، يا مايكل؟ نوعاً ما كونغوليّاً مُشرّداً».

«أنا بالضبط كذلك. كونغوليٌّ مُشرّدٌ. والآن»، قال: «سأقومُ بإعادَةِ نفسي إلى مكانها». أَمسَكَ بذراعِ دافيديا كما لو أنه يُريدُ تسليمها لي كَدليلٍ على صِدقِ كلامِه». «إنَّها معي لأنّني أريدُ الزواجَ بها. أريدُها أن تلتقي بوالِدَيَّ».

«ظننتُ أنّ والديك مُتَوفِّيان».

«ليسا والديَّ الحقيقيَّين. إنَّهما والداي الآخَران. كلُّ القريةِ عائلتي. كلُّ أحَدٍ فيها أمّي وأبي وأخي وأختي. وإذا كان الإحساسُ صحيحاً عندها سنتزوجُ فوراً هناك».

قالت دافيديا: «مهلاً إذا كان الإحساسُ صحيحاً؟»

«إذا تمَّ الترحيبُ بكِ. وأنا على يقينٍ بأنَّهم سيُرحِّبون بكِ. فالعروسُ دائماً مَحَطُّ ترحيب، ما لم تكن تنتمي لقبيلة تُكرِّسُ حياتها للسرقة».

«وأنا سأكونُ أفضلَ رجالِك»، قلت.

«نظيري المُكافئ».

«آملُ ألّا يقومَ أحدٌ بطَبخي وأكلي».

«النـاسُ لا يفهمـون تمامـاً»، قـال مايـكل: وربمـا كان يعنـي مـا يقـول: «أن يَتِـمَّ أكلُـكَ هـو ثنـاءٌ وإطـراءٌ علـى قوَّتِـكَ ونُفـوذِكَ».

بـدأ جهـازُ التسـجيلِ يَصـدَحُ مـن جديـد. حاولـتُ إقنـاع مايـكل ودافيديا بتجرُبـةِ العصير الطبيعـي الـذي أعَـدَّهُ عاملُ المطعـم لـي. فَشَـرِبَ كلٌّ منهُمـا اثنيـن، بيـن الفقـرات، اسـتمعنا إلـى أغنيـةٍ عـن ضفـدعٍ يُشبِهِ البَطَّـة، كانـت بطـة لحوحـة.

«لقد عرفتُ منذ البداية»، قلت، «الكونغو. أعرفها».

«ليست الكونغو، لا، ليس بالضرورة».

قالـت دافيديـا: «ألـم يَحِـن الوقـت لإخبارنـا إلـى أيـن نحـن ذاهبـون؟ فـي أيّ مـكان يعيـشُ أهلُـكَ؟

«خـلال الأعمـال الانتقاميـة تـمَّ تفريقُهـم وبعثرتُهـم. لقـد تـمَّ اقتلاعُنـا وتَشـتيتُنا. ولكنّهـم تجمّعـوا ثانيـةً وعـادوا إلـى مواقِعِهـم مـرّةً أخـرى».

«أين بالضَّبط؟»

«أيـن؟ بمـكانٍ قريـبٍ جـداً مـن آروا، فـي الزاويـة الشـمالية الغربيـة مـن هـذا البلـد».

«أوغندا؟»

«هذه البلد التي نتناولُ فيها عشاءَنا الآنَ. أوغندا».

«ليست الكونغو»، قلت.

«ليست الكونغو».

«وكيف لنا أن نذهبَ إلى هناك؟»

«سنَستَقِلُّ حافلةً من كامبالا».

«كُفَّ عن هذا! سنذهبُ بالطائرة»، قلت.

«يجب أن يكون ذلك بالحافلة. إنَّكَ تستطيعُ معرفةَ السبب بسهولة».

«لماذا؟» سألت دافيديا.

كان يقصد هورست، ومحمد كالون. وإذا كان الإنتربولُ يقومُ بملاحقتنا، لأي سبب، فإنَّهم يستطيعونَ تَتَبّعَنا عن طريقِ الرجوعِ إلى قوائم الرحلات المُنطَلِقةِ من عينتيبي». أعجَبَني المنطِقُ ولكن لم تُعجِبني النتيجة.

«عليكِ أن تَرَي الريف»، قال لدافيديا.

«جيد! ولكن بالحافِلة!» قالت.

«آروا هي مسقط رأسِ عيدي أمين دادا»، أخبرنا مايكل. «في شهر مارس يحتفلون بعيد ميلاده».

«ماذا؟ هل تقصدُ المدينةَ كلها؟».

«رهطٌ من الأشخاص، ولا أحَدَ يمنعهم».

بالحافلة... لم أضحك، من بابِ الشعور بالشفقة علينا جميعاً. «إذن سنستَقِلُّ حافلةً، بكلِّ بساطة»، قلت. «وسنُغادِر».

«نعم، بَعدَ غَدٍ. هل ستأتون معي؟»

«بالتأكيد، أنا متعب بما يكفي».

«جيد. ابقَ كذلك».

«وماذا بشأنِكِ يا دافيديا؟».

«أنا واقِعَةٌ في الحُبِّ بما يكفي».

كان لديها هالةٌ من الوَهَجِ الداكِنِ وجَذْوَةٌ منَ الحَيَوِيَّةِ تُثيرانِ الدِفءَ في الأجواء. جَعَلَتني أشعرُ بالجوع.

كانت إحدى نادلات المطعم تَضعُ باروكة مجعَّدة شقراء، كأنها مارلين مونرو وهي مغمورة بالشوكولا... لم يتحدَّث النادلُ معهُن ولم يطلبا شيئاً، واستَمَرَّتا بمُراقبتي، والانتظار.

كان مايكل يتحدث بكلام غير مفهوم لنا.

«ماذا؟»

يعني ذلك أنه كان يُعاني من الألم. أمسكَ قَلَماً، وشَرَعَ بكتابةِ أشياء على منديلٍ ورقيّ. رَبَتَ على كتفي وناوَلني المنديل. في تلك الظُلمَة اللذيذة، لم أستَطِع تمييزَ الحروف.

قلتُ له: «لم أكُن أتوقّع أن تتزوّجَ مِن امرأةٍ سوداء».

هَزْهَزَ رأسَهُ وكأنّهُ يريدُ إفراغه. حدَّقَتْ دافيديا بي. «ماذا قُلتَ؟».

نعم. ماذا قلتُ؟ «رأسي يكاد ينفجر من شدة الصداع».

«كان عليك أن تَضَعَ شيئاً مِنَ الطعامِ في معدتك»، قال مايكل.

قالت دافيديا: «وضِّح مُلاحظَتَكَ».

«تقصِدين دَافِعْ عنها».

«حسناً. دافِعْ عنها».

«سأُوَضِّحُها»، قلتُ.

«نحنُ بالانتظار».

«كان دوماً لدَيهِ نُقطةُ ضعفٍ أمامَ النوعِ الشرق أوسَطيّ، هذا كل ما بالأمر. الأُنثى التي على غِرارِ الأميرةِ الفارسيّةِ. أُقدِّمُ اعتِذاري عن عَدَمِ التزامي بدوري في الكلام. إنَّني أعتذرُ حقاً».

ضَحِكتْ. لكنّها كانت غاضِبة. «لا تُقحِم نفسَكَ في العُقَد».

لأجلِ مايكل فقط، كنتُ أحاوِلُ ترطيبَ الأجواء. لكنَّ مايكل لم يَكُن يسمعُ شيئاً أساساً. «لنَنتَقِل إلى موضوعٍ آخر»، قال. «لم أقُم بالإجابَةِ على سؤالِك بخُصوصِ شركة تينيكس».

«تينيكس؟»

«هل تَذكُر؟ في مطارِ فريتاون. عندما كُنّا نتحدثُ عن اليورانيوم. يعالِجُونَ في شركة تينيكس الـ يو ـ 235 الذي يحصلون عليه من الرؤوس الحربيّة الروسيّة المُفكَّكة. يقومون

بتخفيفِ تركيزهِ إلى نسبةِ نقاءٍ تبلُغ 10٪، ويتقايَضون بشأنِهِ مع الولايات المتحدة».

«بالله عليك يا مايكل الـ يو ـ 235 مرَّةً أخرى؟»

كنتُ على الدوام أظنُّ أنَّ الأمرَ مَزْحَةً. وُضُوحُ مايكل عندما يقصِدُ أن يكونَ مُخادِعاً، لا يَصِلُ أيُّ شريرٍ مَسرَحيٍّ إلى درجة مَكْرِهِ ودَهائِه، وهو يُطأطِئُ رأسَه إلى الأمام تِجاهَ ظِلِّ وجهِه، مُنتَصِباً باتجاه فريسَتِه؛ تَكمُنُ الخِدعَةُ في رَفعِهِ لحاجِبِهِ الأيمنِ إلى الأعلى، وتَجْعيدِهِ لشَفَتِهِ بطريقةٍ ساخرة.

داهَمَتني بديهَةٌ سريعةٌ فظيعة.

وضَعَت دافيديا يدَها على أعلى ذراعي، وسألَتني فيما إذا كنتُ على ما يُرام. قلتُ: «أنا بِوَضعٍ جيّد، كلُّ ما يَعُوزُني هو أن أكونَ أكثرَ ذكاءً».

«أن تكونَ أكثرَ ذكاءً لا يعني، دائماً، أنَّك بوَضعٍ أفضَل، أليسَ كذلك؟

«تصبِحون على خير».

*

دخلت غرفتي، وتمدَّدتُ على سريري لمُتابعَةِ المحطَّة الصينيّة؛ خَبَرٌ عن أربعة عشر باندا حديثي الولادة في حديقة حيوانات في شنغهاي. عاصِفَةٌ مَطَرِيَّةٌ مُفاجِئةٌ بَدَأت تَضرِبُ

سَقفَ غرفتي كما الانهيارُ الثلجيّ، قَضَت على كهرُباءِ المدينةِ كلهِّا وأرسَلت الوُجودَ كلَّهُ إلى حيثُ أتى. فكَّرتُ بالمرأة التي تَجولُ الآنَ خارِجاً في الأرجاء في هذه الظُلمَةِ المُزَمجِرَةِ الهادِرَة.

على المِنضَدَةِ، وجدتُ المِنديلَ الذي كَتَبَ عليه مايكل. وبِمُساعَدةِ مصباح هاتفي، استطعتُ قراءَةَ الكلمات، لكنِّي لم أفهَم معناها:

هو لي هذا الباندا

إنَّهُ مِن أوغاندا

إنَّهُ دبدوبيَ الصغير

يقولونَ عنهُ الكثير

ولكنِّي لا أبالي

عيدي أمين

أنا لكَ مِنَ المُشَجِّعين!

قرأتُها عِدَّةَ مرات. أثارَت القافيةُ اهتمامي.

*

بَعدَ السادِسةِ صباحاً بقليل، سمعتُ، خلال الجُدرانِ الورَقيّةِ، في الغرفة المجاورة، أزيزَ آلةِ حلاقةِ مايكل وصوتَ ماءِ الاستِحمام. وسمعتُ بعدَ ذلك بقليل أحداً يخرُجُ إلى الخارج. وبعد ذلك بِعِدَّةِ دقائق، سمعتُ نقراً خفيفاً على

الجدار. كنت أقومُ بتسخينِ ماءٍ لتحضير قهوَتي الفوريّةِ - فَقَد وَفَّرَت لنا الأجنِحَةُ الفندقيّةُ التي نقطنها آلةً لِصُنعِ القهوةِ بالتنقيط، ولكنَّهم لم يُوَفِّروا لنا شيئاً لنقوم بتنقيطِهِ. وَوَفَّروا لنا أيضاً وعاء من النسكافيه. سمعتُ النَقْرَ مرة أخرى، وأدرَكتُ أنّها دافيديا بلا شَكّ.

اقتربتُ جداً منَ الجدار، وقلتُ، «أنا مُستَيقِظ».

جاءَ صوتُها عبرَ الجدار واضحاً جلِيًّا، «تعالَ لرُؤيَتي».

«هل نلتَقي في المطعم؟»

«دعنا نتحدَّثُ هنا»، قالت: «تعالَ هنا. أو في أيِّ مكانٍ قريب».

«أستطيعُ وبكُلِّ سهولةٍ أن أدخُلَ من خلال الجدار». فقد شعرتُ بقُربِ وجهَينا بعضِهما من بعض من خلال الحديثِ مع بعضِنا عبرَ الجدارِ بهذه الطريقة.

سَطَعَتْ الأنوارُ في الرُواق، وأخَذَت تُضيءُ وتَنطَفئُ بتِكرارٍ سريع. كان البابُ مفتوحاً.

في هذا التَقَطُّعِ العشوائيِّ للأنوارِ كانت دافيديا تنتظرُ بروب حريريٍّ أصفر اللون، وكانت حافيةَ القدمين. تَنَحَّت جانباً عن البابِ فدَخَلتُ حامِلاً كوبي ووعاء النسكافيه.

«أين مايكل؟»

«يقومُ بتمرين الركض الصباحي».

كان جَوُّ المكان رَطباً بسببِ الاستِحمامِ. وكانت ملابِسها الداخلية مُلقاةً هناك. شَمَمتُ رائحةَ عِطرِها. قالت: «رائحةُ المكان نَتِنَةٌ كريهةٌ. آسفة أحياناً يجلسُ هنا ويُدخِّنُ نصفَ علبةِ سجائر، سيجارةً تلو سيجارة. ولا يقولُ أيّة كلمة. يَظَلُّ غارقاً في تفكيرِه».

تناولَتْ سيجارةً من فوق المِنضَدةِ ووضَعَتْها في فَمِها. نَظَرَتْ حولَها، ربما بحثاً عن ولّاعةِ سجائر.

«هل تُدخِّنين؟»

ألقَتْها على كومَةِ أعقابِ السجائرِ في المنفَضَةِ، وقالت: «أنا غَبيَّةٌ جداً».

«دعينا نحتَسي بعضَ القهوة. هل لديكِ ماءٌ معلبٌ؟» أعطَتني إبريقاً سِعَتُهُ لتر وشَرَعْتُ بتسخينِ الماءِ في السّخان.

جَلَسَت دافيديا على السرير. «لقد تشاجَرنا».

«أستَهجِنُ سَماعَ ذلك. أقصدُ أن أقول: يبدو أنَّه كان شِجاراً هادِئاً غير مسموع. لم أشعُر به».

«أرادَ أن يُحافِظ على الهُدوء، علَّهُ يستَطيعُ سماعَك من خلالِ الحائِط».

«سَماعي أنا؟»

«أنتَ والفتاة»، قالت.

«كنّا هادِئَينِ أيضاً»، قلت.

«نحن حِفنَةٌ من الأغبياءِ الذين يُحِبُّونَ أن يستَرِقوا السَمعَ»، قالت. «وأنا أقصِدُ قولَ أغبياء». وقَفَتْ، ولكِنَّها لم تَدْرِ أين تذهَب. «كنتُ أريدُ رؤيَتَكَ وحدَكَ».

«لماذا؟»

صَمَتَتْ. «ليس لديَّ جوابٌ جاهز».

«هل كان لديكِ شيءٌ تَوَدِّينَ قوله؟» ولأنَّني أدركتُ أنَّني لم أكُن أقومُ بتقديمِ أيَّةِ مساعدة، أضَفتُ، «أنا فقط أحاوِلُ أن أساعِدَكِ في حَلِّ المُشكلة».

«أردتُ أن أعرفَ كيف نبدو ونحنُ معاً».

«أوه». أشْغَلتُ نفسي بالفناجين والملاعق والنسكافيه. «على ماذا كنتما تتشاجران؟»

«كنت أظنُّ أنَّ كامبالا هي وِجْهَتُنا. الآن نحن ذاهبون إلى آروا».

«لكِنَّكِ الليلةَ الماضيةَ على العشاءِ كنتِ على استعدادٍ للرَقصِ والتمايُلِ فَرَحاً بذلك».

«الرقصُ والتَمايُل؟ من أنت؟ جاك كيروك؟ تعودُ إلى القرن الماضي لتختارَ عباراتِك وكلماتِك الأمريكيّة».

«بِغَضِّ النَظر».

«بالتأكيد، الليلة الفائتة كنتُ راقِصَةً حقيقيّةً. وأحياناً تكون في حالة تتحدث فيها بأشياء لا ينبغي لك ذكرها».

«مايكل لا يَضَعُ خُططاً. إنَّهُ يُحيكُ القصصَ وينسِجُ الحكايات. هذا يجعله غامضاً. لو كان هناك أيّة طريقةٍ أستطيعُ من خلالها استدراجَه للإسراعِ نحوَ الهدف، لكنتُ، صدِّقيني، قد اكتشفتُ هذه الطريقة».

«لهذا السبب أردتُ التحدُّثَ إليكَ لمقارَنةِ ملاحظاتنا. هل أستطيعُ أن أثِقَ بكَ؟ لا .. لا أستطيعُ، هل بإمكاني؟ أقصد، أن أثِقَ بكَ لأن تكونَ مُباشِراً معي. ماذا تفعلان؟ أقصد أنتُما الاثنان تحديداً، ما الذي تُخَطِّطانِ لِفعله؟ ثمَّة شيءٌ يحصُل، وهو يرفُضُ الإفصاحَ عنه».

«لا شيء يحصُل بمعنى يَحدُثُ فعلاً. إنَّنا نُسافِرُ معاً».

«لماذا تترافَقان؟»

«أنا أحَدُ نِصْفَي الحاشِية».

«هو يفترِضُ أنَّكَ تُكَرِّسُ نفسَكَ له. وأنا لستُ متأكدةً جداً من هذا الشيء».

«هو يَظُنُّ أنَّني أكَرِّسُ نفسي للوُصولِ إلى الغِنى. تعلَمين استغلالُ ثَرَواتِ هذه القارَّة».

«وهل هذا أنتَ؟ مُغامِرٌ رخيص؟»

«لماذا تُسَمِّينَها رُخْص؟ المُغامَرةُ شيءٌ رائع. لا أستطيعُ أن أفهمَ لماذا يَستَهينُ بها الآخرون».

«لا أُصَدِّقُ أنَّكَ ذهبتَ مع تلك المرأة البائسة ذات الباروكة السخيفة. هل فَكَّرتَ باستخدامِ واقٍ؟

«كان هذا عملاً أخرق بعض الشيء. ولكن ألا تعتَقِدينَ أنَّكِ تتدخَّلينَ فيما لا يَعنيكِ؟

«بلى. ولكِن ألا تَظُنُّ أنَّني أملِكُ كلَّ الأسبابِ لأكونَ حَمقاء؟»

«اشرَبي هذه القهوة»، قلت.

«فيه خَلَلٌ ما يا ناير. في منتَصفِ الليل يُصابُ بأشياءَ مثل – لا أدري ماذا – مثلَ الكوابيس، المَشي في المنام، التحَدُّث خلال النوم.. في الحقيقة، لا أدري ماذا».

«مَشيٌ فِعليٌّ أثناءَ النوم؟ هل يمشي فعلاً في الأرجاءِ خلالَ نومِه؟»

«لا، لكن.. كلامٌ، هِياجٌ وضَربٌ، حديثٌ مُوَجَّهٌ لي، لكنَّه يتحدَّثُ بطريقة مجنونة، ينظُرُ إليَّ مُباشَرَةً، لكِنَّهُ يبدو أعمى عندما أُسَلِّطُ ضوءاً عليه».

«ذُعرٌ ليليٌّ. صحيح؟ ذِكرياتٌ عنيفَة».

«إنَّها تقودُني إلى الجُنون. إنَّها مُرعِبة».

«أخبريني شيئاً: متى وَصَلتِ إلى أفريقيا؟»

«غداً سَنُكمِلُ أسبوعين».

«في غُضونِ أسبوعينِ فقط، وتماماً حسب الجدولِ الزمنيِّ لدُخولِكِ حالةَ الانصهار. لا يوجدُ شيءٌ جَدِّيٌّ. انفِجارٌ داخليٌّ صغيرٌ وضعيفٌ، لِنَقُل، لشَخصِيَّتِكِ الأمريكيّة».

«سافرتُ سابقاً. لا تَستَهِنْ بي. أنا مَهوُوسَةٌ بِرَجُلٍ يقودُني إلى الجُنون لأَنَّني مُتيَّمَةٌ بهِ. لا يَوَدُّ أن يقولَ شيئاً. لقد أخَذَ هاتفي النقّال».

«حقاً؟ يا إلهي».

«إنَّهُ لا يسمَحُ لي بالاتصالِ بِبَلَدي».

«لا بُدَّ أنَّ أهلَكِ في حالةِ هَلعٍ وذُعر».

«هناكَ أبي فقط. لسنا على اتفاقٍ كبير على كل حال. ومنذُ أن بدَأتُ العمَلَ في المعهدِ أصبحَ فظّاً معي. ومع ذلك ـ أقصد ـ إذا تَسَنَّى ليَ الاتصالُ بهِ فسأفعَل. إذا سَمَحَ لي مايكل».

«الأمرُ ليس جديداً».

«لقد رأيت ذلك سابقاً. شُكوكُ جُنونِ العَظَمَة. الاستحواذُ على هواتِف الآخرين».

«منذُ اثنتي عشرةَ سنةً وأنا أُحلِّلُ شخصيةَ مايكل أدريكو. أولاً: أنتِ تُدرِكينَ أنَّهُ يَتيمُ حَربٍ. وُلِدَ وسط فوضى،

وهـو يُعانـي حالـةَ عـدمِ اسـتقرارٍ صِحـيّ. يُحْكِـمُ قبضَتَـهُ علـى المعلومـات، وبهـذِه الطريقـةِ يشـعُرُ بـأنَّ حياتَـهُ تحـتَ سـيطَرَتِهِ التامَّـةِ ولا يُمكِـن أن تُفلـت منـهُ. ولكـن إن أرَدتِ معرِفَـةَ أيِّ شـيءٍ بشكلٍ قاطعٍ، فهـو سيقوم بإخبارِكِ بـهِ. رغـم أنَّني أحياناً أوَدُّ لـو أقـومُ بتعذيبِـهِ بالكهرُبـاء».

«لا تُمازِحني. لقد تمَّ تعذيبه سابقاً». ما قالَتهُ كان صَحيحاً.

بَـدَت دافيديـا وحَيـدةً ومُثيـرَةً للشـفَقةِ وهـي تَقِـفُ هنـاك حامِلَـةً فنجـان قهوَتِهـا بكِلتـا يدَيهـا. قلـتُ بِحَماقَـة، «هـل سـتَتَزَوجينَهُ فعـلاً؟»

«هذا هو ما أنا هنا لأجلِهِ».

«هل تُحِبِّينَهُ حقاً؟»

قالت: «هل تَعرِف مَن هو أبي؟»

سؤالٌ غير مُتوقَّع. «لا أظنُّ ذلك».

«ألـم يُخبـرْكَ مايكل؟ أبـي هـو قائِـدُه، قائِـدُ الكتيبـةِ العسـكريّةِ فـي فـورت كارسـون. إنَّـه الكولونيـل ماركـوس سـانت كليـر».

«أوه يـا إلهـي»، قلـت، «ربـاه». وهَبَبـتُ واقِفـاً لأقـولَ شـيئاً آخـر ولكنِّـي قلـتُ، «يـا إلهـي».

«إلـى أن التَقَيـتُ بمايكل لـم أعـرِف سِـوى حُبَّيـن: حُبِّي لأبـي، وحُبِّي لبـلادي. الآنَ أحِـبُّ مايـكل أيضـاً».

«ولكنَّكِ قلتِ إنَّكِ ووالدك على خلاف».

«الأمرُ مَعقَّد. مَسائِل عائِليّة. أوَدُّ القولَ إننا مُنفَصِلان، وهو مِثلي، يُحِبُّ مايكل كما أحِبُّهُ أنا. الكلُّ يُحِبُّ مايكل. ألا تُحِبُّه أنتَ أيضاً يا ناير؟»

«لا أستطيعُ مُقاوَمتهُ، دعيني أقولُها بهذهِ الطريقةِ»، وأضفت، «أوه يا إلهي».

*

ذهَبتُ إلى البَهوِ، لِسَحبِ بعض النقود بشكل أساسيّ، وطَلَبتُ بعضَ القهوة. دَخَلَ مايكل بعدَ وقتٍ قصير من الباب وهو يلبَسُ بدلة رياضية لونها أزرق فاتح. وَضَعَ يديهِ على رُكبَتيه وانحنَى على هذا النحو، مُظهِراً الجزءَ العلوي من رأسِهِ الأصلع الكبير. كان يتنفَّسُ بسرعة وعمق. ثم وقف ونزع العِصَابَةَ عن رأسِهِ بشكلٍ خاطفٍ وعَصَرَها على الأرض.

أشرتُ له بيدي. «تعال إلى هنا، إذا سمحت؟»

جاء.

«اجلس».

جلسَ بجانِبي على الأريكةِ، مُلصِقاً رِجلَهُ برِجلي.

«مايكل، أنتَ تُثيرُ امتِعاضي».

«أبداً».

«قُل لي، مرَّةً واحدةً ولِلأبد، وبتفصيلٍ كامِلٍ، ما الغَرَضُ مِن كلِّ هذا؟»

«هل تُعجِبُكَ دافيديا؟»

«لا أريدُها هنا».

«ماذا ماذا؟».

«لا أريدُها هنا، إذا كنتَ عازماً على ما أظُنُّكَ عازماً عليه. وإذا كان الأمرُ هو ما أظُنُّهُ، فإنَّكَ بذلِكَ تسعى للخَرابِ، يا رَجَل. أنتَ تسعى للخَراب».

نَظَرَ إلى الأسفلِ مُدَقِّقاً براحتي يدَيهِ قليلاً ثم رفعَ وجهَهُ نحوي: كان كَرُوحٍ ليس لها أصدقاء. «دَعنا نتَمَشَّى في الأرجاء. ما زلتُ أستَبرِد». ذهبَ أوّلاً إلى الكاونتر ونادى على الموظف ورَجاهُ أن يعطيَهُ سيجارةً وَضَعَها خلف أذنه.

لحِقتُه إلى الخارج على الممر الطينيِّ الأحمر، والذي يعتَبِرونَه شارِعاً هنا، وقد أصبحَ الآنَ صَلباً بسبب تكدس الأحجار عليه. على هذا الارتفاع، كان الهواءُ بارِداً بما يكفي، إلّا أنَّ الشمسَ الاستوائية احتَدَمَت لسَعاتُها على ظهري. كان المَشيُ ضَرباً مِنَ الجُنون.

تمشّى مايكل بجانبي وأمسَك بذراعي بإحدى يديه الضخمتين وشَرَعَ بتدليك رقَبَتي بيدِه الأخرى، على عِظامِ الترقوة. سَطَعَ وجهُه بالمَرحِ والعرق. «جميلٌ أن أتحدَّثَ إليكَ

بصراحة يا ناير! لقد حانَ الوقتُ الآن. الآن أستطيعُ فِعلَ ذلك. كنتُ بائساً، ولكنّي الآن مسرور. اسألني ما شئتَ».

«ربّاه، يا مايكل، من أين نبدأ ونبدأ؟ ما هو وضعك العسكري؟».

«لا أنتمي لجيشِ أيِّ أحَدٍ. كنتُ مُجرَّدَ مُلحَق».

«هناكَ وِحدةٌ تابعةٌ للقوات الخاصة الأمريكيّة تقومُ بالاستكشاف في شرقي الكونغو. تبحثُ عن مُقاوَمةِ «جيش الرب». هل أنتَ مُلحَقٌ بهذه الوِحدة؟».

«هذا صحيح».

«هل فرَرتَ منها؟».

«تلكَ إشاعةٌ بَشِعَة».

«هل فرَرتَ؟».

«لم أفِرّ. لقد ابتعدتُ دعماً لخُطّتي. خُطّتي الجميلة الرائعة ـ ونعم، نعم، نعم، سنُصبِحُ أغنياء، كم مرة يتوَجَّبُ عليّ إخبارك بذلك؟ تحلَّ بالصبر. وقريباً سترى شيئاً. بِحَجَرٍ واحدٍ سأضربُ سِرباً من الطُيور».

«بالسيرِ عبرَ الأوحال ـ أنتَ في حالةِ غيابٍ دونَ إذن».

«مُنفَصِل. مُنفَصِلٌ هي الكلمةُ الأكثر دِقَّة».

«السؤالُ التالي: هل تتعامل بالمواد الانشطارية؟».

«تريّث قليلاً يا أخي».

خـلالَ الأيـام القليلـة الماضيـة، كان حديثُـهُ قـد بـدأ يفقِـدُ نكهَتـه الأمريكيّـة، ومَشْـيتُه ـ كمـا لاحظـتُ ـ أصبحـت الآن حَرَكَةَ رجلٍ أفريقيّ، وصارَت أكتافُه تتمايَلُ وتترنَّحُ وهـو يسير كأكتـافِ رجـلٍ أفريقـيّ. بـدأ الطريـق هنـا بالصُعـودِ إلـى أعلـى. توقَّفَ ليُشعل سيجارَته عندَ أحَدِ الباعَةِ، ثم سارَ وسَبَقَني بِعِدَّةِ خُطواتٍ وبَدَأت المسافةُ الفاصِلةُ بيننا تزداد. ظلَّ ماشياً بسُرعَةٍ نحـو القِمَّـةِ وهـو ينفُـثُ سـيجارته. لَحِقـتُ بـه، فقـال: «أخـي، هـل تظُـنُّ أنَّنـي سـأُقْحِم الـ يـو ـ 235 فـي حفـلِ زواجنـا؟» قالَهـا مع تكشيرَةٍ سقيمةٍ زائفـة. يـا لَـهُ مـن هـاوٍ مُبتَـدِئ. عندمـا يتعَلَّـقُ الأمرُ بشلّالاتِ الزَّيف، يكونُ فنّاناً جَسُوراً. ولكِنَّه عند الإنكارِ البسـيط، كلمـةٌ واحـدةٌ، كذبـة صَريحَـة.. يَفقِـدُ كلَّ مهاراتِـه.

«على مَهلِكَ»، قلت، «دَعني ألتَقِطُ أنفاسي».

اقتـرب مِنّـا مُتَسـوِّلٌ يلبسُ شـورتاً مـن الكاكـي دونَ قميـص. كان مُبتَسِماً ويُجَرْجِرُ إحدى رِجلَيه ويُصيحُ، «أيُّهـا الأصحـاب!» كانـت قدمـه متضخِّمـة بسـبب داء الفيـل كمـا لـو كان هنـاك رجـلٌ آخـر مُتَعَلِّـقٌ بـه.

قَبَـضَ مايكل الرجـلَ مِـن خِناقـه بيَـدٍ واحِـدة، مُحْكِمـاً إبهامَـهُ وسـبّابَته حـول عنقـه ورَفَعـهُ عـن الأرض عِـدَّةَ بوصـاتٍ للأعلـى فتدلَّـى أخمـصُ قدمـه المُصْفَـرّ المُنتَصِـب وقـال لـه: «لا شـيءَ

اليوم. ها، ها!» ثم عاوَدَ وأنزَلهُ إلى الأرض. واستأنفنا سيرَنا. قال لي: «أُهَروِلُ في السادسة كلَّ صباح. هل تَوَدُّ استِعادَة لياقَتِكَ معي؟».

«لا. أريدُكَ أن تُخبِرني عن الـ يو- 235؟».

«ليسَ بعد. لم يَحِن الأوان. هل من شيءٍ آخر؟ اسألني ما شِئتَ يا ناير».

تمَّ الكشفُ عن بعضِ المزيد، ولكن ليسَ كثيراً. لا معنى من الاندفاع قُدُماً باتجاهِ هذا الحائِطِ المطّاطي الرَّغَويّ. «ما رأيُكَ بهذه: أنتَ على وشكِ الزواجِ من ابنةِ قائدِ مُعَسكَرِكَ؟».

«قائد الكتيبة. نعم».

«هذا رائعٌ جداً جداً! أين تقع الوِحدَةُ بالنسبة للعاشِرة[1]؟

«بالقُربِ من داربا، الكونغو».

«إذا ذهبنا إلى هناك، ألَنْ يسعى إلى استعادَةِ ابنته؟».

«ذهبنا أم لم نذهب، سيَرغبُ باستعادَتِها؟».

«إنّه لن يُرسِلَ مجموعةً من ذوي القُبّعاتِ الخُضر المُتخَصِّصين بالقِصاصِ ليتَعَقَّبونا، أليسَ كذلك؟».

التزَمَ مايكل الصَّمتَ على نحوٍ لم يُعجِبني.

---

(1) المجموعة العاشرة في القوات الخاصة الأمريكية. **المترجم**.

«هل سيقومُ بذلكَ؟ أنا لستُ على استعدادٍ للمُخاطَرةِ بأيّةِ دماء. ـ أيّة ـ تعني هنا ولو نقطة دَمٍ واحِدة».

«لا. لا دِماءَ سَتُراق. لن يتنابَهم الشَّكُّ بأنَّنا على مقرُبَةٍ منهم».

«دعنا لا نذهب، وكفى».

«لا نذهب؟» دارَ دورةً كامِلةً حول نفسه، وكأنّهُ يطلبُ شاهِداً على حَماقتِه. «إنَّه يقول ـ لا نذهب ـ! هل عليَّ أن أوَضِّحَ ذلك؟ إذن سأوضِّحُ الأمر. دعني أوضِّحُ الأمرَ بخُصوصِ قبيلَتي. يبدو الأمرُ كأنَّني تركتُ رجلاً ليموتَ وهَربتُ لإنقاذِ نفسي. وفي الصباحِ الباكِر، أراهُ يدخلُ عليَّ في معسكري وهو مُضرّجٌ بدمائِه وعلى استعدادٍ للبقاء على قيدِ الحياة. هل تتخيّل حَجمَ العارِ الذي ستشعُرُ به وأنتَ تنظُرُ في عينيه؟ هذا هو العَارُ الذي يجعلني أعودُ إلى قريَتي. كيفَ أستطيعُ إفهامَكَ ذلك؟ أنا سأتَزَوَّجُ دافيديا، وستكونُ رفيقةَ حياتي. علينا أن نبدأ حياتَنا معاً بشكل صحيح، وبِمُبارَكةٍ من أهلي. كيفَ لي أن أجعلَكَ تفهم؟ هذا أساسيّ، إنها ليسَت إيماءَة، ليسَت فِكرَةً جذّابة، إنَّها جوهَرُ الأمر. بدونِها، أنا لا شيء، وهي لا شيء، ونحن لا شيء».

لقد كان يَتتَبَّعُ أفكارَه بعينيه وهو يُعَبِّرُ عنها، كان يُراقِبُها وهي تَعدو بعيداً إلى المكانِ الذي ستُصبِحُ فيه ذاتَ معنى.

«وهل نحن في طريقِنا إلى ما يُسمّى جبل نيوادا؟»

«بالقُربِ من هناك. لم أعرف الموقِع بالتحديد بَعد».

«وهل أنتَ متأكدٌ من أنَّ أهلكَ قد تجمّعوا بالفِعل؟»

«ما أعرِفُهُ هو أنَّه عليهم أن يلتَئِموا معاً من جديد. إنَّهُ الشيءُ الطبيعيُّ الذي يَتعَيَّنُ عليهم القيامُ بهِ».

«إنَّهُ أمرٌ أساسِيٌّ».

«نعم. أساسيٌّ. تقولُ الكلمةَ وكأنَّها فارِغَةٌ من معناها، لكنَّ الكلمة مليئة. إنّها الحقيقة. إنّها تخُصُّ جوهَرَ الأشياء. ناير، يُمكِنُني تخمينُ المصدر الذي حصلتَ منه على معلوماتٍ عني. من هورست، أو محمد كالون. اللّعنَةُ عليهِما، رسمِيّاً أنا فَرَرتُ، ولكن في الحقيقةِ أنا عائِدٌ إلى الوَلاءِ الذي كُنتُ قد هرَبتُ منه. ما هو الفِرار؟ الفِرار قِطعَةٌ نقدِيّةٌ. تَقلِبُها فإذا بها الولاء».

وافَقتُهُ. «الله الله. ها أنتَ تُفَكِّر».

«لا يجب على الجُنديّ أن يفكر. في الواقع، عندما يمنَعونَكَ عن التفكير، يكونُ ذلك بمثابَةِ فَرَجٍ لكَ وتخفيفاً عليك. لماذا بَدأ عقلي بالتفكير؟ انتفَخَ وجهُه بالبؤس. «ناير، أنتَ أهَمُّ صديقٍ عرفتُهُ طوال حياتي».

*

في الخامسة من صباحِ اليومِ التالي، أقلّنا مايكل في سيارةِ أجرةٍ للسَّفَرِ في الظلام إلى كامبالا. وكُنّا كلما اقتربنا من العاصِمة، تصبِحُ حركةُ المرورِ أكثَرَ كثافَةً؛ وكذلك كثافةُ الهواءِ نفسه، التي ازدادَت مع دُخانِ نيران إعدادِ الإفطار وأدخِنَةِ الديزل. جَرَينا تحت أضواءِ الشارع المُضاءِ أغلَبُها والتي حَوَّلت الأدخِنَةُ لونَها إلى الأصفر. كان من المفروضِ أن نستقلَّ حافِلةً من مكانٍ قريب لتأخُذَنا إلى الزاويةِ الشمالية الشرقية من البلاد. ولكننا تُهْنا ونحن نبحثُ صُعوداً ونُزولاً في شوارع لا أسماءَ لها إلى أن فَقَدَ السائقُ الأمَلَ فأنزَلَنا من سيارته. تعثَّرْنا بالبواليعِ والأخاديدِ ونحن نسيرُ بين حُشودِ قاطني الشارع وهم يمشُونَ في الفجر الأفريقيّ الطويل المُتَلكِّئ والمُغلَّفِ بكثافة الغيوم، مُتوسِّلين المُساعَدة - نحن مَنْ توسَّل، ليس هُم. أوصَلَنا مايكل إلى مكتبِ حجزِ خطِّ غانا، كما يُسمّونه، وهو حَيِّزٌ مساحته خمسة أمتار بخمسة أمتار مُغَطّى تماماً بأناسٍ نِيامٍ يفترشون الأرض، ولا يكترِثون إن داسَهم أحَدٌ وهو يحاوِلُ الوصولَ إلى قَفَصِ الموظّفِ المسؤول. أطْلَعَنا الموظفُ على مُخطّطٍ لمقاعدِ الحافلة، فكتبتُ اسمي في المكان الذي رغِبْتُ بالجلوس فيه، في المُقدِّمةِ بجانبِ السائق؛ وَوضَع مايكل نفسه ودافيديا إلى جانِب المَمَرّ.

وعندما باشَرنا بالصُّعودِ إلى الحافلةِ، نظَرتُ للأعلى فأدركتُ أنَّ الفجرَ قد بدأ فعلاً منذُ نصفِ ساعة. إلّا أنَّ السماءَ كانت غائِمة جداً مما حالَ دونَ نفاذِ أيّة أشعةٍ حقيقية للشمسِ إلينا. كانت فكرةً حسنةً أنّنا أخَذنا معنا وسائِدَ للجلوس عليها، حتّى لو كانت مُقطَّعَةً ومُتَعَفِّنة. ولكنّني لم أستطِع أن أفَهَمَ سِرَّ موقِف مايكل المُبتَهِجِ وتوقانه إلى هذا التَّرَفِ الخليعِ الذي تُوفِّرُه هذه الناقلات المستورَدَةِ من ماليزيا أو سنغافوره والمليئَةِ بالحُطامِ الذي يكفي لملءِ باخِرَةِ شحنٍ كاملة؛ حافلاتٌ تلهَثُ باختِناقٍ وهي تُقارِعُ من أجلِ الحصول على مزيدٍ من الشَّهَقاتِ وهي تَشُقُّ طريقَها عبر الطُّرُقاتِ بأجهزة تلفازٍ مُحَطَّمَة، وأحزِمةِ أمانٍ مُمَزّقة، مُحمَّلةً بأشخاصٍ كلهم مايكل. وضَعْنا أشياءَنا في الرُّفوفِ العُلوِيّة وتأكّدَ مايكل أنَّ كلَّ واحدٍ مِنّا ـ دافيديا وأنا ـ قد حَصَل على زجاجة ماءٍ وعلبةِ بسكويت بالزبدة من نوع الحياة الطيبة[1]. مِنْ مكانٍ يُشبه الكنيسةَ في المبنى الذي خلفنا، في الطابِقِ الثاني فوقَ المراحيضِ العُمومِيّة، وصَلَتْنا أصواتُ ترنيمةٍ غنائية.

عدّلت دافيديا تنورتها الإفريقية الطويلة، وتوسَّدتْ برأسها شالاً مطويّاً وضعته على الشباك ثمّ غطّت في سبات عميق.

---

(1) Good Life. **المترجم.**

استقر الـركاب فـي أماكنهـم، أخرجـوا هواتفهـم ورفعوهـا إلـى رؤوسـهم وبـدؤوا يتحدثـون بهـا. كانـت تفـوح منهـم رائحـة نتنـة. جلس مايـكل بينهـم مُسْتأنِفاً لبس عبـاءَة الفقـرِ الأفريقـيّ ـ مـا يَفعَلُـهُ الأفريقـيّ المُتَحَضِّـر، مُرْخِيـاً كتِفَيـهِ مُرْسِـلاً يَديـهِ ومُسْـدِلاً اللِّثـامَ علـى قلبِـهِ.

دليـلُ الحافلـةِ كانَ امـرأة، وَقَفَـت فـي المَمـرِّ بيـن المقاعِـدِ وبَـدَأت بمُخاطَبتنـا. أعطتنـا اسـمَها وبلدهـا ثـم أحْنَـتْ رأسَـها لتلاوةِ دعـاءٍ بصـوتٍ عـالٍ لمـدة دقيقـة كاملـة. دَعَـتْ بـأن لا تقضـي هـذه الرحلـةُ علينـا جميعـاً، وطَلَبـت مـن كلِّ مُسـافِرٍ أن يَتوجَّـه للمسـافرِ الـذي بمُحاذاتـه ويتمنّـى لـه أو لهـا ذاتَ الأُمنيـة؛ وفعلنـا ذلـك. أستودعكم السـلامة آمـلاً أن لا تكـونَ هـذهِ آخـرَ رحلاتكـم، رغـم أنَّنـي علـى يقيـنٍ أنَّ إحـدى هـذه الرِّحـلاتِ، سـوف ترسـلنا ـ أو أيّـة أشـلاءٍ منـا سـيَتمُّ انتشـالُها لاحقـاً ـ إلـى القبـر.

كان كابتـن رحلَتِنـا رجـلاً صغيـر الحجـم يلبَسُ قميصـاً أبيـضَ مجعـداً وبنطـالاً رمـاديّ اللـون، وكان ملتحيـاً ويعْتَمِـرُ عِمامـةً. أخـذَ مكانَـه، أدارَ المُحـرِّكَ، ثـم وَضَـع الحافلـة فـي وضعِيّـة الانطـلاق. ومـا هـي إلا دقائـق حتـى أشـارَ عـدّادُ السـرعة، الـذي كنـتُ أراهُ بوضـوح، إلـى سُـرعةٍ تزيـدُ علـى المائـة كيلومتـر فـي السـاعة.

فـي مكـانٍ مـا خلفَنـا فـي كامبـالا، أو فـي مكـانٍ مـا فـي عينتيبـي، كان بإمكانـي أن أجِـدَ نقطـةَ اتصـال واي ـ فـاي، وكان بوِسـعي أن

أُرسِلَ رسالةً مُشفَّرةً لاستخبارات الناتو تحوي مُلخَّصاً للأنشطة ... تبّاً، لو كنتُ فعلتُ ذلك لباشَرَتْ العمليّات الخاصة (إس أوه إيه)[1] عملها. أنتم أيُّها الأوغاد، أرسلتُموني إلى وسط هذه الفوضى ولم تُخبِروني بأيّ شيءٍ له علاقة. كنتُم على معرفةٍ تامّةٍ بنصفِ ما عرفته أنا الآن. لم تذكروا لي أيّ شيءٍ عن الـ يو - 235، هل فعلتُم ذلك؟ رغم أنّني أراهِنُ أنّكم سمِعتُم إشاعاتٍ عنه، وهذا هو سبب وجودي هنا في المقام الأوّل. ولستُ أنا الوحيدَ الذي يعلمُ بِكلِّ هذا. أنا على يقينٍ أنّكم تُدرِكون ذلك أيضاً. لم تقولوا لي شيئاً عن اهتمامات الإنتربول؛ أولاً: عن فرار مايكل أدريكو، الذي أبلَغَني عنه محمد كالون، ذلك السيراليونيُّ الواشي الرخيص. هل تَسعَونَ لجَمعِ المعلومات؟ بإمكاني إخباركم بأنَّ مايكل أدريكو يُسافِر مُنفَرِداً مع خطيبَتِه الحائِرةِ، والتي صَدَفَ أنّها ابنةُ قائدِ معسكَرِ المجموعةِ العاشرة للقوّات الخاصة الأمريكيّة، على أيّة حال، إذا كان ثَمَّةَ شيءٌ أعرفه أنا وأنتُم لا تعرفونَه، إن حَصَل أمرٌ كهذا، فبإمكانِكُم انتظاره في قَعرِ الجحيم.

ثلاثُ ساعاتٍ على الطريق، تَحَوَّلَ الشارع من مسربين إلى مسرب واحد. بقِيَتْ السرعة 100. ابتعدت المركبات الأصغر عن طريقنا ونحن نبحر باتجاهها. أعطتنا الشاحنات الكبيرة، ذوات

(1) مناطق العمليات الخاصة. **المترجم**.

الاثني عشر إطاراً، والتي كانت تسير باتجاهنا بعبارات مكتوبة على مقدماتها ـ عِش اللحظة ـ نصف عرض الشارع، ما أجبرنا على السير بعجلاتنا في الطين والوحل على الجانب الأيسر. لم تتطلب أيّةٌ من هذه المُناورات تخفيضَ السُّرعَة من أيِّ أحَد.

كُنّا نخفِّفُ سرعتنا فقط في مناطِق الحوادث؛ كُنّا ننحَرِفُ باتجاه الطرفِ للالتفافِ عن حُطام الحادث. صادَفْنا لاحقاً حادِثاً مُروريّاً كبيراً تسبَّبَ بإيقافِ حركةِ المرورِ في المسرَبين كليهما. كنتُ أغطُّ بالنوم ثم فتحتُ عينيَّ على شاحنةٍ مُحطَّمَةٍ وسيارة بيك أب مسحوقة، وسيارة مُنقَلبَةٍ مقطوعَةٍ نِصفَين، تتدَلّى منها أطرافٌ بشريّة تقطُرُ بالدم. وشرع المُشاة بالبَصْبَصَةِ من خلال النوافذ المُهَشَّمَة دون الخوض في نقاشاتٍ مُطوَّلةٍ أو أيّ هرْجٍ ومرْجٍ. من المُؤكَّدِ أنّ الحادِثَ كان قد وَقَعَ للتوّ ـ وكانت حافلتنا أوَّل من وَصَلَ إلى موقِعِ الحادِث، فلم يكُن هناكَ ما يحجُبُ عنا رؤيَةَ المشهَد. جَثَمَ قرد إفريقي على حافّةِ الطريق لمُشاهدة ما يحدُث، وكان ثَمَّةَ قرد آخر يُراقِبُ على بُعدِ خمسين متراً. لم يكتَرِث أيٌّ منهُما بوُجودِ الآخر. لاحظتُ وجودَ درّاجةٍ هوائيّةٍ مَشطُورَة نِصفَين ملقاةٍ على العشب. طَقْطَقَ مايكل بلِسانِه. «إنّهم لا يُبطِّئونَ سُرعَتهم أبداً».

وفيما نحنُ بانتظارِ أيِّ شَكلٍ مِن أشكالِ الحضارَةِ ليَتوَلّى زِمامَ أمورِ الكارِثة، نَزَلَ الناسُ من حافلتنا لتَمديدِ أرجُلِهم

وتناوُلِ وجباتِهم السريعة، وللضَّحكِ والثرثرَةِ والتخفيفِ عن أنفسهم. وانضَمَمنا نحن الثلاثةُ لهم على قارِعةِ الطريق. ظلَّلَتْ دافيديا عينَيها بإحدى يدَيها وبدَأت بالتَمَعُّنِ بالقِردَينِ اللذين كانا يُحدِّقان بنا.

قال مايكل لدافيديا: «إنَّهُ يتحدَّثُ إليكِ»، مُشيراً إلى رَجُلٍ عجوزٍ كان في طريقِه إلينا. «إنَّهُ ساحِرٌ». لم يكُن بمُستَوى السِّحر، إذ إنَّهُ كان صغيرَ الحَجمِ وسَخيفاً. كان يَمُصُّ عوداً أرجُوانيّاً طَويلاً من قَصَبِ السُكَّر. «إنَّهُ يقولُ إنَّنا كُلَّنا أسرى في هذا العالم. لقد سُرِقْنَا بينما كُنّا نِياماً، ثم حُمِلْنَا إلى هذا العالم، ونحن الآنَ مُحتَجَزونَ كأسرى في عالَمِ الأحلامِ هذا، الذي نَظُنُّ أنَّنا نعيشُ فيهِ أيقاظاً». وبينما كان مايكل يُتَرجِم، كان الساحِرُ يضحَكُ، ثم استَنَدَ إلى الخَلفِ واضِعاً ساقَ قَصَبِ السُكَّرِ في فمهِ الذي حَوى ضِرسَينِ أو ثلاثة، وبدأ بالشخير. ابتَسَمَ ابتسامَةً لشَخصٍ يعرِفُهُ على الجانب الآخر من الشارع، عندها تلاشَينا مِن رأسِهِ فترَكَنا وذَهَبَ إلى هناك. قال مايكل: «يجب أن يقومَ أحَدٌ بسَحبِ شاحنةِ البيك أب إلى جانب الطريق، ليَتَسنّى لنا العُبور». عادَ ودَخَلَ إلى الحافِلة. وفي غُضونِ عشرينَ دقيقةً، أطلَقَ السائقُ الزامور، وبَدَأ الناسُ يصعَدون إلى الحافلة. أخبَرَني مايكل، «هنا ليست سيّئَةً مثل غربِ أفريقيا. لكنَّها مع ذلك أرضٌ صعبةٌ».

في آروا، حجزْنا غرفاً في فندق قَصر النيل. هنا كان القَصرُ، رغم أنَّنا كُنّا قد تجاوَزنا النيل بمسافةِ عشرين كيلومتراً. وصَلنا ليلاً فلم نستَطِع تكوينَ أيِّ انطباعٍ عن الأماكِنِ المُجاوِرَة التي تُحيطُ بنا إلّا من خلالِ الأصواتِ التي كانت تَصِلنا ـ ماعِزٌ وماشِيةٌ، نِقاشاتٌ حادَّةٌ واحتفالات. قُمتُ بتفحُّصِ موقِفِ السيارات، ولاحقاً طاولات المَقهى. خمّنْتُ أننا بين تبشِيرِيِّين وعُمّالِ إغاثة على شاكِلَةِ أطباء بلا حُدود، بسيّارات الدفع الرُباعي (أس يو ڤي) نظيفَة وكبيرة، وأحذِيةٍ رياضيّةٍ نظيفةٍ. كانت الأرضِيّة نظيفة ومُعتنى بها، وكانت أماكِنُ سُكنانا مُريحَة. لَم أتوقَّع شيئاً مِن هذا القَبيل أبداً.

وقتُ الغداءِ، لم يَكُن مايكل في أيِّ مَكانٍ ظَاهِرٍ للعَيان. تقاسَمنا ـ دافيديا وأنا ـ طاوِلةً مع عَجوزٍ مُرهَقَة، فرنسيّة من أصولٍ عربية. أخبرَتنا أنَّها دَرَست التعذيب. «وذاتَ مرّة قبل هذا، قضيتُ سنواتٍ في دِراسَةِ تجارة العبيد الأطلسيين في أنغولا. والآن أقومُ بتحليلِ مُمارَسات التعذيب على يَدِ عيدي أمين. لا تقولوا إنَّني مُصابَةٌ بحالَةٍ مَرَضِيَّة. هل دِراسَةُ المَرَضِ حالةٌ مَرَضِيّة؟ هذه هي الطريقةُ التي نَجِدُ من خلالها علاج المرض. ما هي أسبابُ معاملة الإنسان للإنسان بطريقةٍ لا إنسانيّةٍ؟ نَزْعُ الحِسِّ الإنسانِيّ وتَخَدُّرِ المشاعِرِ لدى مُرتَكب الجرائم. سواءً كانَ ذلك الفِعلُ مَصدَراً للّذَةِ، الألمِ، الانزعاجِ،

الذنبِ، السعادةِ، الانتصارِ.. فتبدأ الروحُ، قبل أن يَمُرَّ وقتٌ طويلٌ، بالتعَبِ ثم تتوَقَّفُ عن الشعور، لا يأخُذُ الأمرُ وقتاً طويلاً، ليسَ طويلاً أبداً، يُصبِحُ الإنسانُ بَعدَهُ شيطاناً، يَضحَكُ على كلِّ وازِعٍ أخلاقيٍّ كان لديهِ، ويَشرَعُ بالاستعبادِ والتعذيبِ دون نَدَم ووخزِ ضمير». تلكَ المرأةُ برَقَبَتِها المشدُودةِ المُرتَجِفة، وفَمها وهو يفتَحُ ويُغلِق.. قامَتْ وتَرَكَتِ الطاولةَ ولم تكُن قد أكمَلَت نصفَ الآيس كريم المُغطّى بصَلصَةِ الشوكولا.

«هل ستعودُ إلى هنا؟»

«لا. ها هي تقومُ بدَفعِ فاتورَتها»، قلت.

«يبدو أنَّها مُصابَةٌ بالمَسِّ».

«إنَّكِ تجذِبينَ نوعاً مُعيّناً من الناس، أليسَ كذلك؟ أيتاماً وسَحَرةً وعارِضي سيرك. تَجذِبينَهُم لكِ. لا أدري كيف».

«أُبْدي الاهتمام، وهم يشعرون بذلك».

«أين مايكل؟ لم أرَهُ منذ أن وصَلنا الفندق».

«منذُ لحظَةِ أن وَضَعْنا حقائبَنا على الأرض، خرج».

«أين؟»

«لا أدري. «أريد الحديث مع أحد» هذا كل ما قال».

«سيتم الكشف عن المزيد».

*

لكن لم يتم الكشف عن المزيد بشكل فوريّ. ومهما كان الشيء الذي انشغل به مايكل، فقد بقي بسببه بعيداً ولفترات طويلة خلال اليومين اللاحقين. عِنْدَ تَوَقُّفِ المطر، انشغلتْ دافيديا بقراءة روايات المطارات بجانب المسبح، في لباسها الاستوائيّ المُكّوَّنِ من قطعتين وتنورة تَلُفُّها حول جسدها. أما أنا فكنت أجلس في منطقة الظل المسقوفة بالقش ومعي حاسوبي المحمول أفْتَحُهُ على كاونتَر المطعم، وكنتُ أظْهَرُ كأنَّني مشغولٌ به. كانت بِرْكَةُ السباحةِ على شكل كلية بشريّة. لماذا؟ لماذا قاموا بتَصميمِ المسبح على شكلِ عُضوٍ آدميّ؟ كان على الدوام طافحاً بالماء فوق حافَّتِه بسببِ الانهمارات المَطَرِيَّةِ الغزيرةِ والمُتواليّة. وكان الناسُ نادراً ما يسبحون به. وفوق سطح الماء بِذِراع، كانت أزواجٌ من اليعسوب ترفرف ذهاباً وإياباً.

كانت موسيقى الريف الأمريكيّة مع قليل من الروكابيلي[1] تصلنا من داخل المطعم إلى جانب المسبح، وكانت الأغاني مسجلة على شريط كاسيت مدته خمس وأربعون دقيقة، وبقي ذات الشريط يَصْدَحُ بتلك الأغاني طوال اليوم.

كتبت لتينا:

---

(1) (Rockabilly). **المترجم**

حسناً، لا إنترنِت هذا النهار في فندق قصر النيل الأبيض (وهو قصرٌ لذوي البشرة البيضاء). أكتبُ لكِ هذه الأشياء وأنا خارج تغطيةِ الإنترنِت. لا توجد خدمة واي-فاي هنا أيضاً. ويتوجَّبُ علينا الوقوف في طابورٍ بانتظار دورنا أمام مكتب المدير إذا ما أردنا استخدام الإنترنِت على حاسوبه.

مطرٌ خفيفٌ بدأ بالهطول. غادَرَتْ دافيديا المنطقة ولوّحت لي. كانت تلبس صندلاً أحمر، وبدا لون صندلها الأحمر مع لون قدميها البنيِّ متناسباً. عندما حاولتُ تناول فنجان قهوتي، اصطدمت يدي بالفنجان فسقطَ أرضاً وانْسَحَقَ على البلاط. ولأجل ذلك، عاقبت نفسي طوعاً بعقوبة الوقف الاختياري لمدة اثنتين وسبعين ساعة. سارع نادل شاب متجهم بممسحة أرضية ذات عصا لتنظيف المكان.

في علاقته مع إيمانيويل، المدير، يبدو جهاز الكمبيوتر الذي في مكتبه كالشرير الكرتوني نوعاً ما، إذ يقوم بإحباطه وتعجيزه بطريقة جديدة كل مرة يقترب منه، هذه المرة، بدأ الجهاز بإصدار صافرةِ إنذارٍ استمرت دون توقف، والإجراءُ الذي قام به إيمانيويل هو طرق كلِّ الأجزاءِ التي يمكن طرقها وثَنْيُ الأسلاك ولَيِّها كما لو أنها كانت أسلاكاً معطوبة، ثم أمسك الشاشة بكلتا يديه وقام بِخَضِّها خَضّاً عنيفاً مراتٍ ومرات. قام اليوم بِرَكْلِ المقبس الكهربائي المُثبَّتِ على

الحائط رَكْلةً شديدةً قاسيّةً - لم يَكُن عملاً جنونياً في واقع الأمر، لأنك غالباً ما تحصل هنا على نتائج جديدة من خلال هزهزة القوابس الحائطية أو الطقطقة والنقر عليها بإصبعك. كلُّ الأشخاصِ الذين يعملون بإمْرَتِه يعرفون كيف يعالجون مشاكل ذلك الحاسوب بطريقة صحيحة، وإذا كانت شبكة الإنترنِت متعطلة، فإنهم يستطيعون إصلاحها. أمّا إيمانيويل فينطلق إلى الجهاز كما لو كان يريد الانتقام أو أخذ ثأرٍ قديمٍ منه. وقد تعلمتُ ألّا أطلبَ منه المحاولة، إلا لغاياتِ التسليةِ فقط.

حاولتُ مِراراً وتكراراً اللجوء لعدة طرق للدخول في الموضوع اللاحق، إلّا أنَّني وفي كل مرة كنتُ أحذف ما أكتب، ولكنني أخيراً كتبت..

هل وَصَلَكِ أيّ شيءٍ من غرانت أو ذلك الشخص، الرائد كينويرث، أو مِنْ أيّ مِنْ أولئكَ الفِتيان في الفصيل 4؟

الفصيل 4، للاستعلامات الداخلية، للتَجَسُّس المُضادّ، لِصَيدِ الجواسيس. إنهم يصيدون الخَوَنَة.

أخبريني إذا جاءَكِ أيّ أحد من هناك لإلقاءِ السلام. سأعْلِمُكِ بالتفاصيلِ كلِّها حول كل ما يجري لاحقاً، عندما نكون معاً من جديد.

قمتُ بحذفِ الجملة الأخيرة وكتبتُ بدلاً منها، «تقدَّمْتُ بطلبٍ لوظيفة شاغرة هناك، لأقول الحقيقة»، ثم حذفتُ

«لأقـول الحقيقـة»، «وإذا كان لـي حـظ، وإذا كان لديهـم اهتمـام بـي، فإنهـم علـى الأرجـح سـيقومون ببعـض التجسـس».

*

استيقظتُ وارتديـتُ ملابسـي علـى وجـه السـرعة دونَ استحمام. كنتُ مدفوعـاً برغبـةٍ وشـهوةٍ عارمـة لإنهـاءِ هـذا الأمـر فـي هـذه اللحظـة تحديـداً؛ ولكـن رافقنـي شـعورٌ بأنّنـي قـد لا أتمكَّـن مـن الانتهـاء منه أبـداً. لـم أتنـاول إفطـاري أيضـاً. أعطيتُ إشـارةً لأحـدِ أصحـابِ الدراجـات الناريّـة التـي تنتظـر خـارج الفنـدق، وانطلقنـا بأقصـى مـا يملـك المحـرك مـن سـرعة باتجـاه موقـعِ الإذاعـةِ الكاثوليكيِّـة، مُمْسِـكاً بيـدي الأولـى حاسـوبي ومُتَشَـبِّثـاً بالثانيـة بحياتـي. قـررتُ ألّا أركـب أيّـاً مـن هـذه الأشـياءِ مـرة أخـرى. بِفِعْـلِ أمطـار الليـل، كان الطريـق المُتَّجِـه صـوبَ المدينـةِ زَلِقَـاً، وتَطَلَّـبَ الأمـر مُنـاوراتٍ سـريعة لتجنُّـبِ الحُفـر أو للابتعـاد عـن طريـق المـوت. كمـا واسـتلزم أنْ ننزلِـق بطريقـة متعرجـة علـى الطيـن الأحمـر. اسـتنزفتني دفقـاتُ الأدرينـاليـن وهـدّأتْ مـن روعـي. خَفَّضَـتْ العُبْـوَةُ الناسـفةُ المندفعـة التـي كنـا نركبهـا مـن سـرعتها عندمـا بدأنـا بالصعـود إلـى أعلـى مرتفـعٍ تَلِّـيٍّ طويـلٍ ينحـدرُ بشـدَّةٍ تِجـاهَ ثلاثـة أبـراجٍ ضخمـة فـي المجمـع السـكني الـذي يتكـون مـن بنايـاتٍ منخفضـة، حيـث يوجـد مركـز الاتصـالات الكاثوليكـيّ.

قـام حـارسٌ بـزيٍّ رسـميٍّ بتفتيشـي علـى بوابـة المبنـى، وعَلَّـقَ برقبتـي رُقعـةً صغيـرة تحمـل تصريحـاً أمنيّـاً للدخـول. قادَنـي الحـارسُ إلـى أقـرب مبنـىً مـن المبانـي المصنوعـة مـن الطـوب. وهنـاكَ قادَتْنـي امرأة لطيفـةٌ علـى هيئـة راهبـة إلـى حجـرةٍ فسيحة، وأجْلَسـتْني أمـام أحَـدِ الحواسيبِ الثلاثـةِ الموضوعَـةِ علـى كاونْتَـرٍ طويـل بمُحـاذاةِ الحائـط. وجَلَسَـت هـي بدورهـا علـى كرسـيٍّ إزاء البـاب. فـي تلـك اللحظـة، كنـت أنـا وهـي وحْدَنـا فقـط فـي الغرفـة. دخلـتُ إلـى الحاسـوب باستخدامِ كلمـةِ سِرّ، ثـم خرجـتُ منه فـوراً.

وبينمـا كنـت بالانتظـار، سـمعتُ صَخَبـاً مـن لعبـة كـرة قـدم، حَمَلَـهُ الهـواءُ إلينـا مـن المدرسـة الرابضـةِ أسـفل التَّلـة.

وفـي الحـال دخـلَ علينـا جنـديٌّ أوغنـدي بـزيٍّ رسـمي أزرق. أحسسـتُ بقدومـه نحـوي ولكنّـي تجاهلتـه مـن خـلال التحديـق بالشاشـة إلـى أنْ وَضَـعَ يـده علـى كتفـي وقـال: «تعـالَ مـن فضلِـك»، وقادَنـي إلـى المـكان المُخَصَّـص للاتصـالاتِ الآمنـة، أو مقهـى الاتصـالات الآمِنـةِ (إس سـي)، كمـا يُسـمُّونه؛ لـم يكـن المـكان مختلفـاً عـن الغرفـة التـي غادرناهـا للتـوّ. بيـدَ أنـه كان يحتـوي علـى حاسـوبٍ واحـدٍ فقـط.

ليـس لهـذا المـكان أدنـى علاقـة بالناتـو، باسـتثناء مـا يُسـمى فـي عالـم الأعمـال، «تبـادل الآراء بصراحـةٍ ولُطْـف». الاتصـالاتُ الآمِنةُ هنـا كانـت إحـدى عمليـات البريطانييـن، الاسـتخباراتُ العسـكريّة

4 أو 5 أو 6 ... هل أكشفُ الحقيقة؟ لا عِلْمَ لي بِعَدَدِ عملياتِ الاستخبارات العسكريّة التي تجري هنا. ومهما يكُن، فليس للأمرِ أيّة علاقةٍ باستخبارات الناتو بتاتاً. ومن خلال الحَدِّ الذي سُمِحَ لي بمعرفته، عرفتُ أنَّه لم يكن للناتو أيّةُ مواقع آمنة للاتصالات في أيّ مكانٍ في أوغندا. يحبُّ الأمريكان تسمية هذه المواقع بـ «كومو» ـ أظنّ أنَّ ذلك سخيف. استخدمتُ حاسوبيَ المحمول لتَفحُّصِ قائمةِ رسائلي الإلكترونية. كان هناك رسالة واحدة من استخبارات الناتو. لم أفتحها.

كانت هناك رسالة أخرى من تينا: صورةٌ لها مأخوذةٌ من المرآة، كانت متأنقةً، ولم تحتوِ رسالتها على أيّة كلمة.

أرسلتُ لها ما كنتُ قد كَتَبْتُهُ وأنا خارج تغطية الإنترنِت في الفندق، وأضَفْتُ عليه:

لم يحدث أيّ شيء منذ كتابتي السطور السابقة. قضيتُ وقتي بالاستماعِ لمَحَطَّةِ هيئةِ الإذاعَةِ البريطانية مِنْ مذياعٍ صغيرٍ أو بمشاهدةِ صور محطة إخبارية على التلفاز المشبوك بستلايت، في الأوقات التي كان يعمل التلفاز خلالها. لقد أطاح إيمانيويل نهائياً بحاسوب الفندق. يجلس الحاسوب هناك نصف ميت، وليس باستطاعة أحد أن يستخدمه الآن. لم يَعُدْ وسيلةَ اتصالٍ الآن، ولم يَعُدْ قادراً إلا على إصدارِ عدة أصواتٍ مزعجةٍ حادَّةٍ لا يفهمها سواه. ولهذا قمْتُ برحلةٍ

امتـدت لنصـفِ سـاعةٍ عبـر المدينـة للوصـولِ إلـى مُجمَّـعِ محطـة الإذاعـة الكاثوليكيّـة؛ لديهـم هنـا مركـزٌ إعلامـيٌّ مُـزوَّدٌ بثلاثـة أجهـزة حاسـوب وخدمـة واي-فـاي.

لا تنسَي أنْ تُخبريني إذا ما وصَلَكِ شيءٌ من الفصيل 4.

وشـعرْتُ أنَّنـي تحدثـتُ بانفتـاحٍ شـديدٍ ومباشـرٍ للغايـة حـول الأمـر. فحذفْـتُ السـطرَ الأخيـر وكتبـتُ:

أشكركِ من أعماقِ أعماقي. آملُ أن تكوني بخير.

لا شـيءَ مـن حامـد. لـم أتوقَّـع منـه شـيئاً. كان الـدورُ دوري لأبـدأ الحديـث.

عـدتُ إلـى لوحـة مفاتيحي. وكمـا اقتـرح حامد، لـم أقُمْ باسـتخدام المعيـار الأمريكـيّ. وكتجرُبـةٍ مُثيـرَةٍ، اسـتخدمتُ نظـامَ التشـفيرِ عالـي الخُصوصِيَّـة (بـي جـي بـي)؛ ووفقـاً لطلـب حامـد، قمـتُ بتدويـرِ البروكسـي الخـاصِّ بـي بَعـدَ كلِّ خمسـة عشـرة كلمـة:

230 ألف دولار أمريكيّ.

مُناصَفَةً 50-50

حاليّاً في الترانزيت

سأعودُ إلى موقع لقائنا السابق في حال ما تَوَصَّلْنا إلى اتفاق.

التوقيتُ المقترحُ 30 يوماً بالضَّبط بعد لقائنا السابق.

عَيِّنَـةٌ مـن السِّـلعَة: فـي الطابـق السـفليّ لمكتـب وثائـق إيلفيـس

في فريتـاون.

موقعُ استخباراتِ الناتو موقعٌ آمِن. قُمْ بِمُعايِنَتِه وسترى.

لا تُرْسِل رَدّاً إلا إذا كان الجواب نعم.

وبمـا أنَّنـي حـدَّدتُ التوقيـت، فقـد بـدأت السـاعةُ بالتكْتكَـةِ. اليـوم هـو الحـادي عشـر مـن أكتوبـر - بقِـيَ لـديَّ تسـعة عشـر يومـاً لأُنْهـي أمـوري مـع مايـكل وأعـود إلـى فريتـاون. برنامـجٌ سَـهْل. ولكـن أفريقيـا تمسـح فوضاهـا ببرامـج المواعيـد.

فتحتُ البلاغَ الرسميِّ:

علينا ألَّا نُفوّتَ فرصَتنا في أرْشَفَةِ الملفات. قُمْ بالتَحقُّقِ من ذلك يوميّاً. لا أقول «متى أمْكَن». تَحقَّق منهُ كلَّ يوم.

أرْسِلْ كلَّ التفاصيل، ليس ثمّة قيود على حجم المعلومات والتفاصيل. لِيَكُنْ خطؤكَ بِمَصْلَحَةِ شمولية المعلومات والتفاصيل. أعْطِنا فيضَاً غزيراً، ونحن سنقوم بغربلته وتصفيته والتفكير به مليّاً بشكلٍ يوميٍّ. كل يوم. يوميّاً.

من الآن فصاعداً، اعْتَبِرْ هذا مَهَمَّةً إجباريّةً.

رَدَدْتُ:

لا شيءَ للإبلاغِ عنه.

وأغلقتُ الشاشة.

*

هطل المطرُ غزيراً. تَسَرَّبَتِ المياهُ بغزارةٍ، على ما يبدو، من سقفِ غرفةِ الطعام المُقَنْطَرِ البديع. وعندما دخلنا، مايكل ودافيديا وأنا، ذلك المساء بحثاً عن عشاء، جاء كبيرُ النوادل بمَمْسحَةٍ أرضيَّةٍ ذات عصاً وبدأ بدفْعِ المياهِ التي أغرَقَتْ المكان إلى الخارج عبر الأبواب. على اللوحة الإعلانيّة على الدرج، وضعوا قائمةً بأنواعِ الكوكتيل ضمن القائمة الخاصة. هل حان وقت رفع الحظر الاختياريّ الذاتيّ الذي فَرَضْتُهُ على نفسي؟ أشار الوقتُ حسب ساعتي، التي كانت من نوع تيميكس والتي كان سعرها ثلاثين دولاراً، إلى أنَّ وقتَ رَفْعِ الحظر ما زال بعيداً.

تغيَّرَتْ قائِمةُ العَرْضِ الموسيقيّ لهذا اليوم؛ موسيقى بوب من أيام الخمسينيات؛ أغنيةُ «ابتسم» تحديداً التي قام بأدائها نات «كينغ» كول. لا غير. فقط «ابتسم». مرة تلو مرة. «ابتسم»... «ابتسم» ... «ابتسم» ...

حَضَرَ مايكل قبل ساعتين حاملاً معه مجموعةً من مفاتيحِ سيّارة، وأخَذَ يُلَوِّحُ بها بيده. «تويوتا لاند كروزر، ذات دفع رباعي، ومملوءة عن آخرها بالبترول».

أثناء الغداء، أرادَتْ دافيديا أنْ تعرفَ موعدَ بِدءِ الانطلاق. «قريباً جداً. الأمر كلُّهُ بأيدينا».

لم أكُن متأكداً جداً. «من أين حصلتَ على السيارة؟»

«من بيئة إدارة الهرم».

«الهرم. من هؤلاء؟»

«بيئة إدارة الهرم. أمْن. أعرف كلَّ هؤلاءِ الأشخاص. مكتب المدير في آروا. أعرِفُهُ منذ أيّام فورت براغ».

«براغ؟ كنتُ أعتقدُ أنَّكَ كُنتَ في فورت كارسون».

«وبراغ أيضاً ـ أخبرتُكِ بذلك. في براغ، قمتُ بتدريب فدائيين كولومبيين كانت تساعدهم الولايات المتحدة في تَعَقُّبِ تجارة المخدرات هناك. كل شيء كان يتم من خلال مترجمين. دعيني أُخْبِركِ بشيءٍ أنتِ تعرفينه... العمل في الترجمة الفورية مُرْهِقٌ جداً. إنها كالسيرِ في كلِّ مكانٍ على يديكِ، دون استخدام قدميكِ أبداً».

«لقد أخبرتَني بذلك مرّاتٍ عديدة»، قالت دافيديا.

«الوضعُ هناك لا يروقُ لي»، قال مايكل. كان يقصد الوضع على طاولةٍ أخرى. لا يبدو هؤلاء الأشخاص بوضعٍ سليم. إنّهم هنا من أجلِ مخطط ما.

«أطباء بلا حدود».

«إذا كانوا كذلك، فلماذا لا يذهبون إلى مكانٍ ما ويُمارِسون طِبَّهُم فيه؟ في البداية رأيناهم على الغداء، والآن على العشاء».

«يا إلهي. هل من المحتمل أنّنا نَتَعَقَّبهم؟».

«ربما يتوجَّبُ علينا فعل ذلك».

أَوْمَأتْ إليّ دافيديا، وكأنّها تَـوَدُّ أن تقولَ ساعِدْني.

«لا أحد يتجسَّسُ عليكَ»، قلتُ لمايكل.

«انتظِرْ لحظـة. ذلـك الشـخص هـو سـبولدينغ. هـل تَذْكُـرُ سـبولدينغ؟».

«أتَذَكَّرُه. إنه ليس سبولدينغ».

نهضَ مايكل وذهبَ إليهم.

«آمل أنْ لا يتصرَّف بفظاظَةِ وغِلْظَةٍ معه»، قالت دافيديا.

«هذا هو مايكل، وهو يتصرف كمايكل».

«إنّه يزدادُ جنوناً يا ناير».

«هل تعرفين؟ أظنَّه على حقّ. إنّه سبولدينغ».

«من هو سبولدينغ؟».

لسبولدينغ شعرٌ كثيفٌ ذو لـونٍ أشقر بلاتيني. لـم أكُن أتوقّع شيئاً كهـذا، ولـذا لـم أتمكـن مـن تمييزه. لـم يسبِقْ لـي أنْ رأيـت أعلـى رأسـه أبـداً.

قـام مايـكل بإحضـارِه إلينـا. لـم يجلـس سـبولدينغ. وبسـرعةٍ بـدأ مايـكل يحكـي لنـا كيـف أنـه كان أوَّلَ مَـنْ سَـنَحَ لسـبولدينغ أن يـرى أوَّلَ مشـهَدٍ للمـوت علـى الإطـلاق. لقـد أخبرنـي بهـذه القِصَّـة عِـدّة مـرات.

«هذا هو سبولدينغ»، قال لدافيديا: «سبولدينغ من الاستخبارات العسكرية 6».

لم يأبه سبولدينغ لكلامه. «إنَّه يُقَدِّمُ كل شخصٍ على أنّه جاسوسٌ من نوع ما».

«هل أقْلَعْتَ عن لبس عِمامَتِكَ؟ سألتُ سبولدينغ.

«العمامَةُ مناسبةٌ جداً في أفغانستان، في الشتاء».

«هل هذا حقاً يعني أنَّكَ لم تكن أبداً من السيخ؟»

«لا، كنتُ فقط أحاوِلُ إبقاءَ رأسي دافئاً»، قال سبولدينغ.

«ما هي ديانتكَ إذن»، سأله مايكل.

«كاثوليكيٌّ غير مُلتَزِم».

«أنا نفسي»، قال مايكل، «أرْواحِيٌّ[1] غير مُلتَزِم. هذه دافيديا، زوجتي المستقبلية».

«تهانينا لكما إذن».

«دافيديا ـ سبولدينغ مع الاستخبارت العسكرية 6».

«أنا لستُ مِنْ جماعة الاستخبارات العسكرية 6 ولا أقضي أيّ وقتٍ برفقتهم».

قال مايكل: «أرَيْت سبولدينغ أوّلَ جسمٍ مَيِّتٍ. كان ذلك في مقديشو».

---

(1) أرواحي (animist): شخص يؤمن بروحانية الأشياء والجمادات. **المترجم**.

قال سبولدينغ، «كان هناك أكثر من مائتي جسد ميت تقريباً. كلُّها ممدة بانتظام جنباً إلى جنب في الشارع. مطبوخة حديثاً».

«هل تَذْكُر الشياطين الرملية[2]؟ كان يصِلُ ارتفاعها إلى كيلومترين. ذلك هو المكان الذي تأتي منه أساطير الجان».

«لم يكُن عمرك يتجاوز الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة آنذاك. صوتُكَ لم يتغير قط».

أطلق مايكل صوتاً غنائياً كمُغَنِّي السوبرانو «آيييييي! صوتي لن يتغير أبداً»، واستمر في إصدارِ صوته الرجولي الجهوري.

«لمْ ألْتَقِ بسبولدينغ إلّا في أفغانستان»، قلتُ.

تَفَحَّصَني سبولدينغ. «حقاً. هل فعلاً سَبَقَ أن التقينا؟»

«لقد جاؤوا لنا بالطعام»، أعْلَنَ مايكل. «لا طعام لسبو لد ينغ » .

«أتمنّى لكم أمسِيةً لطيفة»، قال سبولدينغ، لدافيديا بشكلٍ أساسيٍّ، ثم عاد للانضمام إلى طاولته.

قالت دافيديا: «بالله عليك! يا لكم من بشر».

نَظَرْتُ إلى مايكل وكان ينْظُر إليّ أيضاً. «لقد تحقَّقَ لكَ ما تُريد، قال مايكل: «لقد حان الوقت لمُغادَرَةِ المدينة».

❋

(1) يقصد العواصف الرملية (Dust devils). **المترجم**

لقد أثبتَ فندقُ قصر النيلِ الأبيض أنّه، في إحدى نواحيه، ملائمٌ جداً وبشكلٍ كبيرٍ لذائِقَتي. جلسْتُ على طاولةٍ بعد ظهيرة ذلك اليوم. وبينما كنتُ أحاولُ أنْ أستوعب الهامبرغر الذي قاموا بتقديمِهِ لي.

قاموا بتشغيل أغنية «جَلْجَلَةِ الجرسِ الرائعة»(1) عبر مكبرات الصوت. في الأغنية، تقوم امرأتان، تَبْدُوانِ أمريكيّتين، بالسباحة في المسبح، تَعْلُوانِ وتَهْبِطانِ في الماءِ جنباً إلى جنب بحركاتٍ لطيفة، ثم تتبادلان الحديث حول الإنجيل والرب والتحديات الروحانيّة.

ظهر مايكل أدريكو على الجهة الأخرى من المسبح. كان يرتدي ملابس سباحة سوداء اللون. أخَمِّن أنَّه يستطيع السباحة، رغم أني لم أرَهُ يسبحُ إطلاقاً.

كان يتحدث مع شخص أوروبي، رجل أبيض. من النادر أن يظهر مايكل جديّاً، ومن النادر أن يُشاهَدَ وهو يستمِعُ بتركيزٍ وانتباه. كم تمنيتُ لو أستطيع قراءة شفاه ذلك الرجل.

كان الرجل متوسِّط الطول، ومتوسط الحجم بكل شيء. في أواسط الثلاثينيات بشعر ضئيل عديم اللون. يضع نظارات دون إطار. يرتدي قميصاً قصير الأكمام ومزموماً داخل بنطاله

(1) أغنية (Jingle Bell Rock). المترجم

المخملـي ولكنـه مُنْسَـدِلٌ خارجـه مـن الخلـف ـ هيئتـه توحـي بأنـه موظـف مدنـي، كمـا بـدا لـي، باسـتثناء أن قميصـه كان مفتـوح الأزرار إلـى منتصفـه، مُظهـراً قِـلادَةً سـميكة مـن الذهـب.

اتّجهـتُ باتجـاه المطعـم مُحـاوِلاً لَفْـتَ أنظـار مايكل، مُتسـائِلاً فيمـا إذا كان يجـب تقديمـي للرجـل مـن أجـلِ التعـارُف. لـم أُفْلِـح بِلَفْـتِ أنظـارِ مايـكل إلـيَّ. ولـم يتـم تقديمـي للرجـل.

حملـت هاتفـي المحمـول، بينمـا جلـس كُلٌّ مـن الرجليـن علـى أطـراف كراسـي مائلـة الظهـر، وانْحَنَـيا برأسـيهما تجـاه بعضهمـا البعـض. تمشَّـيتُ حـول المسـبح بأسـلوبٍ مماثـلٍ لأسـلوبِ شـخصٍ ليـس لديـه أدنـى فكـرةٍ عمـا يجـري. مـررتُ مـن خلفِهمـا مـن أجـلِ.. مـاذا؟ لعلّـي أشـمُّ شيئاً مـن رائحـة مـا يجـري طبخـه، هـل هـو عـدوان؟ هـل هـي مؤامـرة؟ مؤامـرة، حسـب اعتقـادي.

مـررت مـن أمامهمـا مُتَّجِهـاً إلـى البـاب الخلفـي الذي يقـود إلى الباحـات الخارجيـة، وركّـزتُ نظـري علـى قِـلادَةِ الرجـل الثقيلـة، والتـي تَرَكَـتْ حـول رقبتـه أثـراً يميـلُ لونـه إلـى اللـون الأخضـر. تمشّـيتُ فـي الأرجـاء لبعـض الوقـت، ثـم عـدتُ ومشـيتُ إزاء المسـبح نحـو المطعـم.

جلسـتُ علـى إحـدى طـاولاتِ المطعـم، وأخـذتُ بمراقبـةِ مايـكل والرجـل الآخـر. بَـدَأتْ السـماعاتُ مـرة أخـرى تَصْـدَحُ بأغنيـةِ «ابتسـم»، ولاحظـت أنهـم اسـتمروا بإعادتهـا لوقـت طويـل.

وبعد إعادة الأغنية إعادة كاملة، نهض الرجلُ وتقدَّمَ صوب الجهة التي كنت فيها متجهاً نحو باب الفِناء، ورَمَقَني بنظرةٍ قاسية. لم يبدُ أخطر من معلم رياضيات، إلا أنَّ وجهي احمرّ، وشعرتُ بذلك. تجاوَزَني وانطَلَقَ خارِجاً من البابِ الأمامي. راقبْتُهُ من خلال الشباك وهو يمشي في الساحة المحاذية للباب، وكان يلوح للحارس.

كان مايكل قادماً إلى الداخل.

«اجلِسْ معي لدقيقة»، قلتُ.

نظر حوله بغرابة، وباعتذار. لاحَظْتُ أنه أحَسَّ أنه عارٍ وهو بسروال السباحة القصير.

قلتُ، «مايكل، ماذا؟ ماذا؟» جلس قُبالتي، فقلت: «من كان ذلك الرجل؟»

«حسناً، إنّه رجلُ أعمال».

«هل سيكون بيننا وبينه أعمال؟»

«تماماً».

«هل تريد إخباري عن ماهيّةِ تلك الأعمال؟»

«نعم. بدأت الأشياءُ تأخذُ حَيِّزَ التنفيذ. حان الوقتُ للمُكاشَفَةِ الكامِلة».

«أخبرني».

«تعال إلى غرفتي في غضون عشر دقائق».

انفَجَـرْتُ بوجهِـه تقريبـاً. «إذا كان الآن هـو الوقـت، فلمـاذا العشـر دقائـق؟»

«ولِمَ كلّ هذه العجلة لديك؟»

«هناك فتاةٌ أريدُ التحدُّثَ إليها».

«هذا الأمر أكثر أهميّة قليلاً».

«لماذا العشر دقائق؟»

«دافيديا ترقد نائمة. سأخرجها من الغرفة».

فـي فنـدق قصـر النيـل الأبيـض، كان لديهـم غـرف مصفوفـة بشـكل دائـري، ومصمّمـةٌ علـى غـرار الأكـواخ المحليـة؛ إلا أنهـا كانـت أكبـر بكثيـر ولـم تكـن مسـقوفة بالقـش بـل بألـواح مطاطيـة. فـي كل كـوخ أربـع غـرف، وكل غرفـة تُشَـكِّلُ ربـع دائـرة، وكان لـكل واحـدة منهـا شـرفة، وبـاب، وحمـام، ونافذتـان جنبـاً إلـى جنب. هـذه الغرفـة تحتـوي علـى سرير، ومكتـب، وتلفـاز ومروحـة كهربائيـة لهـا سـاق، مثـل الكـوخ الـذي أقيـم فيـه. كمـا وتحتـوي علـى زوج مـن الرفـوف وشـماعات علـى عمـود، وليس فيهـا خزانة.

نظـرتُ بالأنحـاءِ لأرى أيّ أثـر لدافيديـا. قامـوا بتنظيـف الغرفـة، وكـان كل شـيء مرتبـاً أو معلقـاً. ولـم يبـدُ علـى المـكان أنَّ ثمـة أحـداً كان ينـام فيـه.

«مُكاشَفةٌ كامِلةٌ».

بَسَطَ مايكل حقيبةَ تسوّقٍ سوداء وأفرغ محتوياتها على السرير: شريطٌ لاصِقٌ ذو لون أصفر فاقع على شاكلة الذي يستخدمه الكهربائيون، ملفوف حول عبوة بحجم كرة البيسبول الأمريكيّة.

«ارْفَعْها».

كانت ثقيلة بالنسبة إلى حجمها. «يبدو أنها تزن كيلوغرامين».

شرع مايكل بتقطيع الشريط اللاصق بسكين، وخلال لحظاتٍ وضعَ أمامي كتلةً لامِعةً من المعدن لا يتجاوز حجمها حجم إبهامي في خِرْقَةٍ من مادة غريبة الشكل.

بَدَتْ كأنَّها من الذهب. خمَّنتُ أن تكون من الذهب. بل ودعوتُ أن تكون من الذهب.

«ما هو هذا الشيء الذي يُغَلِّفُها؟»

«هذه قطعةٌ من تلك السُّتْرةِ التي تلبسُها عندما تقومُ بعملِ صورة أشعّة إكس. إنَّها مُبَطَّنةٌ بالرصاص».

«أوه، تباً»، قلتُ.

«هذا صحيح».

«يورانيوم».

«نعم، صحيحٌ للغاية».

«يو ـ 235».

«لا. إنَّها مصقولة، ولكنها من المعدن الخام. وطالما أنها تستطيع أن تخدع عداد غايغر.. أصالة سطحية، وهذا ما يسعى إليه كلنا. إنها من جنوب الكونغو. من منجم شينكولوبوي».

«ليست من حُطامِ طائرةِ شحنٍ روسيّة».

«لا».

«أنتَ لا تملك فعلاً حمولة طائرة من اليورانيوم المُخَصَّب».

«أخبرتُكَ ـ مكاشفة كاملة. لا شيء آخر. هل سمعتَ بمشروع مانهاتن؟»

«بالتأكيد».

«اليورانيوم الذي تم استخدامه في ذلك المشروع جاء من نفس المنجم، من شينكولوبوي».

«قطعةٌ صغيرةٌ منها بِوِسْعِها أن تُحدِثَ انفجاراً مدوِّياً».

«هل سأصابُ بالسرطان إذا ما قمتُ بلمسِها؟»

ضحك. حملتُها بيدي.

«إنَّني بصدد استثمار هذه القطعة الصغيرة من براز الكلاب للحصول على مليون دولار أمريكيّ».

كان ذلك كما لو أنه فَتَحَ جُرحاً بليغاً بي، كل التوتر راح. سحبتُ الكرسي بعيداً عن مكتبه وجلست. «إذن هي عملية نَصْبٍ واحتيال؟»

«طبعاً هي كذلك. هل تظن أَنَّني أتجول هنا وهناك ومعي يورانيوم مخصب؟ لو كان هناك شيء من اليو ـ 235 في السوق، لما كانت مدينة نيويورك سوى فوهة بركان».

«ومن هو ذلك الصديق الذي يضع برقبته القلادة الذهبية الزائفة؟»

«زائفة؟»

«ألم ترَ رقبَته؟ من المحتمل أنه سيُسَمِّمُ نفسه بالطلاء الذهبي المرشوش. لم تُعجِبني طريقَتُه بالتَّعامُلِ معي في المطعم».

«إنَّه يدعو نفسه كروغر. وربما لأنه جنوب إفريقيّ، ورآك وأنت تحوم حولنا. ناير، كا نت حركَتُكَ حركةً عبقرية. بمجرد أنْ رآك، ابتدَعتُ فكرة: أنت العالِمُ الشرير».

«أنا العالِمُ المجنون».

«الشرير، الشرير، الشرير. أنت المهندس المُنْشَقّ المُتَمَرِّد الذي قام أخيراً بفحص موقع الحطام لصالح شركة تينيكس. أنتَ قدَّمتَ تقريراً لمجموعة تينيكس يفيد بعدم وجود أيّ شيء هناك. لا وجود لأيّ يورانيوم. لكنك كنت تكذب. كان هناك يورانيوم. احتفظْتَ بالحقيقةِ لنفسِكَ، وبدأتَ بالسعيِ لبيع إحداثيّات موقع الحطام: فقط عدة أرقام على قُصاصةِ ورقٍ صغيرة. مقابل مليون دولار أمريكيّ نقداً. إنها فكرة عبقرية يا ناير».

صَمَتَ ليرى ردة فعلي.

لـم أدرِ مـن أيـن أبـدأ. بـدأ المطـر بالهطـول مُحْدِثـاً طرْقـاً خفيفـاً علـى السـقف فوقنـا وعلـى أوراق الأشـجار فـي الخـارج، فأصْغينـا لذلـك لبرهـةٍ مـن الزمـن.

«أنـتَ الإثبـات»، قـال. «نلتقـي مـع كروغـر وشـريكه الـذي سيُحضِر عـداد غايغـر. نعطيهـم هـذه الكتلـة اللامعـة النشـطة إشـعاعياً كدليـل علـى حيازتنـا لليورانيـوم، وأنـت تقـوم بتأكيـد مـا أقـول عـن موقـع الحطـام. ومـن هنـاك إلـى المقايضـة الكبـرى. المليـون».

«لكـن، يـا مايـكل، هـل فكـرت بهـذا الموضـوع مليّـاً؟ هـل أولَيتَـهُ قليـلاً مـن العنايـة؟ كيـف لعمليـةِ احتيـالٍ كهـذه أن تنجـح؟ خُذنـي خـلال التفاصيـل خطـوةً خطـوةً. مـا هـي الخطـوات التـي ستوصلنا إلـى مرحلـة وضـع الأمـوال علـى الطاولـة؟»

«فـي الوقـت الـذي سـيتم فيـه وضـع الأمـوال علـى الطاولـة، سـيكونُ هنـاك أشـخاصٌ كثيـرون لمسـاعدتنا. بعـد لقائنـا مـع كروغـر وشـريكه، سـنحصل علـى خمسٍ وعشـرين ألـف دولار أمريكـيّ كدُفعَـةٍ لقـاء تقديمنـا لدليـلٍ علـى حيازتنـا للمـادة. ببعـض هـذا المـال، سنشـكل معـاً فرقـة. الكونغـو مليـء باللصـوص وقطـاع الطـرق. جماعـة حركـة 23 مـارس[1]، «جيـش الـرب»، عـدد وافـر مـن المحاربيـن، ليـس لديهـم مـا يفعلونـه طـوال اليـوم».

---

(1) حركـة 23 مـارس، أحيانـاً تُختصر بالرمز 23، هـي جماعـة مسـلحة متمـردة متمركـزة في المناطـق الشرقيـة مـن جمهوريـة الكونغـو الديمقراطيـة. **المترجم**

«ثم ماذا بعد ذلك؟ رجال كاوبوي وهنود؟ وبعد وضع الأموال على الطاولة، تَخْرُجُ البنادق؟»

«أنا من سيعالج هذا الجزء. أنت ستعالج الأجزاء الخاصة بالمُلاينةِ والمُداهنة، لأنك جَيِّدٌ في ذلك. ولكن الجواب نعم، إنه سطوٌ مُسلَّح».

«أنتَ تخطَّيتَ سؤاليَ الحقيقيّ. كيف ستصل إلى مرحلة وضع الأموال على الطاولة؟»

«عندما نلتقي بكروغر وشريكه، سنقولُ لهم: إننا بلحظة تجهيزهم للدفعة الكبرى، سنكون جاهزين أيضاً لتسليمهم عدداً معيناً من الكيلوغرامات، قُلْ خمس كيلوغرامات على سبيل المثال، وهذا هو كل ما استطعنا حَمْله من موقع الحطام. وسَنَعِد بإعطائهم إحداثيّات الموقع ليحصلوا على باقي الكمية».

«وبمجرَّدِ سرْدِكَ لهذه القصة الخُرافيَّةِ سيقومون بتسليمك خمسة وعشرين ألفاً؟»

وما إن سَمِعْتُه يقول، «خمسة وعشرين» حتى بدأ المطر في الخارج بالهطول بغزارة أكثر شدة ماسحاً كلماته. قلتُ: «ماذا؟ ماذا؟»

«خمسة وعشرون ألفاً على الفور يا ناير». في جيوبنا. ثم نغادر آروا إلى الكونغو ونعثر على سكان قريتي، عائلتي. يُقامُ

عُرْسٌ جميل. وبعدها نبدأ بالترتيبات للّقاءِ الأخير والحصول على بقية الدفعة. ستكون دفعة ضخمة يا ناير، ضخمة جداً. هائلة».

«نعم. مليون. قلتَ للتوّ».

«لم أقل لهم ذلك بعد. ربما سأقول مليونين».

«من ذا الذي سيُمكِّنُك من إبقائهم طوال الوقت وحتى النهاية في مصيدة هذه الكتلة الصغيرة من براز الكلب؟»

«السؤال الذي يجب طرحه هو: مَنْ سيُضَيِّعُ على نفسه فرصةً كهذه؟ مَنْ يستطيعُ أنْ يقولَ لا؟ إذا كان الإدعاءُ جديراً بالثقة وقابلاً للتصديق، سيقومون قطعاً بإيلائه كل الرعاية والاهتمام».

«جديراً بالثقة وقابلاً للتصديق؟! يبدو الأمر، من أوله إلى آخره وبكل وضوحٍ تام، زائفاً يا مايكل، ألا تستطيع رؤية ذلك؟ ما هي الكلمات التي أستطيع استخدامها؟ هذا هراء. مستحيل. إنه خروجٌ عن الواقع».

«الواقعُ ليس حقيقة».

«هنا في هذا المكان إنه ليس كذلك بالتأكيد. يا إلهي».

«الواقعُ انطباع، اعتقاد. أيّ ساحر يعرف هذا». ومِثْلُ شريرٍ كرتونيٍّ، بدأ بِحَكْحَكَةِ يديه بعضهما ببعض. «يا إلهي، يا ناير، بمجرد أنْ تُدَغْدِغ عَظْمَةَ الإرهابِ لديهم يقومون بقذفِ كل أنواع المال.

«وتخطَّيت سؤالاً آخر، أليس ذلك؟»

«ماذا. ما هو السؤال؟»

«مَنْ المقصود بـ هُمْ؟ هل هم خيالٌ أيضاً؟»

«بالطبع لا. يعمل كروغر لصالحهم».

«مَـنْ؟ مـع مَـنْ نتعامـلُ نحـن بالإضافـة إلـى هـذا الكروغـر؟ هـل تعرفهـم حقـاً؟»

«نحن نتعامل مع الإسرائيليين».

لـو أنَّنـي حاولـتُ القيـامَ عـن مقعـدي فـي تلـك اللحظـة، لمـا استطعت. إلـى هـذا الحَـدِّ كنـتُ مصدومـاً، وإلـى هـذا الحـد بلـغ خوفـي. «إذن أنـت تتعامـل مـع الموسـاد».

«ارتباطهـم بالعمليـة وارِدٌ جـداً»، وكان يبـدو فخـوراً بذلـك. ابْتَسَـمَ ابتسـامةً أظهـرَتْ كل أسـنانه.

«إنّكَ تحتالُ على الموساد».

«إنهـم يعرفوننـي. إنْ قلـتُ لهـم: إننـي أملـك ذلـك، فإنهـم يأخـذون كلامـي علـى مَحْمَـلِ الجـدِّ وسـيُؤمّنون الأمـوال».

عصـف المطـر وهـدر، أو ربمـا كان كل ذلـك يحصـل برأسـي. ولكـن، فـي كل الأحـوال، ذَهَـبَ شـعوري بالأشـياء ومعانيهـا وتدفَّـقَ بعيـداً مـع الطوفـان. «مايـكل.. يـا مايـكل..».

«نايـر، يـا نايـر». اقتـرب جـداً بوجهـه مـن وجهـي كَمَـنْ يظـنُّ

أنَّني توقَّفْتُ عن القدرة على السماع. «أنا أعرف هؤلاء الناس. أنتَ تعلم أنَّني أعرفهم. لقد تدرَّبتُ على أيديهم».

«مايكل، ابقَ صامتاً».

«دعني أخبرك بهذا».

«لا. إنَّني أشعر بالذهول. رجاءً اخرس».

التَزَمَ الصمت. لم أقُلْ ولا كلمةٍ واحدةٍ. في هذا الصمت، الذي كان رغم ذلك صاخباً جداً، سَقَطَتْ حماقتُهُ علينا كجبلٍ جليديٍّ، جُمودُه كان لا يُقاوَم. في هذه الحجرةِ، في أفريقيا، النقاشاتُ العقلانيةُ ليست إلا مجرَّدَ ثرثرة وبربرة لا معنى لها ولا طائل منها.

«هل هذا القدرُ من الصمتِ كفاية؟ هل أستطيع التحدُّثَ الآن؟ لأنني أريدُ توضيحَ شيء واحد: لديَّ اتصالات، أعرف الموساد، منذ أيّام تدريبي في جنوب أفريقيا. أستطيع الاتِّصالَ بهم في أيّ وقتٍ لإخبارِهم بأنّنا نرغبُ بإلغاءِ الصفقةِ، وسيتم إلغاؤها بِرُمّتها. وكأن شيئاً لم يكن».

«حسناً، بالله عليك، اتَّصِل بهم يا رجل الآن وقُمْ بإلغائها. ألغ كل شيء. الموساد؟ أنت مجنون».

«حسناً. سأقوم بإلغائها إذا كان هذا ما تريد».

«هذا ما طلبتُهُ للتوّ».

«لكن دعنا ننتظر حتى نتقدم خطوة واحدة صغيرة للأمام. دعنا نلتقي بهؤلاء الأشخاص ومعهم عداد غايغر الذي بحوزتهم، ونعودُ أدراجَنا ومعنا خمسة وعشرون. لا مزيد بعد ذلك. ولن نذهبَ أبْعَدَ من هذا!»

«لا قُطَّاعَ طُرُقٍ ضِدَّ الموساد. لا مواجهاتٍ على الطاولة».

«بالضبط. وإنْ لم تُعجِبهُم كتلة اليورانيوم التي بحوزتنا غداً، فلن نكون قد خسرنا شيئاً. على الأقلّ نكونُ قد حاولنا».

«غداً؟»

«نعم.. غداً. أخبرتُك، مكاشفة كاملة».

«تبّاً لهذا كله يا مايكل. الأمر انتهى بالنسبة لي».

نهضتُ، مُحْدِثاً صريراً عالياً بمقعدي، وانطلقتُ باتِّجاهِ الباب نحو مكانٍ تَرَكْتُ أمْرَ تحديدِه لوقتٍ لاحِق.

«كيف انتهى؟» صاح مايكل خلفي.

*

وصلتُ إلى المطعم في غضون دقيقتين، وكنتُ مُبلَّلاً تماماً. جلستُ على طاولةٍ في مكان أمْكَنَني من خلاله مراقبة العاصفة.

كان سبولدينغ جالساً في البار، جمجمته ملفوفة بعمامة كبيرة بيضاء. أشار إليها وهو يقول: «ما رأيك؟»

ما أظُنُّه، فكرتُ بنفسي، هو أنك تقوم بالتجسس عليّ.

نظرتُ إلى ساعتي. إنه وقتُ رفع الحظر الذي فرضْتُه على نفسي بخصوص القهوة والعصائر، كان قد انتهى قبل ساعة.

وأنا أتَلفَّتُ حولي بحثاً عن النادل، تقدَّمَ سبولدينغ نحوي. «تبّاً، يا ناير، هل تعلم أني لم أميّزك البارحة ، دون الزيّ الرسمي؟». وضع أمامي كأس عصير طازج.

شربتُ نصف الكأس مرة واحدة. «تفضل بالجلوس».

«صِدقاً لا أستطيع. السيارة تنتظرني. لقد أنهيتُ إقامتي في الفندق وها أنا أهُمُّ بالمغادرة».

كنتُ على وشك أن أقول هذا جيد. «إلى أين أنت ذاهب؟».

«أوه، الله وحده يعلم. خط الرحلة معقدٌ شيئاً ما. عينتيبي بدءاً. ماذا عنك؟»

«هنا فقط. ثم إلى دياري ثانية».

«ديارك ثانية. إلى..».

«أمستردام».

«أمستردام! هل تذهب إلى المقاهي؟»

ضَحِكَ وقال: «رحلةٌ سعيدةٌ يا ناير»، وانطلق مُغادِراً بتَحَفُّز، مؤدِّياً نصفَ تحيَّةٍ عسكريّةٍ بيده التي طَرَقَتْ لُفافةَ رأسه الغبيّة.

كان الشرابُ حلو المذاقِ نوعاً ما، ولكن كان فيه لذعة.

اكتسح المطرُ وجهَ المسبح. ثم توقف عن الانهمار. كانت السماء بين بين.. عاصفةٌ تُغادِر، وأخرى تأتي.

شققتُ طريقي باتجاه كوخي، وقمتُ بتبديل ملابسي. لبستُ سروالاً قصيراً وقميصاً بأكمام طويلة وتمددت. حاولتُ تشغيل التلفاز فاشتغل. شاهدتُ الأخبار الأوغندية: تقريرٌ عن زوجٍ من التوائم ملتصقين ببعضهما من منطقة الكتف، بعبارة أخرى طفل برأسين.. تُوُفِّيا؛ وتقريرٌ آخر عن طفلٍ قام خنزيرٌ بالتِهامِ وجهه، وأصابعه أيضاً.

ساقتني هذه المعلومات إلى الخارج. كانت السماءُ تغُصُّ تقريباً بالسحب الرعدية السوداء. جلستُ على كرسي في الشرفة. أسندتُ ذقني على ساعدي على حافة الشرفة. أغمضتُ عينيّ. رأيت الحديقةَ، والزهورُ تتفتَّح، وكان الأمر كأنَّما يحدثُ في فواصل زمنية متقطعة، السيقان تتطاوَلُ، البراعمُ كالأجراسِ الحمراءِ المُتدلية، براعِمٌ كما النوافيرُ الصغيرةُ البيضاء، يرقاتٌ صفراء غير واضحة المعالم على غصونٍ بُنِيَّة اللون، جَمْعٌ من الحلزونات تُجَرْجِرُ قواقِعَها الصغيرة إلى أعلى براعمِ وأوراق النباتات.

كانت اللحظةُ مُكفهِرَّةً كما الليل، ولكن كان كل شيء مغسولاً بنضارةٍ فائقة. نزل المطرُ كالرّصاصِ من السماء، قاسياً كالبَرَد. طُمأنينةٌ مدهِشةٌ أخذتني للأعلى، قوَّةٌ إيجابيةٌ دينية دَعَتْني للوقوفِ والتَّخلُّصِ من قميصي، وإنزال سروالي القصير وقذفه

من رجليّ. لا حاجة للملابس عندما يتلبسك السحر الأفريقيّ. ومشيت شبه عارٍ عبر الباحات خلال البرق وصوت المطر المدوّي الرائع وهو ينهمر بغزارة في كل الأرجاء. وسرعان ما وقفت أنظر للأسفل إلى بركة السباحة. كل الناس كانوا في الداخل. وفي خلال هذه التجربة كلها لم أكُن أرى أيّ أحد في أيّ مكانٍ في هذا العالم سوى النادل؛ النادل وحده فقط، في المطعم تحت مظلته التي كانت على بُعْدِ بِضْعِ ياردات من المسبح، كان يراقبني وأنا أقفز إلى الماء وأغرق.

مِنْ هذا الحُلُم، استيقظتُ على حُلُمٍ آخر. استلقيتُ على ظهري بجانب المسبح وقام مايكل أدريكو بتقبيلي، ثم نفث النيران في فمي وأسفل حلقي. تقلّبت وأنا أسعل وأوشك على التقيؤ، ورئتاي كادت تتمزق.

عدتُ إلى اليقظة مجدداً، ولكني كنتُ على أدنى درجات الواقع. كنتُ ما زلت مستلقياً على ظهري، ولكنني كنت هذه المرة في غرفتي بالفندق، أرتجفُ وأنا ملفوفٌ بِكَفَنٍ. كان مايكل يجلس إلى جواري على السرير.

قلتُ أو حاولتُ أن أقول: «لقد بَصَقْتَ في فمي».

«ماذا دهاك يا ناير؟»

«شخصٌ ما قامَ بتخديري».

«لم تَقُمْ أنتَ بتخدير نفسك؟»

«ربما كان الزيتون سيئاً».

«سيئاً؟ هل تقصد شيطانياً؟»

«ماذا؟ كُفَّ عن الحديث معي».

«دافيديا هنا»، قال.

«أين؟»

«أين؟ هنا».

«أنا لستُ هنا»، قال صوتها. «أنا هنا، في الشرفة. هل بمقدورِكَ سماع صوت صراصير الليل؟ هل هذه صراصيرُ ليلٍ؟»

كانت تبدو كأجراس الليل في الموسيقى التي تملأ الأرجاء. «إنها من أنواع الحشرات، نعم»، قال مايكل.

«سبولدينغ هو من فَعَلَ ذلك بي. هل كان سبولدينغ، هل تظنُّ ذلك؟»

«قد يكونُ أيّ شيء؛ فيروساً، قرصةَ عنكبوتٍ، أو سِحْراً، لعنةً، لدى الناس هنا مثل هذه القُدرات. شاهدتُ الكثيرَ من الأشياء التي تُثيرُ الضحك حقاً».

«كيف لهذا الرأس اللعين الملفوف بالمنشفة أن يتم تخديره؟».

ضحك مايكل بِحِدَّةٍ دَفَعَتْ دافيديا لتأتي وتنظر في وجهه وتقول: «هل أنتَ على ما يُرام؟»

«كان عليكِ أن تَـرَي تعابيـرَ فريـد!» كان يقصـد النـادل. «كان كما لـو أنَّ كائناتٍ فضائيـةٍ قـد هبطـت فـي مسبحه، حقـاً»، قـال: «لا بـد أنـه هـو مـن قـام بسحبك مـن بركـة السباحة. لقـد كان مبلـلاً حتـى وسـطه. لقـد أصـابَ التلـفُ حـذاءَه».

«سأُعْطيهِ بعضَ النقود»، قلت.

توقَّـفَ المطـرُ عـن الهُطـول، وكانـت دافيديـا علـى حـق ـ اسْـتأنَفَتْ تلـك الكائنـاتُ نشـاطَها؛ الحشـراتُ التـي تقـرعُ كالبورسـلان، الضفـادعُ التي تتجشـأ، والآن المزيـد مـن الضفـادع التـي تشـخرُ كالخنازيـر. نعـاسٌ خانِـقٌ ألقـى بثقلـه علـى وجهـي. وقعتُ تحت ظِلالِـهِ وأنـا على قناعةٍ بـأنَّ سبولدينغ قام بتسميمي.

*

فـي صبيحـةِ اليـوم التالـي، سـألتُ عـن سـبولدينغ، فقـال لـي إيمانيويـل، المديـر، إنّـه قـام بتسـوِيَةِ حِسـابِه وغـادر بسـيارةِ أجـرةٍ متوجهـاً إلـى مطـار آروا الصغيـر. إلـى أيـن سـيطير؟ لا طائـرات تجاريـة هـذا الصبـاح، حسـب مـا قالـه إيمانيويـل. فقـط طائـرة الأمـم المتحـدة المتجهـة إلـى مدينـة يـاي الواقعـة جنـوب السـودان.

تابعتُ طريقـي إلـى المطعـم لمُقابَلَةِ مايكل أدريكـو، حسـب الموعد المُحَـدَّدِ بيننـا. كنتُ قـد وعدتُـه بمقابلتـه هنـاك مـن أجـلِ إبلاغـه بقـراري.

كان يجلـسُ هنـاك، علـى مقرُبـةٍ مـن التلفـاز الصاخـب. لـم يكـن يفعـل شـيئاً، ولا حتـى مراقبـة التلفـاز. «حسـناً؟».

«لم أقرر بعد».

«خـذ وقتـك. لمـدة عشـر دقائـق أخـرى. لا تجلـس، امـشِ معـي»، قـال، وبـدأ بالمشـي: «علـيّ أن أُلقـي نظـرةً علـى كميـة البنزيـن».

«هل هي رحلةٌ طويلةٌ؟».

«لا، فـي أرجـاء المدينـة فقـط، فـي السـوق، ولكنَّـكَ تعـرفُ القاعـدة، نصـفُ تنـكٍ يعنـي تنـكاً فارغـاً. أنـتَ تذكُـر القاعـدة».

تذكَّرتُها.

عندمـا وصلنـا إلـى منطقـةِ اصطفـافِ السيارات، توقَّـفَ عـن المسير. «بالنسبـةِ لـلآن، تـم إيقـافُ العمليّـة. أتـرى كـم هـو سـهلٌ هـذا الأمـر؟

«أشـعر بعـدم الارتيـاح عندمـا تتوقـف أثنـاء المشـي لإبـداءِ ملاحظـة».

«في أيّة لحظةٍ خلال العملية، بِوِسْعِنا أنْ نقولَ: كفى».

«أفهَمُ ذلك».

«إذن افهـم هـذا: هـل تريـدُ حقـاً العـودةَ إلـى ذلـك الوجـودِ المُمِـلّ؟»

«أبداً».

هذا القَدْرُ كان صحيحاً، الشيءَ الصحيحَ الوحيدَ بيننا.

في هـذا الوقـت كنـا قـد وصلنـا إلـى اللانـد كـروزر، سـيارته المستعارة. ركبنا معاً. اشتغل المحـركُ بسـرعة، مِـنَ المحاولـةِ الأولى.

فتح الحارسُ البابَ على مِصراعَيه لنا.

كان عُمْـرُ السيارةِ سنة واحـدة، أشـبه مـا تكـون بالسـيارات الزرقـاء والبيضـاء التـي دأبنـا علـى استعارتها مـن الأمـم المتحـدة في جـلال أبـاد، وأحياناً في كابـول. كانـت شـبيهة جداً بهـا. بـل إن رائحتهـا مـن الداخـل كانـت نفـس الرائحـة، كرائحـة البنزيـن المسـكوب والملابـس القـذرة.

«هل أنت جاهز؟»

«لا. لهذا الأمر؟ لا».

*

توقَّفْنـا عنـدَ محطـة بنزيـن، وقامـت امـرأة بمَـلءِ الخـزان إلـى آخـره. ثـم انتظرنـا.

«بالقُرْبِ مِنَ السوق، قلتَ؟».

«هـذا كل مـا أعرفـه. سـيتّصِلونَ بـي هاتفيـاً لإخبـاري بمـكان اللقـاء. كـم السـاعة؟ «الحاديـة عشـرة وثـلاث وثلاثـون دقيقـة»، قـال لنفسـه. «سيتّصِلونَ بي خـلال النصـف سـاعة القادمـة». جلسـنا جنبـاً إلـى جنـب علـى الصـدّام الخلفـي للسـيارة، وكان مايـكل يُدخِّـن بعمـق، ينفـثُ دخانـه الأبيـض إلـى الأعلـى خـلال الأدخنـة البُنِّيـةِ

والغبار الأحمر اللذين يملآن المكان. كُنّا تحتَ لوحةٍ تحْمِلُ شِعارَ شركة شيل. بعد المكالمة، وضع هاتفه في جيبه وألقى سيجارته ثم سحقها كما يسحق الحشرة. «هيا سننطلق».

قُمنا بِرَكنِ سيارة الدَّفعِ الرُّباعيّ أمام مكان يُسمى «فندُقَ الكَرَمِ الجميل» تحت عناية سائقي التاكسي الذين يحومون في المكان. تدلَّتْ من ساعِدِ مايكل حقيبةُ ظهرٍ حمراء برّاقَة مُغلقَة بسحاب وهو يرشدني نحو الطريق. قطعنا الشارع ومشينا باتجاه السوق عن طريقِ زقاقٍ ضَيِّقٍ ومُضاءٍ في آخره، تُعَكِّرُ صَفْوَ تعرجاته وانحناءاته جموعُ المتسوّلين المُعاقين، كثيرٌ منهم كانوا كفيفي البصر. وأما الآخرون فكانوا كأنما ينظرون عبر عينيك وفي أسفل حلقك. ظهر مايكل أمامي كظِلِّ شبحٍ مُنْحَنٍ وهو يقدم ورقةً نقديةً متجعدة. «اسمي مايكل»، سمعتُه يقول: «صَلِّ من أجلي». التقطت العجوزُ الورقة النقدية بين مخالبها البرصاء وحوّلت عينيها التي لا ترى إلى الأعلى باتجاهه، وتحركت شفتاها تحت فجوةٍ في وجهها لا أنفَ فيها، وبدأت بالصلاة والدعاء، «مايكل، مايكل» ليس لأجله، بل له، وفجأةً عُدنا إلى ضوءِ النهار، لم يحصل هذا أبداً..

تمكَّنتُ من اللحاق بمايكل عند متجرٍ صغيرٍ للملابس. كان يقومُ بمعاينةِ معطفٍ من الجلد الأسود المُقَلَّد، معطفٌ حارٌّ جداً لمنطقة كهذه. رفع مرآتيه إلى فروة رأسه، وأمسك

بأكمام المعطف، لمس النسيج بإصبع واحد. لم أعرف فيما إذا كان فعلاً يحاول شراء أيّ شيء أم كان يحاول تأجيل الوقت، مُحْتَرِساً من وجودِ أيّ مُتَعَقِّب.

الأحداثُ اللاحقة. عندما غادَرْنا ميدان السوق، سلكنا طريقاً قادَنا إلى متْجَرٍ للسلع الجافة على الجهة المقابلة للشارع. دخلنا المتجر ومشينا مباشرة في الممر الذي في وسطه؛ قادنا هذا إلى آخر السوق حيث كانت امرأة تغفو على كرسي متهالك. سألناها عن مدخلٍ آخر فأشارت إلى سِتارَةٍ مُعلَّقة، مررنا خلالها فخرجنا إلى طريق جانبي، صعدنا فيه ثم انحرفنا باتجاه اليسار، عندها مَيَّزْتُ الشارع، ورأيتُ سيارتنا اللاند كروزر مركونَةً على بُعدِ مبنىً سكنيٍّ واحدٍ فقط.

سلَّمَني مايكل حقيبته. «تولَّ أنتَ أمْرَ هذه اللقمة الصغيرة».

«بالتأكيد». سيطر عليّ خمولٌ وحالةٌ من الغثيان. شعرتُ كأن وزنها خمسون باونداً.

قال مايكل: «أذهب أنا أولاً، انتظر أنت حتى تراني أخرج ثانية، وبعدها تأتي وتنضم إليّ. قد يستغرق الأمر عدة دقائق».

«ما الذي سيحصل بالداخل هناك؟»

«قبل أن أقوم بإدخالك إلى خشبة المسرح، سأقولُ لهم: إنَّني أريدُ رؤيةَ النقود. سيقولون لا، وبهذه الطريقة سأكونُ قد تفحَّصْتُ واستكشفْتُ المكان».

«وماذا بعد ذلك؟»

«إنهما شخصان من جنوب إفريقيا ـ كروغر أحدهما، رأيتَه أمس. ستقومُ بتأكيد كلِّ شيء أقولُهُ لهم، اتفقنا؟ وبعد ذلك سأذهب معهما. بإمكانِكَ البقاء هناك، في ذلك المقهى هناك، هل تراه؟ سأذهب معهما، سنجلس في سيارتهما أو أيّ مكان ومعي العَيِّنَةُ ومعهما الجهاز، وسنقومُ بعمليّةِ المُبادلة. بعدها سأرجع لِحَمْلِكَ بسيارتي، ثم نعود أدراجنا إلى قصر النيل.

«أين جهازهما، هل تعرف؟»

«آه ـ إنّكَ تُفكِّرُ بذكاء الآن. إن لم يكن بسيارتهما أو في مكان نستطيع أن نمشي إليه، فسأطلب منهما الذهاب لإحضاره. لن أركب معهما السيارة عند ذهابهما لإحضاره.

على هذا الشارع المشمس حيث تتحرك الآلات التي تدب على الأرض فوق أكوام التراب الأحمر ممهدة السطح، وحيث المولدات المترامية أمام المحلات التجارية، وتلاميذ المدارس بزِيِّهم الأخضر والأبيض وهم يعودون إلى منازلهم لتناول وجبة الغداء، بدا كل هذا معقولاً.

«توقَّفْ عن التنفس بسرعة»، قال مايكل.

«إنّني مُنْفَعِلٌ لأبعد الحدود».

«هذا جيد. هذا سيساعدك على القيام بدورك بعناية. احرِصْ أنْ لا تفقد وعيك فقط». تَرَكَني واقفاً هناك. وحتى أُبْعِد عقلي

عن نفسه، قرأتُ لوحة إعلانية ترشد إلى اتباع نمط حياة صحي، ثم تابعت بنظري تَقَدُّمَ سيارةٍ صغيرةٍ فوق الأخاديد والوهاد والصخور الصغيرة من بداية المباني إلى نهايتها، مُطْلِقةً بوقها الذي كان يتكوَّنُ من أوَّل ست نوتات في أغنية «هابي بيرث داي». وبدأتُ أتلفَّتُ حولي لأرى شيئاً آخر. لمحتُ مايكل وقد خرج إلى الخارج مرة أخرى. كان يقفُ في موقع الحدث واضعاً نظارته الشمسية كأنه يقوم بتأييدِ التحذير المكتوب بجانبه على الحائط: لا تتبول على هذا الجدار غرامة 30000. كان يلبسُ مِعْطَفَ الجلدِ المُقَلَّد الأسود الطويل الذي ابتاعه من السوق. كنت على مستوىً من الانفعال والعصبية لدرجة أنَّني لم أرَهُ وهو يشتريه.

من المؤكد أن مايكل استشعر بذلك، فأخذ بذراعي وسرنا معاً نحو الداخل. كنتُ أعيشُ أحد كوابيسي المستمرة المستديمة: سأصعدُ إلى المسرح، وسيحين وقت الكلام، ولكني سأنسى النص الخاص بدوري. في هذا الحلم السيئ تحديداً، كان المسرحُ مكاناً قذراً مساحته أربعةُ أمتارٍ بأربعة أمتار؛ كان مُحاطاً بألواحٍ معدنية ومسقوفاً بالصفيح، وعلى اليسار كانت هناك لافتة تقول سيمبا ديسكو / يتوفر لدينا جهاز لشحن الهواتف، وعلى اليمين ساعة من نوع بيل ليجر بعقرب واحد، تحسب الدقائق فقط؛ وثمة طاولات ومقاعد خشبية. جلسنا قُبالَة الرجلين الجنوب أفريقيين.

كانـا فريقـاً واحـداً، يعمـلان بمبـدأ المناصفـة، مثلنـا، مايـكل وأنـا، الرجـل الأسـود، كمـا افترضـتُ، كان زولـو، وكان مـن الممكـن أن يكـون أحـد تلامِـذَةِ كروغـر فـي مـادة الرياضيـات، إلا أنـه كان يبدو بالثلاثينيات مـن العمـر أيضـاً. كان يضـعُ نظارَتَـه الشمسـيّة أعلـى جمجمتـه المحلوقـة. فـي كل الأمـور الأخـرى، كان يبـدو كأَنَّـهُ يحـاوِلُ التَشَـبُّه بمغنِّـي الـراب الأمريكييـن: سـترة بقبعـة، سـروال هيـب هـوب قصيـر فضفـاض لـم أرَ أيّ أحـد فـي أوغنـدا يلبـس مثلـه. كلمـةٌ حـول حـذاء هـذا الزولـو: كان حـذاءً رياضيـاً مُخصّصـاً للركـض، لونـه أرجوانـي ومصمـم بعنايـة؛ ومـن خـلال منظـره، كان يحتـوي علـى قدميـن ضخمتيـن. لا يوجـد مـا يُفَسِّـرُ سِـرَّ تَـنَبُّـهـي بشـكلٍ ثاقِـبٍ ـ فـي هـذه اللحظـة ـ لاختياراتِ الأشـخاصِ لصيحـاتِ الموضـة.

أخـرجَ مايـكل سـيجارةً وطلـبَ ولّاعـة، فأحضَـرَ النـادلُ مجموعـة منهـا بقصـد بيعهـا. كان علـى مايكل أن يُجـرِّبَ ثلاثـة أو أربعـة قبـل أن يحصـل علـى واحـدة صالحـة.

قال كروغر، «كلُّ شيءٍ زائفٌ هنا».

قـال مايـكل، «قلبـي فقـط هـو الحقيقـيّ»، ووضـع سـيجارته جانبـاً.

لـم أركِّـز كثيـراً بالأشـياء، انشـغلتُ بالنظـر إلـى اللوحـات المعلقـة علـى الجـدار، قامـوا بتبـادل الملاحظـات، وكان هنـاك كلام

عـن عـداد غايغـر، وموقـع السـيارة، ذكـروا الإشـعاعات السـينية، فـي الحقيقـة. ولكـن لـم يترَسَّـخَ فـي ذهنـي مـن كل هـذا سـوى الحـوار التالـي فقـط: قـال مايـكل: «إنَّهـا قـلادةٌ جميلـةٌ يـا أخـي»، فقـال كروغـر: «أحِـبُّ قلادَتَـكَ أيضـاً». وعندمـا شـكره مايـكل، أضـاف كروغـر، «كانـت تبـدو أنيقـةً علـى صديقـي قبـل أنْ تسـرِقَها». فقـال مايـكل: «مَـنْ؟ أيّ صديـق؟» وفـي تلـك اللحظـة، كمـا لـو أنَّ الوقـتَ انتقـلَ إلـى مرحلـةٍ لاحقـةٍ، هـبَّ ثلاثتُهُـم بالوقـوف وبـدؤوا بالشـجار. أمسـكَ الزولـو بمايـكل مـن الخلـف مُكَبِّـلاً كلتـا يديـه، أو أنـه كان يحـاول تثبيـت مرفقيـه. وبينمـا كان مايـكل يحـاولُ الإفـلاتَ مُتَفَتِّـلاً مـن جنـب إلـى جنـب، قـام هـذا الكروغـر بغـرسِ سـكينٍ فـي صـدر مايـكل وبطنـه، ثـم سـدّدَ طعنـةً إلـى عُنُقِـه.

نقْلَةٌ أخـرى، كان الزولـو مُمَـدَّداً علـى ظهـره، بعينيـن مشـدوهتين، يحـاولُ جاهِـداً التقـاط أنفاسـه. كان مايـكل قـد وَجَّـهَ لـه ضربـةً موجِعـةً نوعـاً مـا. جاءَنـي باعـثٌ لفعـل شـيء. مـرّت بخاطـري صـورة، رأيـت نفسـي أتقـدَّمُ خطوتيـن للأمـام، أقفـزُ علـى صـدرِ الرجـل وأقـفُ فوقـه لأبقيـه مطروحـاً علـى الأرض. لكـن لـم يتحـرك أيّ عضـوٍ منـي. عِشْـتُ التجربـةَ كسـؤالٍ فقـط، ألا يتوجـب علـيّ أن، هـل علـيّ أن، لكنِّـي لـم أفعـلْ شـيئاً بالفعـل. مـرّت الدقائـقُ الآن بسلاسـةٍ أكبـر، كمـا لـو أنَّ شـريطَ فيديـو كان قـد عَلِـقَ بالمسـننات الداخليـة للجهـاز. شـاهدتُ الفيلـم، ولكنـه لـم يكـن مثـل الأفـلام

في نهاية المطاف، ليس حتى مثل مباراة ملاكمة على التلفاز. وما إن سَمِعتُ صوتَ اللكماتِ الأولى، حتّى امتلأت أذناي بالقطن، أذْكُرُ عيني مايكل كانتا تُراقِبان، تنْظُران، وتتحرَّكان هنا وهناك، تُقدِّرانِ المسافات والقياسات، وعندما حَدَّدَ هدَفَهُ، صَوَّبَ باتِّجاهِ وجهِ كروغر، لا على يديه، بالرغم أن إحدى يديه كانت تحمل سكيناً استعداداً لطعنات سفلية.

تهاوى مايكل إلى الخلف طارحاً المقعد الطويل الذي كان يفصل بينهم، فتشبَّثَ بالطاولة، وأمسَكَ برشَّاشةِ الملح بيده؛ رماها بعنف فأصابَتْ صدر الرجل، تَتبَّعَ مايكل مسارَها. خَطَفَ المقعدَ واندفع به قافِزاً نحوَ خصمِهِ وصَدَّهُ به. سَقَطَ كروغر إلى الخلف ما إن تَرَكَتْ أقدامُ مايكل الأرض، قَبَضَ مايكل بإحدى يديه على عُنُقِ كروغر، وكانت الأخرى لا تزال تمسك بالمقعد وهو في مكانه. وبِكامِل ثقله قام مايكل بتثبيت الرجل على الطاولة، مُحْكِماً أصابِعَهُ على الشريان السباتي في رقبته، ففقد كروغر وعيه بسرعة، كانت مسألة ثوانٍ قليلة. تمكَّن كروغر من توجيه السكين نحو مايكل مرة واحدة فقط، لكنها ما لبثت أن سَقَطَتْ من يده أرضاً. أفْلتَ مايكل المقعد من يده فسقط أرضاً وبسرعةٍ خاطفةٍ قَبَضَ على ذراع كروغر ولواه على ركبته. كانت طَقْطَقَةُ تَكَسُّرِ العظم مسموعة بوضوح. ورغم أنَّني كنت قد دخلت حالة من الصمم بسبب

الأدرينالين، إلا أنّني سمعتُ ذلكَ الصوت بوضوحٍ تام. سمعتُ رَجْعَ صداه في أرجاء الحجرة ومن التلال المحيطة بنا.

لم يُضَيِّع مايكل أيّ وقتٍ لمُتابَعَةِ السجال. أشار إليّ، وَقَفَ بثبات، اقترب مني، وأخذ بمعصمي، وقبل أنْ أبدأ بتكوين فكرتي الأولى عما كان يجري، كنا كلانا في سيارة التويوتا مُنْطَلقين بسرعة، يقودها مايكل بكلتا يديه. وقال: «قُمْ بِلَفِّ ذراعي، لُفَّ ذراعي». كان ساعِدُهُ الأيمن ينزف بدفقات متزايدة من الدم. مَدَّ ساعده إزاء صدره نحوي، واستمر بقيادة السيارة بيده اليسرى. فَهِمْتُ أخيراً، وجدتُ منديليَ الكبير وقُمتُ بِلَفِّهِ حول الجرح الغائر الطويل الذي بان منه العظم الأصفر. ربطته بعقدة مربعة. «هذا سيحتاج إلى عدة غُرْزات»، كانت هذه ملاحظته الأولى منذ بدء المعركة. «هذا كثير بالنسبة لجنوب أفريقيا»، كانت ملاحظته الثانية.

*

أشار مايكل إلى فندق قصر النيل الأبيض عندما كنا نَمُرُّ بجانبه. «أريدكَ أن تعودَ بالسيارة إلى هنا بعد إيصالي إلى المستشفى».

«أين المستشفى؟»

«رأيت لافتةً تقولُ إنّه على بُعْدِ كيلومترين من هنا. سننحرفُ باتجاه اليمين. وبعد ذلك لا أعرف».

سـمِعْتُ رجرجـة العجـلات ونحـن نعبُـرُ جسـراً خشـبياً. كان أمامنـا رجـلٌ عجـوزٌ يمشـي، فقفـز علـى السـياج لإنقـاذ حياتـه.

«حسناً»، قلت. «لم أكُن ذا فائدةٍ تُذْكَر لك، أليسَ كذلك؟»

«لكن يا ناير، ما هذا الذي بين قدميك؟»

«يا إلهي» كانت حقيبته الحمراء.

«لقد قُمْتَ بجلبِ حقيبتي. أنتَ أنقذتَ أهَمَّ شيء. الشيء الثمين».

خـلال دقيقتيـن مـن الانحـراف يمينـاً وجدنـا المستشـفى؛ مُجَمَّـعٌ يتكـوَّنُ مـن بنايـات مـن الإسـمنت والطـوب تتكـون مـن طابـق واحـد، مستشـفى كنيسـة أوغنـدا كولوفـا، حسـب اللافتـة التـي كانـت فـي موقـع الحراسـة. أشـار الحـارسُ لنـا بالوقـوف وبـدأ ينظـر خـلال نوافـذ السـيارة، وعندمـا رأى الدمـاء، أشـار لنـا بالدخـول. «الممرضـة فـي طريقهـا إليكـم»، قـال. «تقدَّمـوا باتجـاه مبنـى غرفـة العمليـات الصغـرى».

كان بـاب المبنـى المُسَـمَّى غرفـة العمليـات الصغـرى مُغلقـاً. قَرْفَصَ مايـكل سـانداً ظهـره إلـى الحائـط، وأخـذ يُدخِّـن سـيجارة، بينمـا كان الـدم يَنِـزُّ ويَقْطُـرُ مـن الضمَّـادة مُشَـكِّلاً بركـة صغيـرة بين قدميـه. كانـت عينـاه ترقبـان، وكان يُشِـعُّ بطاقَـةٍ معينـة.

كان يبـدو، علـيّ القـول: بحالـةٍ أفضـلَ مـن حالتـي. وقفـتُ منتصبـاً، فقـط لأُثْبِـتَ أنـي قـادِر. «ليتنـي قمـتُ ولـو بحركـةٍ واحـدةٍ صغيـرةٍ مـن أجـلِ مسـاعدتك».

«لـم أكُـن بحاجـةٍ إلـى مسـاعدة. هـل سَـمِعْتَ طقطَقـةَ عظامِـه وهـي تتكسَّـر؟»

«يـا إلهـي. لـم أقُـمْ حتـى بقيـادة السـيارة بـدلاً عنـك. لطالَمـا عرفـتُ أنَّ نِسْـبَةَ الشـجاعة لـديَّ صفـر، بيـدَ أنَّنـي لا أُحِـبُّ أن يتـم تذكيـري بذلـك».

«لا وجـود لشـيءٍ اسـمه شـجاعة. إنَّهـا مسـألة تدريـب. أنـتَ تعلـم أنَّنـي لـم أقُـمْ بالتـدرُّبِ علـى القتـالِ دون سـلاحٍ وحسـب، أنـا مُـدَرِّب».

«ربما يتوجَّبُ عليكَ تدريبي».

«أُدَرِّبُـكَ لتبقـى إلـى جانبـي. ستُحْـرِزُ النصـر فـي معـارك أكثـر بهـذه الطريقـة».

مِـنْ خـلال مدخـلِ السـاحةِ الأماميّـة للمستشـفى، جاءَتْ سـيارةٌ مسـرعةٌ وتوقَّفـتْ بِحِـدَّة. مِـنْ مقعـد الراكـب الأمامـي، كان الرجـلُ الـذي يدعـو نفسـه كروغـر علـى وشـكِ السـقوط بيـن ذراعـي سـائِقه والحـارس. سَـحَبَ الحـارسُ الكرسـي مـن كوخـه وأَجْلَسَ كروغـر عليـه، ثـم قامـا، الحـارسُ والسـائق، الـذي لـم يَكـن الزولـو - بحمْلِـهِ علـى الكرسـي تجـاه مبنـىً آخـر؛ كان كروغـر بـلا قميـص، إذ إنَّهـم قامـوا بربْـطِ قميصـه حـول ذراعـه، وكان القميـصُ مُضَرَّجـاً تمامـاً بالدمـاءِ حـولَ سـاعِدِه.

لـوَّحَ لـه مايكل بسـاعِدِهِ المُصـاب. «لا أقصِـدُ جَـرْحَ مشـاعرِكَ، صديقـي، فـي المَـرَّةِ القادِمَـةِ سـوف أقتُلُـكَ».

شـقَّ كروغـر طريقَـه وتجاوَزَنـا فـي كرسِـيِّهِ بعينَيـنِ مُغلقتيـن، وبوَجْـهٍ بلـون الطَّبْشـور غيـرَ مُستَوعِبٍ لِما يـدورُ حولَـهُ. لـم يكُـنْ هنـاكَ أيّ أثَـرٍ لرفيقِـهِ فـي كلِّ الأنحـاء.

«لستُ أعرف بأيّ نوعٍ مِنَ الفوضَى نحنُ الآن»، قلتُ.

«أظنّ أنّنا سنكونُ أحسنَ حالاً في الكونغو الآن».

«كيفَ حَدَثَ كلُّ هذا يا مايكل؟ مَنْ كانت تلك الشخصيات؟»

«أنـا جدُّ متأكـدٌ مـن هـذا: لـم يكونـا مِـنَ الموسـاد. إنَّهُمـا ليسـا إلّا مُهَرِّجيـن يلعبـان علـى الحبـال».

«بعبارةٍ أخرى حَكَمَ عليكَ الموسادُ بالموت».

«لـو أرادَ الموسـادُ قتلـي، لكُنْـتُ الآن فـي عِـدادِ المقتوليـن. يعمـلُ الموسـادُ بشـكلٍ مُحْكَـمٍ للغايـة. يسـتخدِمونَ فِرَقـاً تتكـوَّنُ مـن سـتَّةٍ أو سـبعَةِ أشـخاصٍ يتدرَّبـونَ ويُخطِّطـون بـكُلِّ حَـذَرٍ، وينجَحـونَ فـي كلِّ مَـرّة. لا يسـتخدمونَ حمقـى ومُغفَّليـن يُهاجِمونَـك في مقهـى. هـؤلاءِ لـمْ يكونـوا إلا مُجرَّدَ شُـركاء، على شـاكِلَتي. ولكنِّـي أُصدّقهـم إلـى هـذا الحَـدّ، أعتقـدُ أنَّ الموسـاد أعطاهـم المـال. ولهـذا السببِ قـامَ ذلـك المُغفَّل الأحمق بسـحب السـكين. أرادوا الاحتفـاظ بالمـالِ لأنفسـهم».

«لقد انتهت هذه الخِدعة»، قلت. «انتهت، اتَّفقنا؟»

«موافق».

«لأنَّني أنزَعِج عندما أخوضُ بأفكارٍ غبيّة».

«أنتَ مُنزَعِجٌ الآن. أرى ذلك. لا بأس».

«ليتَني أمْلِكُ نَصّاً مكتوباً للحواراتِ التي قادَتْ إلى كُلِّ هذا»، قلت. «الحواراتُ التي دارَتْ بينكَ وبينَ أولئكَ الأشخاص. أجْزِمُ أنَّني أستطيع إطْلاعَكَ على عشراتِ الأشياءِ التي تُثبِتُ بوضوح - بوضوحٍ تامّ - أنَّهم كانوا يُخادِعونَك».

«في نهايةِ المَطافِ، عليكَ بمُطاوَعَةِ غريزتك».

«إنَّكَ تمنح الآخرين كثيراً من الثِقَة، كثيراً جداً جداً».

«هل هذا حقاً خطأ؟»

«ماذا؟ بالتأكيد. خطأٌ قاتِلٌ. الحياةُ التي تعيشُها، الأشخاصُ الذين تتعامل معهم - هل تظُنُّها مُجرَّدَ دُمىً لِدِبَبَةٍ تحمِلُ المارشمِيلّو؟»

ضَحِكَ على كلامي.

تمنّيتُ لو يقومُ كروغر بطَعنِهِ مرَّةً أخرى: «إنك تَثِقُ بالأشخاصِ الخطأ»، قلت. «صدِّقْني».

*

تمَّ إنشاءُ هذا المستشفى عام 1848، بحسب اللافتةِ الموجودةِ على المدخل. وكان ذلك للمُصابين بالجُذام في الأصل، حسب ما قالتهُ ممرضةُ مايكل التي أحضَرَت أدوات

خياطَـةِ الجـروح والمعـدّات الأخـرى علـى صينيـة. لـم يَصِـل أيّ طبيـب. قامـتْ الممرضـةُ بتقْطيـبِ الجـرح بنفسـها. «سـنقومُ بإغـلاق التمـزُّقِ علـى مرحلتيـن، خِياطَـةُ الطبقـةِ الداخليّـة، ثـم الطبقـةِ الخارجيّـة»، قالـتْ لمايـكل. «إنَّـهُ جـرحٌ عميـق».

«كم سيستغرِقُ هذا في ظَنِّكِ؟»، سألتُها.

كانـت تقـوم بمَسْـحِ الجُـرحِ مـن الداخـل بماسِـحَةٍ قُطنيـة. «يجب أنْ تكـون الغُـرَزُ قريبـةً جـداً بعضِهـا مـن بعـض». استنتَجتُ مِـنْ هـذا الـكلام أنَّ الأمـر سـيتطلَّبُ إجـراءً مُطَـوَّلاً.

«لو كان لديَّ بعضُ الماءِ، لرُبما قُمتُ بغَسْلِ السيارة قليلاً».

«يوجـدُ جَـدولُ مـاءٍ هنـاك»، أشـارَتْ بذَقنهـا، «يجـري خلـف غرفـة الموتـى».

«أين الطبيب؟»

«الطبيبُ مريض».

تـرك الحـارسُ واجِبَـه وجاءَنـي بِدَلْـوٍ ثـم قادَنـي باتجـاهِ الجـدولِ خلـف غرفـة الموتـى الصغيـرة المبنيـة مـن الطـوب، والتـي كانـت تخـرج مـن النافـذة في أعلـى بابِهـا رائِحـةٌ كريهـةٌ تنتشـرُ فـي أرجـاءِ المسـاء، لكـن، كمـا يبـدو، لـم يكُـن ينتبـه لهـا أحـد. حملـتُ الدلـو جيئـة وذهابـاً حتـى أغرَقْـتُ أرضِيّـاتِ السـيارة بالمـاء وحـوَّلْتُهـا مـن فوضـى حمـراء فاقِعـة إلـى فوضـى ورديّـة باهِتـة. ثـم دُرْتُ حـول السـيارة مُختلِسـاً النظـرَ إلـى داخِلِهـا خـلال النوافـذ. فـي غرفـةٍ

خرسانيةٍ قذرَةٍ خلفَ بابٍ مكتوبٍ عليه جناح الولادة، رأيت مُهاجِمَ مايكل، الأبله الذي سحب السكين، اسمه الحقيقي غير معروف، مُمَدَّداً عارِياً على فَرْشَةٍ فوق سريرٍ معدنيّ. كان الوحيدَ في تلكَ الغرفة، مُلقىً على سريرٍ بين عشراتِ الأسِرَّةِ المُماثِلةِ الفارِغة، المريضَ الوحيدَ في جناحِ الولادةِ. كان له وجهٌ دائريٌّ بسيط، وكان يتنفس من خلال فمه. كان ذراعه ملقى إلى جانبه، وما زال مُضَمَّداً بقميصِه.

كانت ممرضة مايكل، عندما رَجَعْتُ إليهم، تتلقّى مُساعَدةً من قِبَلِ فتاةٍ صغيرةٍ تلبسُ تنورة خضراء وبلوزة بيضاء، زِيَّ المدارسِ المحلِّيّة. تم إيقافُ العملِ على ما يبدو على الجرح خلال حديث مايكل مع ضابِطِ شُرطَةٍ بِزِيٍّ ضَيِّق، كُلُّهُ، حتى الجزمة والحزام والخوذة، باللونِ الأبيض الناصع. أعطتهُ عدساتُه الشمْسيّةُ الواسِعةُ وجهَ حشرةٍ فضولية.

«الضابط كادريبو يقوم بإعْدادِ تقرير».

«آه»، قلت. «جيد».

«صديقي رولاند»، قال لنا جميعاً. «سيقومُ بإحضارِ خطيبتي. هل رأيت الطريق؟ ستخرُجُ من خلال البوابةِ إلى الشارع، ستنحرِفُ يساراً ثم يميناً، عندها ستجِدُ نفسكَ على الطريق الرئيس».

«شارع هانينغتون»، قال الضابط كادريبو.

قال له مايكل: «إنَّنا ننزِلُ في فندق قصر النيل الأبيض. سنلتقي بكَ هناك في وقتِ العشاء، اتَّفقنا؟ الحادِثُ لا يستحق الذِّكر، ولكنْ عليكَ أنْ تُعِدَّ تقريراً، نحنُ نَتَفَهَمُ ذلك. دَعْنا نجعل من هذا مُناسَبَةً. سنشتري لك عشاءً». جَذَبَني مايكل من كَتِفي نحوَهُ بيده السليمة. «اذْهَبْ إلى الفندق، اجْمَعْ أشياءَنا، وأحضر دافيديا. سَلِّمْ الغرفَ وارْجِعْ إلى هنا».

ومن أجلِ مُبادَلته الحديث، قلتُ: «كيفَ أصبح جرحُكَ؟»

«نحنُ بانتظارِ المزيد من السنتيميترات من الزيلوكايين»، قالت الممرضة.

قال مايكل: «حاولنا إكمال الأمر دون ذلك، لكن يا إلهي، شيءٌ مؤلِمٌ جداً! لا أستطيع إبقاءَ ذراعي ثابتة».

بدأ مايكل والشرطي بالتحدث بلغة الكريو أو باللغة المحلية، اللوغبارا، بشكلٍ أسرع وأسرع، وتضاحكا، ثم شرعا بتبادل ملاحظاتهما بِلَهجاتٍ مُتَدَنِّيَة المُستوى.

وأنا أَهُمُّ بمُغادرَتِهم، قال مايكل: «تَذَكَّرْ أَنَّكَ تسوقُ على الجهة اليُسرى من الشارع».

*

لم يَكُنْ حَزْمُ الأمْتِعَةِ شيئاً، ثلاثةُ غياراتٍ مِنَ الملابس، والآن نقَصَتْ الغياراتُ واحِداً، إذ قمتُ بإلقاءِ سروالي وقميصي المُلطَّخينِ بالدم في سلة النفايات. اتصلتُ بمكتبِ

الاستعلامات وسألتُهم عن كيفيّة الاتصالِ بغرفةٍ ما في الفندق، فأخبروني أنهم سيقومون بتحويلي إلى الغرفة المطلوبة.

هنا، كما في غرب إفريقيا، يتمُّ الرَّدُّ على الهواتفِ الأرضيّةِ بقول: «هلو»، ثم إبعاد سماعة الهاتف عن الأذن والنظر إليها في حالةِ صَمْتٍ، ثم إرجاعِها إلى الأذُنِ قليلاً لسماعِ مزيدٍ مِنَ الصَّمْت.

«قلتُ: إنَّني ناير».

«ناير. أسْمَعُك. أين أنتَ؟»

«في غرفتي».

«تفضّل».

«هل تستطيعين تَحَمُّلَ الأشياءِ التي أصبحت وتيرتها أكثر حدَّةً وتسارعاً بعض الشيء؟»

«ماذا تقول؟»

«حسناً ـ إننا سنغادر المكان ليس إلّا. هلّا قُمْتِ بحزمِ ملابسك وأغراضك خلال الدقائق القليلة القادمة؟ سأساعِدُكِ في حَمْلِ كلِّ شيءٍ إلى الجيب».

«ما الذي يجري؟ ماذا حدث؟»

قام مايكل بتقديمِ الجدول الزمنيّ قليلاً، هذا كلُّ ما بالأمر».

«قام بتقديمِهِ. أيّ جَدْولٍ زمنيٍّ؟»

«يتوجَّبُ علينا فعلاً أنْ نُغادِرَ خلال الدقائقِ القليلةِ القادمةِ».

«يا الله. يا إلهي. ربّاه. هل مايكل عندكَ؟ دَعْني أتحدَّثُ إليه».

«إنه يقومُ بترتيبِ بعضِ الأمورِ العالِقة. سآتي إليكِ حالما أنتهي مِنْ حَزْمِ أمتِعَتي».

«ناير، هذا سخيف. لنْ أذهبَ إلى أيّ مكان».

«إذن على الأقل قومي بِحَزْمِ أمتعةِ مايكل له، هَلّا فعلتِ ذلك رجاءً؟ أنا قادمٌ إلى غرفتك. سأراكِ بعد بضع دقائق».

عندما طَرَقْتُ البابَ، قالت: «إنَّه مفتوح». وجدتُها جالِسَةً على طرف السرير. كانت تلبَسُ كلَّ شيءٍ عدا حذائها.

لم ألحَظْ أيّ دليلٍ على قيامِها بِحَزْمِ أيّ شيء. «هل تُمانِعين إنْ قُمْتُ بإغلاقِ الباب؟»

أشارَتْ بيدها إشارةً صغيرة، فأغْلَقْتُ البابَ علينا وقلتُ: «سنستأنِفُ رِحْلَتَنا».

«لا أظنّ ذلك».

«إنْ ذهَبْنا بالأساس، فإنَّهُ يتوجَّبُ علينا فِعْلاً أن نفعل ذلك بسُرعةٍ نوعاً ما».

«أنا لا أمزح. لا أستطيع تَحَمُّلَ ذلك».

«حسناً. سيارة اللاند كروزر معي، وإذا كنا سنذهب، فهذا هو الوقت».

«أين مايكل؟»

«تركْتُهُ يتشاوَرُ مع بعضِ أصدقائِه. سنتوقَّف ونحمِلُهُ مَعَنا». لمْ تتحرَّكْ. «أنا سائِقكِ الخاص». لم تُحَرِّك ساكِناً، ولا حتى يديها. «أعْتَذِرُ إنْ كانت هذه الأخبارُ مُفاجِئَةً». «إذن خُذْ هذا الخبر»، قالت. «كلماتُ أغنية «ابتسم» تَمَّتْ كتابَتُها مِنْ قِبَلِ شخصين لم يسبِقْ لي أنْ سمِعْتُ باسمَيهِما: تيرنر وبارسونز».

كان يبدو لي أنَّ لديهِما حقيبتين جلديتين وحقيبتي ظهر «ماذا لو قُمْنا بوَضْعِ جميعِ أشيائك في الحقائب؟» أخذْتُ بعضَ القمصان المعلَّقةِ على الشمّاعَة. «هل تُريدين العلّاقات؟ لنترُكها هنا».

«أما اللَّحْنُ فقد تمَّتْ كتابته مِنْ قِبَلْ تشارلي تشابلن لفيلمِهِ «العصورُ الحديثة» سنة 1936».

توقَّفْتُ عن العَبَثِ بالأشياء. «كيفَ اكتشَفْتِ هذا؟»

دخلتُ إلى الإنترنت في مكتبِ المدير، كان الأمر يَشغل بالي حَدَّ الجنون. كنتُ أظنّ أنَّهُ ربما كان إيرفنغ بيرلن، وكنتُ أميلُ إلى إيرفنغ بيرلن أكثر، لا أعرف لماذا. أظنّ لأنَّني أحببتُ هذا الاسم على الدوام».

«فهمتُ. هل كان لديكِ فرصةٌ لمتابعةِ بريدِكِ الإلكترونيّ عندها؟»

«لا. مايكل لا يُريدُني أنْ أفعلَ ذلك. أنتَ تعلم بهذا».

«هل قُمتِ بالتواصلِ مع أيّ أحد؟»

«لا. قلت لك للتو لا!»

«صحيح. فقط كنتُ أتساءل».

«هل هذا من شأنك؟»

«ذلك هو الشأن دافيديا. شؤوننا اختلَطَتْ بعضها مع بعض الآن. شؤونكِ وشؤوني. آمَلُ أنْ تعي ذلك. إذا أدْرَكْتِ ذلك، فإنَّ هذا الأمر سيُصبِحُ أسهلَ بكثير».

«ما الذي؟ ما الذي سيُصبِحُ أسهل؟»

«هل أستطيع أخْذَ كرسيٍّ لأجلِسَ عليه؟»

«إنَّكَ تأخذُ أشيائي. فما المانِعُ في أخْذِكَ لكُرسيٍّ أيضاً؟»

جَلَسْتُ. «هناكَ أشياء كثيرة لم تكوني على دِرايَةٍ بها. لا يوجد أشياء تَحْدُثُ بغتة هنا. كل ما بالأمر أنَّه تَمَّ الكشفُ عن المزيد. انتظرتُ هنيهة لبلوَرَةِ أفكاري. لا أدري لماذا. تَخَيَّلْتُ أنَّني أقول لها هذه الأشياء مرّاتٍ عديدةٍ. «نحنُ نتحدَّثُ عن كيفيّة تغيّر العالم منذ سقوطِ البُرجَين التوأم. إخالك تستطيعينَ وبسهولةٍ الحديثَ عن الجُزءِ الأكثرِ تَغَيُّراً في عالَمِ الاستخبارات، والأمْنِ والدِفاع. تقومُ القوى العالميّةُ بإفراغ خزائِنها في نُسخةٍ مُوَسَّعَةٍ مِنَ اللّعبَةِ الكبرى القديمة. الأموالُ، ببساطة، لا حَدَّ لها، وكثيرٌ منها يذهبُ في عملياتِ الوِشايةِ والتجسُّسِ. لا يوجدُ رُكودٌ وكَسادٌ في ذلك المجال».

«ذلـك المجـال؟ مجالُـكَ أنـتَ. مِـنَ الواضِـحِ أنَّـكَ لا تعمـلُ فـي بنـكٍ مـا. كان هـذا واضحـاً منـذ البدايـة. أنـت فـي وكالـة المخابـرات المركزيـة».

«تباً. أنـا يـا سيدتي لستُ في هـذه الملعونـة التي تُسَمَّى وكالة المخابرات المركزية. لا تُقحِميني في ذلكَ الشيء».

بَـدَتْ كأنهـا تريدُ الحديث، ولكنَّهـا توقَّفَـتْ. نهضْتُ وجلسْـتُ بجانِبِهـا على السـرير.

«إنَّكَ تقتربُ منِّي كثيراً».

اقترَبْـتُ أكثر. «في حقيقةِ الأمر أنتِ مُحِقَّـةٌ في جزءٍ مما قُلتِ. فأنـا لا أعمـلُ لـدى بنك. مـا زلـتُ أعمـلُ لـدى استخبارات الناتـو. وأنـا هنـا في واجِـبٍ، في الواقـع. والواجِـبُ هـو مايكل أدريكـو».

«ماذا؟ لماذا؟»

«مايكل في ورطة».

«أوه، بالله عليك. ما الذي قام بِفِعْلِه؟»

«قـد يخـرجُ منهـا سـالِماً. أنـتِ تعرفيـنَ مايـكل. ولكـنْ أظـنّ أنَّـه حَـرِيٌّ بنـا أنْ نخـرُجَ منهـا نحـنُ أوّلاً. أنـتِ وأنـا».

«أنتَ وأنا؟»

«سأرْحَلُ وحدي، وأرى أنَّه مِنَ الأفضلِ لكِ أنْ تُرافِقيني».

«لأجْلِ ماذا؟»

«لأجلِ أيّ شيءٍ يستَحِقُّ ذلك».

«كم مَنَ الوقتِ سيستغرِقُ ذلك؟

«طالما ظلَّ الأمر مستمراً».

«ما الذي طالما ظَلَّ مُستَمِراً؟»

«دعيني أُخْرِجكِ من هذا؟»

«إلى أين؟»

«نعودُ إلى فريتاون. كَبِداية».

«لماذا؟»

«لديَّ عملٌ هناك. أستطيع ترتيبَ أمورنا هناك».

«ناير، ليس بيننا شيء».

«تعالَي هنا. هيّا اقترِبي».

«هل أنتَ مجنون؟ توقَّفْ عن مُلامَستي».

كانَ عليّ التوقُّف وإلا لَمَا استطعْتُ مُواصَلةَ الحديث. سَلَبَ مَلْمَسُ جسدِها أنفاسي مِنِّي. «عَرفْتُ مايكل منذ اثنتي عشرة سنةٍ تقريباً. وطوالَ هذا الوقت كنتُ دوماً أعتقدُ أنَّني مُتَيَّمٌ به، ولكنِّي كنتُ على خطأ. طوال هذا الوقت كنتُ متيّماً بكِ أنتِ. أنتظرُ بكلِّ شغفٍ أنْ تُصبِحي واقِعاً، أنتظِرُ مايكل ليقوم بإخراجِكِ، واستِحضارِكِ، بإحضارِكِ، وجلْبِكِ».

«يا إلهي»، قالت: «إنك تَعْمَلُ على تعقيدِ الأمورِ بشكلٍ

مُستحيلٍ. إنّـكَ تجعَلها مُستحيلَةً. لماذا يتعيَّنُ عليك أنْ تكونَ مجنوناً أيضاً؟» وقفَتْ وبَدَأتْ تُكَوِّمُ الأشياءَ على السرير. «ما هي خُطَّةُ مايكل؟ إنْ كان هناك خُطَّة».

«إنَّه سيذهب إلى الكونغو».

«ألَنْ تذهبَ أنتَ أيضاً؟»

«هذا يعتَمِدُ عليكِ».

«أظنّ أنَّه مِنَ الأفضَلِ ليَ الذهاب».

«أظنّ أنَّه مِنَ الأفضَلِ لنا أنْ لا نذهب. لا وُجودَ لأيِّ قانونٍ هناك. وليسَ للحُكومَةِ أيّ نُفوذٍ. الشرطةُ، والجيشُ، وأربابُ الحروبِ المُخْتلُّونَ عَقْليّاً، كُلُّهم يتناوَبونَ على سَرِقَةِ أيّ أحد غير مُسلَّح».

«إذن لماذا لا تَتْرُكُنا الآن؟»

«لأنَّني لا أستطيع. لا أستطيع تَحَمُّلَ ذلك. لن أذهبَ بدونِك».

«اخرَس. هذا فظيع».

«بمُجرَّدِ أنْ تُلْقينَ نظرةً على المكان، سترغَبينَ بالذهابِ معي».

«أنا ذاهِبةٌ مع مايكل. خُذني إلى مايكل».

«سآخُذُكِ إلى حيث تُريدين».

«أنا جاهزٌ لذلك. لا أستطيع الاختفاءَ في حالةٍ كهذه. عليّ الانتظارُ ريثما يـ ... وَضْعُ مايكل ... يستقرُّ أو ... أو على الأقل يتَّضح».

وضَعَتْ دافيديا حقيبةً على السريرِ وبَدَأتْ بِمَلئِها كما لو أنَّها حُفرَةٌ.

«انتظري لحظة. إذا سَمَحْتِ. هل تُوافِقين؟» لم تتوَقَّف، واستمَرَّتْ بِحَزمِ الأشياء. «دافيديا. لم أقصِد إخافَتكِ».

«حسناً، أنتَ أرعَبْتَني فِعلاً. أنا خائِفةٌ.. منكَ».

«لقد تصرَّفْتُ بجنون. ولا أُريدُكِ أنْ تُصبِحي مجنونةً أيضاً».

«لقد فاتَ الأوان».

«هل أجبَرْتُكِ على هذا القرار؟ لأنَّني لم أقصد أنْ أحْصُرَكِ في الزاوية. انتظري لحظة». لَمْ تتوقَّف. «توقَّفي عن حزْمِ الأمتعة لثانيةٍ واحدة».

«أنا ذاهبةٌ مع مايكل الآن. وأظنُّ أنَّه مِنَ الأفضلِ لكَ أنْ تأخُذَني إليه».

«هل أنتِ متأكدة؟ أمتأكدةٌ أنتِ من ذلك؟»

«نعم».

«حسناً، لا بأس. امنَحيني دقيقةً واحدةً فقط. انْظُري إليّ». جَلَسَتْ. «ما كانَ يتوجَّبُ عليّ قولُ ما قلته».

«أتّفِقُ معكَ».

«أنا مجنونٌ».

«قلتُ ذلكَ أوّلاً».

«إذن نحنُ مُتَّفِقانِ على ذلكَ أيضاً. لذلك هل مِنَ المُمكِنِ أنْ نُبْقي كلَّ هذا في طيِّ الكِتمان؟»

«طيّ الكِتْمان؟»

«لا تُخبِري مايكل».

«وعدتُ مايكل بأنْ لا أتَحَدَّثَ إلى أحد، والآن أعِدُكَ بأنْ لا أُخبِرَ مايكل، هل هذا ما ترمي إليه؟»

«دعيني أكون مَنْ يعتَرِفُ له بكلِّ شيء، هذا كل ما في الأمر».

«متى؟»

«ليسَ على الفور».

«كم ستستَغرِقُ خِيانَتي له، إذن؟

«لن تستغرِقَ وقتاً طويلاً».

«كم بالتحديد؟»

«يومينِ على وجهِ التحديد».

«ثمانياً وأربعين ساعةً؟»

«نعم هذا صحيح».

«وُعودٌ لهُ، وُعودٌ لكَ، كلُّ شيءٍ بالخِفْيَةِ عن الآخرين. هذا ما نُسمِّيهِ ظَرْفاً». بَدَتْ كأنَّها ترى في الأمر فُكاهَة.

*

حتى نكونَ مَرئِيينَ أكثر للآخَرينَ، قُمْتُ بإِضاءَةِ الأنوار الأماميّة للسيارة. لم يفعل أحد مثلَ ما فعلتُ، ولم تَتَنَحَّ عن طريقِنا أيّة من الدرّاجاتِ أو المركبات.

قالت دافيديا: «هذا دم، أليسَ كذلك؟ هل إصابَتُهُ بليغَةٌ؟»

«احتاج إلى عَدَدٍ مِنَ الغُرَز».

«أين المستشفى؟»

«في الواقع إنَّهُ خلفَ ذلكَ الشارع».

«ولماذا تذهبُ في هذا الطريقِ إذن؟»

«للقيامِ بِمَهمَّتين عاجِلتَين».

نظراً لهذه الظروفِ، قُدتُ السيارةَ بسرعةٍ فائقةٍ. كانت الساعةُ تُشيرُ إلى الرابعةِ بعد الظُّهرِ تقريباً. لمْ تكُنْ لديَّ أيّة فِكرَةٍ عن وقتِ انتهاءِ ساعاتِ العمل في المركز الكاثوليكيِّ للاتصالات. ورغم ذلك توقَّفْتُ عند كشكِ تاجرٍ وابتَعْتُ كلَّ ما لديهِ مِنْ عبوات العصير الصغيرة. ثم توقَّفْتُ عند بائعٍ آخر، وفعلتُ ذاتَ الشيءِ. ومع ذلك، كانت الكميَّةُ التي تجمَّعت لديَّ أقلّ من لترين. قبل مغادرتي الفندق،

كانَ من المفروضِ أنْ أقومَ بِشراءِ أكبر زُجاجةٍ من العصير. لكنَّني نسيت.

في طريقنا إلى أعلى المُرتفعِ في وسط آروا أوشَكْتُ على التوقُّفِ لعمليَّةِ شراءٍ أخرى، إلّا أنَّ منظرَ الأبراجِ أغواني في الاستمرارِ بالقيادةِ. «سأتوَقَّفُ هنا للذهابِ إلى مكانٍ يُقدِّمُ خِدمَةَ الإنترنِت»، قلتُ لدافيديا. لم تَقُلْ شيئاً.

على جانبِ الشارع المُقابِلِ للبوّابات، أطْفأتُ المحرِّكَ وأعَدْتُ ما قلتُ لها مرةً أخرى. «إذا كان لديكِ مَنْ تودِّين التواصُلَ معه، هذا هو المكانُ لِفعلِ ذلك».

«اسْتَعْجِلْ فقط. إنَّني قَلِقَةٌ بشأنِ مايكل».

«تستطيعينَ الانتظارَ مع الحارس».

«أنا بخيرٍ هنا».

عندما نزَلْتُ من السيارة ذَهَبْتُ إلى نافِذَتِها. لم تَقُمْ بإنزالِ الزجاج. «هل ستكونين بخير؟»

«هل سأكون؟»

«إذا شعرتِ بعدمِ الارتياح، أقفلي الأبواب».

سمعتُ إقفالَ الأبوابِ حتى قبل أنْ أُديرَ ظهري.

كان لديَّ رسالتان إلكترونيّتان؛ الأولى من حامد.

عرضٌ حازِمٌ ونهائيّ، 100 ألفِ دولارٍ أمريكيٍّ عَدّاً ونَقْداً

لكَ. إذا كانَ جوابُك نعم، لِنَلْتَقِ بنفسِ المكان ونفس الساعة. يحتاجُ المبلغُ وقتاً لتجهيزِهِ.

نصيبُكَ 100 ألفِ دولارٍ أمريكيٍّ. عَرْضٌ أخير.

أعجَبَني الرقم ولكن لم يُعجِبني الرقم اللّاحِق:

لِنَلْتَقِ بعد 4 أسابيع من لقائِنا الأخير .. ليس 30 يوماً. 4 أسابيع بالضّبط. لا تَراجُع. فرصةٌ واحِدَةٌ فقط.

من ناحِية، تَمَّ تحديدُ المبلغ، وكان المبلغُ جيِّداً. ولكن مِنْ ناحيةٍ أخرى قامَ حامد بِسَلبِ يومين من التقويم. أغمَضْتُ عينيَّ وشَرَعْتُ بتأليفِ جوابٍ شافٍ بعَرْضٍ مُقابِل، ثم قُمْتُ بإخمادِهِ. لمْ يكُنْ لديَّ ما أعرِضُه.

فتحتُ الرسالةَ الإلكترونية الثانية: عِدَّةُ مئاتٍ من الكلمات الغاضِبَةِ من رئيس في استخبارات الناتو. وقبلَ أنْ أُكمِل قراءَةَ نصف الرسالة، قمتُ بحذفِها.

بدأتُ بالطَّرقِ على لوحةِ المفاتيح: «هلو، أيها القَذر الأبله. هل ما زلتَ بانتظارِ تقريري؟ تستطيعُ أنْ تنتظرَ حتى تبدأ جهنَّم بتقديمِ المياهِ المُقدَّسةِ».

ضغطتُ على زر «احذف».

ومرَّةً أخرى بدأتُ بالضربِ على المفاتيح، هذه المَرَّة بشكلٍ مُطَوَّل:

هــلّا تفضَّلتُـم بإخبـاري أيُّهـا البُلَهـاء، عَمّـا يفْعَلُـهُ رجـل الاسـتخبارات العسـكرية البريطانـيُّ فـي فندقـي؟

هـل يُمكِنُكـم أيُّهـا الأوغـاد إيضـاحُ تَـوَرُّطِ الموسـاد فـي ـ مـاذا علينـا تَسْـمِيتُهُ ـ فـي هـذا الشـأن؟ تَحَـرٍّ؟ مُداهَمـةٌ سـريعةٌ؟

اذهَبوا كلُّكُم جميعاً للجحيم. وسببته بعبارات شنيعة.

أنـا أحمِـلُ رُتبَـةَ كابتـن فـي الجيـش الدنماركـي. مـا علاقَـةُ كلّ هـذا بالدنمـارك؟ مـا علاقـةُ كلّ هـذا بـي أنـا؟

لمـاذا وضَعْتُمونـي فـي وَضْـعٍ كان مِـنَ المُمكِـن أنْ يـودي بحياتــي؟

لثـلاثِ ثـوانٍ، أربـعِ ثـوانٍ، خمـسٍ، حوَّمْـتُ بإصبَعـي فـوق مفتـاح الحـذف، ثـم ضغطـتُ علـى أرسِـل.

خرجـتُ مِـنَ الحسـاب. شـبَكْتُ لوحـةَ مفاتيحـي ودَخَلـتُ إلـى موقـع الـتشفير عالـي الخصوصيـة (بـي جـي بـي)، وقمـتُ بالـرَدِّ علـى حامـد:

بِيعَتْ.

III

(15 أكتوبر، الساعة 11:00 مساءً)

لقد رأيت في التَوِّ ضوءاً في الأمام، أم أنَّ أحَدَ الأوعِيَةِ الدمويَّةِ الشعرية في دماغي قد انفجرت! وهذه ليست واحدةً من تلكَ المُحاولاتِ البائِسةِ من أجلِ توضيحِ «كيفيَّةِ وُصولي إلى هذه الفوضى»، ولكن لا فائدةَ مِن وَصْفِها بالفوضى إلا عندما نرى ما ستَؤولُ عليهِ الأمور كلها. أحياناً تَجِدُ نفسَكَ فجأةً في ورطة؛ ولكن هذه هي إفريقيا، ثم تعودُ إلى طريقِكَ مرة أخرى دون أن يتَشَكَّل لديك أي فكرةٍ عمّا جرى، ولكن هذه أفريقيا أيضاً. وماذا لو أعطوكَ قلماً وورقةً وأنتَ عالِقٌ في مشكلة؟ فأنتَ، من المحتمل، أيضاً في ورطة، ودونَ أن تعرف أيَّ شيءٍ عن حقيقةِ ما يجري.

سبَبُ عدمِ امتلاكي لجهازِ حاسوبٍ ليس لأنَّهُم صادَروهُ مِنِّي؛ بل بسبب أنَّنا، مايكل ودافيديا وأنا، ونحن في طريقِنا إلى حدود الكونغو في سيارةِ اللاند كروزر التي كان مايكل قد استعارها من بيئة إدارة الهرم، عِلماً أنَّها الآنَ قد سُرِقَت، برِفْقَةِ مُرشِدِنا، أو مُحَرِّضِنا، وهو رجلٌ من الكونغو لم أستَطِع التِقاطَ اسمِهِ. أوقَفَ مايكل السيارة على جِسرٍ فوقَ أحَدِ روافِد نهرِ

النيل الأبيض، وقالَ: سوف نقومُ بِرَمـيِ ما معنا من وسائِلِ اتصالاتٍ هنا، وقامَ بِقَذفِ هاتِفِهِ من النافذة، ثم ألقَت دافيديا بهاتِفِها أيضاً. أمّا أنا فقد كنتُ سعيداً وأنا أتخلَّصُ من كُلِّ شيءٍ (رغم أنَّه لم يَكُن بالإمكانِ تَعَقُّبُ حاسوبي المحمول ولوحة المفاتيح الثانية عن طريق نظام تحديد المواقع الـ (جي بي أس)، وكان هاتفي النقَّالُ مُستَبدَلاً، لكنِّي لم أكُن أريدُ تَحَمُّلَ عِبء حَمْلِها، هذا كلُّ ما كان في الأمر). كان وقت الغروب، وكان الناسُ أسفلَ مِنّا يقومون بِغَسلِ سياراتِهِم في الماءِ العَكِرِ، وكان السائقون يعملون على رَشِّ الأتربَةِ الحمراء عن سياراتِهِم السوبارو المُنَقَّرَةِ المُتهالِكَة؛ كانت سياراتُهُم في حالةٍ مُزرِية. قالت دافيديا شيئاً واحداً فقط: «إلى متى ستَحْتَفِظُ بهذه السيارة؟» و«ماذا؟» «متى يتَعَيّنُ عليكَ إرجاعُ هذه السيارة؟» «أوه.. في الأمرِ مُرونَة»، قال مايكل بابتسامةٍ عريضة، وكأنّهُ يَصِفُ لنا فَمَهُ «الوضعُ مَرِنٌ جداً».

صديقي وصديقُكِ مايكل أدريكو وخطيبَتُهُ دافيديا سانت كلير. تعلَمينَ أنَّني ذهبتُ إلى فريتاون لمُطارَدَةِ مايكل. وقد وجَدتُهُ بحالةٍ جيدة، يضعُ ذِراعَهُ بذِراعِ دافيديا. سأخبِرُكِ عمَّا تَبَقَّى من القِصَّةِ عندما يسمحُ لي الوقت بذلك. بعبارةٍ مختصرةٍ، أستطيعُ القولَ: إنَّ حماسَةَ مايكل جعلتنا نغادِرُ أوغندا بسرعة من أجلِ جمهورية الكونغو الديمقراطية في الثالث عشر من

أكتوبر، أي منذ يومين فقط. قَفَزنا من فريتاون إلى شمالِ غربِ أوغندا، إلى بلدَةٍ تُسمَّى آروا، فيها تلقَّيتُ مِنكِ آخِرَ بريدٍ إلكترونيّ، وآخر مرَّة رأيتُ صورتك وأنت متأنقة. كم أتمنّى لو أنَّني كنتُ قد حَمَّلتُها على الحاسوب ... وفي وقتٍ سابقٍ، في مستشفى كولوفا في آروا، بعدما تَمَّت عمليةُ تقطيبِ جرح مايكل، إثْرَ إصابَتِهِ في عراكٍ خاضَهُ، ولا طائلَ من شَرحِهِ الآن، كان قد جنّدَ مُرشِداً ليُرينا ثَغرة في الحُدود، لأنَّنا جميعنا لم نَكُن نملِكُ أيَّةَ وثائقَ تَخُصُّ الكونغو. عندما وصلنا، دافيديا وأنا، إلى المستشفى، قدَّمَ لنا مايكل هذا الرجل، وكان قصيراً وصغيرَ الحجمِ ونحيفاً، وكان يرتدي سروالاً أزرقَ اللونِ وقميصاً مطبُوعاً عليه عبارة «ماذا فعلتُ الليلة الماضية؟» طَلَبَ مِنِّي مايكل إعطاءَهُ مائة دولار. فقلتُ له: ليس قبل أن يقومَ بإدخالِنا إلى الكونغو. فأجابَني مايكل: هذا جيد.

كان النهارُ قد غابَ تقريباً عندما وصلنا قُرْبَ الحدود، وهو ظرفٌ ملائمٌ لِمَن يُريدونَ تهريبَ أنفُسِهم. مَرَرنا بين بساتين أشجارِ الأوكاليبتوس[1] الطويلة، وكان مايكل يقودُ السيارة كأحَدِ الأفارِقَة بشكلٍ سريعٍ على أرضٍ ترابيَّةٍ حمراء، بسرعةِ 90 أو 95كم/ س معظم الوقت، مُثيراً الرُّعبَ لدى قائدي

(1) الأوكالبتوس أو اليوكاليبتوس (بالإنجليزية: Eucalyptus)، تعرف ببلاد الشام بالكينا وبمصر بالكافور، هي جنس من الأشجار ينتمي للفصيلة الآسية.

الدراجـات علـى جَنَبـاتِ الطريـق مـن خـلال إطـلاقِ زامـور سـيارته، فقـد كان يسـتخدمُ الزامـورَ أكثـرَ مِـن المَكابِـحِ، مُهمِـلاً الأطفـالَ والماعِـزَ والبَـطَّ والشـاحنات القادِمَـةَ نحوَنـا والباصـات التـي كانـت تبـدو بحمولتهـا الزائـدةِ علـى الطريـق مائِلـةً ومرتكِـزةً علـى عجلتيـن فقـط، وكذلـك النسـاء اللواتـي كـنَّ يَسِـرْنَ علـى الشـارع وهُـنَّ يضعـن أحمـالاً علـى رؤوسِـهِنَّ، غالبـاً أَجْرانـاً مَليئَـةً بـ «النمـل الأبيـض»، نَمْـلٌ أبيَـضُ بِطُـولِ سـنتيمتر للواحـدة، يَقُمْـنَ ببيعِهـا فـي السـوقِ كوَجَبـاتٍ خَفيفَـةٍ. لـم أُجَرّبهـا قَـطّ. ولكـن ممّـا يبعـثُ الراحَـة فـي النفـس أن تـرى كلَّ مائتـي متـر حواجِـزَ تُرابيّـةٍ بارتفـاعِ صـدرك تَعُـجُّ بالمأكـولاتِ الغِذائيـة. عَبَـرَت إحـدى النسـاءِ فـي طريقنـا، وهـي ترفَـعُ يَدَهـا اليُمنـى لِتُثَبِّـتَ الطَّبَـقَ الـذي كان فـوق رأسـها، مـا حَجَـبَ عنهـا نصـفَ الرؤيـةِ، وهـو مـا مَنَعهـا مِـن رُؤيَتِنـا، فاسـتَمَرَّت بالمسـير عبـر الطريـق. حـاولَ مايـكل أن ينحَـرِفَ عنهـا ولكنَّنـا صَدَمناهـا وطَرَحناهـا أرضـاً، وسَـمِعتُها تقـول: «أووه!» بطريقـةٍ لـم أسـمَع لهـا مَثيـلاً أبـداً. انحَرَفـت سـيارَتُنا الجيـب، وقَفَـزَت، ثـمَّ عـادَت إلـى مَسـارِها المُسـتقيم. وأكمَلنـا طريقنـا. نظـرتُ إلـى الخلـف، وكانـت المـرأةُ قـد طـارَت إلـى الرصيـفِ ومُلقـاةً علـى الطيـن؛ بَـدَت بـلا حيـاة. قالـت دافيديـا: «مايكل! مايكل! لقـد أصُيبَـت المـرأةُ!». «لـم تَكُـن تُراقِـبُ الطريـق!» قـال مايـكل بغضـب، وأخَـذَ يقـودُ بشـكلٍ أسـرَعَ

مِن قبل. وانْحَنَت أكتافُهُ مع تزايُدِ السُّرعةِ. كُنَّا كأنَّنا في سباقٍ للفِرارِ مِن ماذا؟ جَريمة قَتلٍ رُبَّما. لم نَكُن نعرف. صَرَخَت دافيديا «مايكل مايكل» ولكِنَّه لم يَنبُس بِبِنتِ شَفَةٍ، ثم قالت: «ارجِع، ارجِع، ارجِع، ارجِع»، لكننا لم نرجِع، لم نستطع.. ليسَ في أفريقيا، في هذه الأرض القاسية التي لا يُمكِنُ لأيِّ أحَدٍ أن يُساعِدَ تلكَ المرأةَ المِسكينةَ التي ارْتَمَت في الطريقِ ومِنَ المُحتَمَلِ أنَّها أصبَحَت في عِدادِ الموتى. الهَرَبُ مِن هذا الأمرِ بِرُمّتِهِ لا يُعتَبَرُ خطَأً، ولكِنَّ الخطأ هو النظرُ إلى الخَلفِ نَحوَها أصلاً.

انقَطَعَت الكَلِماتُ وتوقَّفَت بينَنا الآن، لم يَكُن سوى نَشيجِ دافيديا فقط، ثم صَمتِها. بدأ مايكل يقودُ باتِّزانٍ أكثر بعدَ تَمَلُّصِنا للحدودِ واتجاهِنا شَمالاً. إذا لم نَجِد ثَغرَةً فسنَذهَبُ إلى جنوب السودان. ساءَت حالَةُ الطريق أكثر. لستُ متأكداً مِن أنَّها طريق. وصلنا إلى قريةٍ وهَمَسَ دَليلُنا في أُذُنِ مايكل، وبَعدَها سِرنا بِبُطءٍ شديد. وقام مايكل بإطفاءِ المصابيحِ الأماميَّةِ، بَيدَ أنَّهُ كان يستخدِمُ مصابيحَ الوُقوفِ على أيَّةِ حال.. «دَعونا نَتَمَتَّعُ بالقمر!» كانَ القمرُ مُنتَصِفاً، بِوَجهٍ مُتَوَرِّم، وابتسامَةٍ على زاوِيَةِ فَمِه. وكان الناسُ يتَجوَّلونَ في الأنحاءِ تحت وَهَجِهِ البرتقاليِّ الغريب. وكان الأطفالُ يلهون ويلعبون كما لو كان الوقتُ نهاراً. أصبَحنا أكثَرَ بُطئاً من المُشاةِ عبر هذا الشفَقِ المُزدَحِم بالخَلقِ،

وفي هذا المَساءِ البشريِّ الكثيف. انفَجَرَ أحَدُ الأكواخِ بِضَحِكٍ مُفاجِئٍ، كَجَوقَةِ سوبرانو. ماذا لدَيهم لِيَتضاحَكوا هكذا؟ وكانت هناك درَّاجاتٌ نارِيَّةٌ دون مصابيح أماميّة في الظلام. وثَمَّةَ رجلٌ يَستَنِدُ إلى جانِبِ أحَدِ الأكواخ، يَضَعُ هاتِفَهُ النقّالَ على أُذُنِه مُخْفِياً الضوءَ المُنبَعِثَ منه بِراحَةِ يَدِه.

قال دَليلُنا: «تَوَقَّف» ثم خَرَجَ وأغلَقَ البابَ، وسارَ إلى نافِذَةِ مايكل وتَحَدَّث معه بِصَوتٍ خفيض.

قال لي مايكل: «أعْطِهِ خمسين».

«ليسَ قَبلَ أن نَصِل إلى الكونغو».

«نحن هنا. هذه هي الكونغو».

«ظننتُ أنَّكَ قُلتَ مائة».

«إنَّه يريدُ الانصِرافَ مِنَ الآن. أعْطِهِ خمسين فقط».

ناوَلتُ مايكل الوَرَقَةَ النقدِيَّة. قامَ الرجلُ بِطَيِّها ثم استَدارَ وسارَ نحو أحَدِ الأكواخِ، وصاح بِرِقَّةٍ ورِفْقٍ، «مرحباً».

«مَنْ مِنكُما سيأتي إلى المَقعَدِ الأماميِّ، ناير؟» سألَ مايكل.

«أعتَقِد أنَّهُ أنا»، قلتُ لدافيديا، تقريباً. كان وجهُها غيرَ مرئيّ. ومنذ ساعتين لم تَتَفَوَّه بأيّةِ كلِمة. غادَرْنا القريَةَ وتَقدَّمنا مسافَةَ نصفَ كيلومترٍ، ثم عاوَدْنا الوقُوف.

قال مايكل: «إنَّ الطريقَ الرئيس قد انتهى على هذا النحو،

ولـن يكـون بمَقدُورِنـا العُثورَ عليهـا إلا مـع ضـوءِ النهـار». ضَبَـطَ ساعَتَهُ. «اضبِطوا ساعاتِكم بمِقدارِ ساعةٍ إلى الـوَراء، فقد عَبَرْنـا إلى منطِقـةٍ أُخـرى».

جَلَسنا في السيارةِ دونَ أيِّ كلام، لا نُفكِّر بشيءٍ أو نَشعُرَ بأيِّ شيء، أو حاوَلنا أن نفعلَ ذلك. تَغَيَّرَ الطقسُ واختَفَت النُّجوم.. واختَرَقَ القمرُ عبرَ الغيومِ بتأثيرٍ مُثيرٍ للفُضول وبدا كأنَّهُ مُعَلَّقٌ على بُعدِ أمتارٍ قليلةٍ فوقَنا وكانت الغُيومُ خلفَهُ أعلى مِنهُ بكثيرٍ في السماء. أوقَفَ مايكل المُحرِّك. فَسَمِعنا طنينَ الحَشَراتِ الهائِلةِ من حولِنا. ثمَّ تَوَقَّفَ الطنين. وطَرَقَت قَطَراتُ المَطَرِ سقفَ السيارة طَرْقاً مُستَعِراً، واندَفَعَ وابِلُ المَطَرِ على الزُّجاجِ الأماميِّ المُتَّسِخ.

«هـذا غبـاء، غبـاء»، قـال مايكل. «الكونغـو! هنـا، نحـنُ لسـنا بأيّـة مشكلة أبـداً».

(16 أكتوبر، الساعة 02:00 صباحاً)

كـم بقيَ لـديَّ مِـنَ الوقـتِ للالتقـاءِ بِـكِ؟ لـن يقومـوا بنقلِنـا هـذه الليلـة، بالتأكيـد. انتهَـت الحفلـةُ وبـدأ الجميعُ يَشْـخر، نامـوا فـوق بنادقهـم. الشـيءُ الوحيـدُ الـذي بقـيَ مُسـتيقِظاً معـي كان الراديـو الـذي كان يَبُـثُّ مِـن مَحَطَّـةٍ مـا، كان دي جـي يَتَحـدَّثُ الفرنسـية بسُـرعَةٍ كبيـرةٍ وَعزَفَـت موسـيقى الريـف الأمريكيّـة.

وثَمَّةَ بعوضَتان أو ثلاثٌ كانت تتطايَرُ هنا وهناك. هناكَ عددٌ قليلٌ جداً من البعوضِ في هذه الارتفاعات في شرق أفريقيا، بالرغم من أنَّنا عندما دَخَلْنا، مايكل ودافيديا وأنا، في الظلامِ داخِلَ حُدودِ الكونغو، قال مايكل من أجلِ الإسراعِ في استئناف رِحلَتِنا مرَّة أخرى: «هناك الكثيرُ من الأصواتِ في الهواء هذه الليلة»، ثم قام بِرَفعِ نوافذِ السيارةِ أمامَ الحشرات. عانى مايكل، عندما كانَ طِفلاً من الملاريا والبعوض؛ لذلك، حسب اعتقادي، كان البعوضُ هو الشيءَ الوحيدَ الذي يُرْعِبُهُ على الأرض.

كانت السيارةُ خانِقَة. غَفَوتُ، أو رَبَّما اختَنَقتُ، ورأيتُ المرأةَ على الطريق بتفاصيل أكثر، الغِطاءَ الذي لَفَّ كامِلَ جسدِها عدا ذراعيها وكتفيها، بِلَونِه الأحمر أو الأرجوانيّ، مِنَ المُمكِنِ أن يكونَ أيُّ اللونين في الغسق، تَدَحْرُجَ وعاءِ النملِ على حافته عن رأسها مثل اللعبة، وانسِداحَها على الأرضِ بِتَهالُكٍ مِثْلُها مِثلَ منشفتها: تلكَ القِطعَةِ القُماشيَّةِ البيضاءِ التي كانت قد طَوَتْها على شَكلِ كَعْكَةٍ وَوَضَعَتها على رأسِها لتحمِلَ الوِعاءَ فوقَها والتي تَدَحْرَجَتْ وارْتَمَتْ إلى جانِبِها على الطريق.

في الليلِ أحياناً، يأتي صوتُ مايكل قائلاً: «إنَّني أتَحَرَّك».

أنا مُتَأَكِّدٌ أنَّ كلينا، دافيديا وأنا، كُنّا مُستَيقِظَين.

«رَغمَ أنَّ الأمرَ لم يَكُن ملحوظاً، لكِن كانَ هناكَ حَرَكَةٌ بالتأكيد».

قالت دافيديا: «مايكل، اهدَأ».

«إنَّني أنزَلِق للأسفَل. إنَّني أنزَلِق للأسفل».

«ششششش».

«لا أعرفُ إلى ماذا سأتَحوَّلُ لحظَةَ أن أكونَ على الأرض».

هي: «تبّاً لِهذا. تبّاً لكَ، فلتَذهَب للجحيم».

«أُعانِي مِنَ الحَكّةِ في كلِّ أنحاءِ جِسمي».

«لا تَقُم بالحَكِّ والهَرْشِ. لا تَهرُش».

تلوَّى ثم كَمَش جَسَدَهُ وَوَضَعَ أصابِعَهُ كالمَخالِبِ على ضُلوعِه وبَدَأت أكواعُهُ بِضَربِ عِجَلَةَ القيادَةِ. «إنَّني في شَرْنَقَة. ماذا سأُصبِحُ عندما أخرُج؟»

قالت دافيديا: «لقد أصابَهُ الجُنون. سنقومُ بمُحاولةِ السيطرةِ عليه وتَهدِئتِهِ حالما يبدأ بالصُراخِ الشديدِ والعَويلِ الحادِّ قبل أن ينتهي الأمر».

صَرَخَ، «إنَّني أخرُجُ من جِلدي!» كان يَتلوَّى. فَضَرَبَ على الزامور، وَخَرَجَ صوتُ الزامورِ عالياً فَقَفَزنا من أماكِنِنا جميعاً. ثم كَبَحَ جِماحَ نفسِه وسيطَرَ عليها فَعُدنا جميعاً إلى هُدوئِنا مَرَّةً أخرى.

وبعدَمـا بَـزَغَ الصبـاحُ، اكتَشـفنا أَنَّنـا كُنَّـا مُتوَقِّفيـنَ بسـيارَتِنا خلـفَ كنيسَـةٍ وسـطَ حَقـل، بنـاءٌ كبيـرٌ مُتهالِـكٌ لونُـهُورديٌّ كمـا لـونُ السَّـلَمون، وبِفِعْـلِ الصَـدَأ، اسـتحالَ لـونُ سَـقفِها المصنـوعِ مـن الصفيـحِ إلـى اللـونِ الأحمـر. وخَلـفَ المبنى كانَ هنـاكَ طريـقٌ ترابـيّ معقـول، ومجموعـةٌ مـنَ المبانـي المُنخفِضـةِ المُظلِمَـةِ مـن الداخـل، وكانـت الريـاحُ تَهُـبُّ خلالهـا. وكانـت القُـدورُ والأوانـي تَغلـي وأبْخِرَتُهـا، مصحُوبَـةً بِنَشـيشِ المقالـي، تَمـلأُ الأرجـاء. ودون أن نبحَـثَ الأمـرَ ونُخطِّـط لـه، خَرَجنـا نحـنُ الثلاثـةُ مـن السيارة مُسرِعينَ على أمَلِ الحُصولِ على وَجبَةِ إفطار. راقبتُ دافيديـا وهـي تسـيرُ أمامـي بسـرعةٍ بِتَنُّورَتِهـا الأفريقيَّـةِ الطويلـةِ وهـي تَتَمايَـلُ وتَتراقَـصُ حـول قَدَميهـا. وكان النـاسُ يتَجوَّلـون فـي الأنحـاءِ، ورأيـتُ بعضَهُـم وهـم يخرُجـونَ زاحِفيـنَ مـن تحـتِ شـاحِنتَين يجُـرُّون خَلفَهـم فُرُشَـهم المَصنوعَـةَ مـن القـشِّ. ولـم يلحَـظْ أحَـدٌ وُجودَنـا. جَلَـبَ لنـا مايكل بعضَ الكعـكِ المَصنـوعِ مـنَ الـذُّرَةِ وشـاياً سـاخِناً مُعبّـأ فـي عبـوات مـاءٍ بلاستيكيةٍ. وقـال: «في الليلـة الماضيـةِ تَحَوَّلـتُ إلـى سِـحْليَّة. أمّـا الآن فأنـا أعـرفُ مـا يجـبُ علينـا فعلُـه».

ومَضـى يستكشِـفُ المـكان، وهـو يُمرِّرُ آلـةَ حِلاقَتـه الكهربائيـة علـى فَـروَةِ رأسِـهِ وخَدِّيـهِ وحَنكِـه، وهـو يمشـي فـي الأنحـاءِ ويَتَحَـدَّثُ مـع النـاس.

جَلَسْنا، دافيديا وأنا، على مقعدٍ خارجَ الكوخِ الذي يُسَمَّى «الصالون الأكثر حظاً» وقالت: «بوميلاي بوميلاي بوميلاي بووم وتلك الأشياء كلها». «ماذا؟» «فاشيل ليندسي. أو إدنا سانت فنسنت ميلاي أو أحدٌ ما». «أوه». «إنَّها قصيدةٌ عن الكونغو». «أوه». رأينا امرأةً تجلسُ على كرسيٍ وتقومُ بتَسريحِ شعرِ فتاةٍ صغيرةٍ كانت تجلسُ على الأرض بين ركبتيها، ورأينا امرأةً أخرى كانت تَقِفُ خلفَها وتقومُ بتَسريحِ شعر رأسِها ... كانت المباني والأكواخُ رماديّة وبُنيّة، وكانَ كلُّ شيءٍ مُلَطَّخاً بالطين الأحمر. تذكَّرتُ أنَّني رأيتُ ثلاثةَ أعمِدَةِ كهرباءٍ خضراءَ اللون، كان أحَدُها مكسوراً ومائِلاً، وكان كما يبدو مُعَلَّقاً بالأسلاكِ فقط.

رَجَعَ مايكل ومَعهُ عِدَّة أرغفةٍ صغيرةٍ من الخُبز لكلِّ واحدٍ مِنّا وقال: «بإمكَانِ بعضِ السحالي أن تَطير، لذلك يُمكِنُكَ، إذا ما أصبَحتَ سِحليَّة، أن تَحصُلَ على بعضِ المعلومات»، ثم ذَهَبَ مرة أخرى.

قالت لي دافيديا: «هل سَبَقَ لكَ أن رأيتَ شيئاً كهذا مِن قبل؟»

«ماذا؟ هل تقصِدينَ رؤيَتَهُ وهو في حالَةِ التحوُّلاتِ السِّحرِيَّة، في ليالي الغابَةِ؟»

قالت: «حسناً، عندَما تُعَبِّرُ عن الأمرِ بهذه الطريقة» وشَرَعَت بِرَكْلِ صَخرَة «يُصبِحُ الأمرُ مُزعِجاً كما هي حَالُهُ بالفِعل».

«مـنَ المُحتَمَـلِ أنَّهـا مُشـكِلَةٌ كيميائيـة. هـل تتنـاوَلُ أيَّـةَ أدويـةٍ لِمَـرَضِ الملاريـا؟»

«مرَّة واحدة في اليوم. دواءٌ يُسَمَّى لارْيام».

«هـذا الـدواءُ يُسَـبِّبُ الكوابيـس. أنـا أتنـاولُ دواءً يُدعَـى دُو كْسيسـا يكلين » .

«قلتَ «تَحَوُّلاتٌ في ليالي الغابَة»، ولكن أين الغابَة؟»

«لقـد قَطَعَهـا النـاسُ جميعَهـا. أحرَقوهـا لإِعْـدادِ الفُطـورِ علـى الأغلـب. ولإفْسَـاحِ المجـالِ أمـامَ الزراعـة».

قبـل مائـة عـام، كنـتَ تحتـاجُ إلـى سـاعةٍ ربمـا حتـى تسـتطيع التَّسَـلُّلَ عبـر الأشـجارِ المُتشـابِكَةِ فـي رُقْعَـةٍ لا تزيـدُ مسـاحَتُها عـن عشـرة أمتـار. أمّـا الآنَ فقـد أصبحـت الأكـواخُ والممـراتُ والحدائِـقُ الصغيـرَةُ تُغَطِّي التـلالَ. بِحُلولِ السـاعة 9:00 صباحـاً، كُنّـا نَمُـرُّ بسـيارتنا مـن خلالهـا، عائِديـن إلـى الطريـق الرئيـس، وكنـا نقـودُ السـيارةَ الآن علـى الجانِـبِ الأيمَـنِ بـدلاً مـنَ الأيسـر. وفـي غضـون 20 دقيقـة، انْثَقَـبَ أحَـدُ الإطـارات.

قـامَ مايكل بِرَفـعِ السـيارَةِ بِخِفَّـةٍ وَرَشـاقَةٍ وَفَـكَّ الصَـوامِيـلَ مِـن مكانِهـا ثـمَّ رَكَّـبَ الإِطـار الاحتياطـي وكانَ لونُـهُ مُغايـراً لألـوانِ الإطـاراتِ الأخـرى ومَقاسُـهُ أيضـاً مُختَلِفـاً عـن البقيـة، وكانَ شِـبهَ مُهْتَـرِئ ويَخلـو مِـن الفُـرُوزِ تمامـاً.

رأينـا عـدداً قليـلاً جـداً مـن المركبـاتِ ذاتِ المُحـرِّكات. كُنّـا

أحيانـاً، وبِشَـكلٍ عَرَضـيٍّ، نلمَـحُ درّاجـةً نارِيَّـةً أو سـيّارَةَ دَفْـعٍ رُباعِـيّ، وغالبـاً مـا تُطبع عليهـا اختصـاراتٌ لأسـماءِ شِـركاتٍ أو مُنظَّمـاتٍ غيـرِ حُكومِيَّـة. وكانـت حافِـلاتُ الـرُكَّابِ تأتـي وكأنَّهـا سـيارات سِـباق، وتُوشِـكُ علـى الانقـلابِ أثنـاءَ التِفافِهـا حـول المُنْحَنيـاتِ وهـي باتجاهِنـا، ترشُـقُنا بوابِـلٍ مـنَ الغُبـارِ والتُّـرابِ مِـن تحـتِ عَجلاتِهـا. مَررنـا بِعَـددٍ مـن الشـاحناتِ التـي كانـت تحمِـلُ بعـضَ البضائِـع، وهـي تمشـي الهُوَيْنَـا؛ وبِشـاحِناتٍ أخـرى بِمُقَدِّمـاتٍ مُهَشَّـمَةٍ كانـت مَسْـحُوبَةً بيـن الأشـجار ومَهجـورَةً هناك. وكان ثَمَّـةَ عَـدَدٌ كبيـرٌ مـنَ المـارَّةِ يسـيرونَ علـى حافَّـةِ الطريـق أو يَعبُـرونَ مِـن جانِـبٍ إلـى جانـب، لا يستَيقِظونَ مِـن أحـلامٍ يَقَظَتِهـم إلَّا علـى أصـواتِ الزَوامير. كان وقتَهـا عيـدُ الأضحـى، وكان المُسـلِمونَ يمشـونَ علـى جانبـي الطريـق، وبعـضُ النسـاء حَمَلْـنَ سَـجاجيدَ الصَّـلاةِ.

المُهِـمُّ هـو أنَّ سـيارَتنا اللاندكـروزر تقدَّمَـت بِسُـرعَةٍ وعنـادِ تحـدٍّ، ولـم يَكُـن مـنَ المُحتَمـلِ أن نُواجِـهَ أيَّ مسـؤول. وقبـلَ أن نَصِـلَ إلـى أيَّـةِ مدينـة كبيـرة، انْحَـرَفَ مايـكل عـن الطريـقِ عبـرَ تَحْويلَـةٍ ومَـرَّ بِمَمـرَّاتٍ ضَيِّقـةٍ أشْـبَهَ مـا تكـون بممـرَّاتٍ مُخصَّصـةٍ للمُشـاة وبمنحَـدراتٍ جبلِيَّـةٍ ومسـاحاتٍ زراعِيَّـة، ودَاسَ بعجـلاتِ السـيارةِ سِـيقان الـذُرَةِ وشُـجيراتِ الماريجوانـا مِـن أجـلِ تَجَنُّـبِ نِقـاطِ التفتيـش. ثـمَّ عـادَ إلـى الطريـقِ الحقيقـيِّ الـذي أسْـرَعَ عليـهِ

وكأنّهُ لم يَقُم البارِحَةَ فقط بالتَّسَبُّبِ بمأساةٍ بسيارَتِه الجيب، مُستأنِفاً طِرازَه الإفريقيّ مرة أخرى، فاسْتَخْدَمَ الزامور على الدوامِ عِوَضاً عن استخدام الكَوابِح. ظَهَرَ طفلٌ صغيرٌ وهو يَركُضُ أمامَ السيارة بأقصى سُرعَةٍ، كانَ كأنّهُ يُسرِعُ نحو حَتفِهِ. انْحَرَفَ مايكل عنه في الوقتِ المُناسبِ مُطْلِقاً الزامورَ وصارِخاً منَ النافذةِ باللغةِ الإنجليزيَّة مُخاطِباً أُسْرَةَ الفتى، «اضرِبوا ذلكَ الطفل، اضرِبوا ذلكَ الطفل!» نظرتُ جانباً، مُبعِداً عيني عن المُستَقبَل الذي أمامي. كانت الحُقولُ بِلَونٍ أخضَر فاتِح، وبِلَونِ الربيعِ في المناطقِ المُعتَدِلةِ، ناعِمَةً ومُسْتَوِيَة، وقد امتَدَّت أدخِنةُ حرائقِ القُمامَةِ البيضاءِ بِبُطءٍ فوقها هنا وهناك كالضَّبَاب. وفي وقتٍ مُتأخِّرٍ من ذلك اليوم، أشارَ مايكل إلى الأُفُقِ الضَّبابِيِّ المُغَبَّشِ البعيد، زاعِماً أنَّهُ رأى تِلالَ طفولَتِه، الجبال السعيدة، التي كان قد أسمَاها المُبَشِّرُ جيمس هانينجتون[1]، بإحباطٍ واشمِئزاز، الوحوشَ الضَّاحِكَةَ. كما وأَخْبَرَنا مايكل عن غابةٍ في تلك الجبال، قائِلاً: «سَتَجِدُ هناكَ أشجارَ صَنوبَرٍ يبلغُ ارتفاعُها 12 متراً تقريباً يا ناير. أجَماتٌ وخَمائلُ دائِمَةُ الخُضرَة، عشرَةٌ أو خمسة عشر أو عشرون أو أكثر كلُّها بعضها مع بعض.

(1) جيمس هانينجتون (3 سبتمبر 1847 ـ 29 أكتوبر 1885) كان مبشر إنجليزي أنجليكاني، ويعتبر قديساً وشهيداً. وكان أول أسقف أنجليكاني في شرق أفريقيا. تم طعنه في أوغندا برمح من كلا الجانبين ومات على إثر ذلك. يعد هانينغتون ورفاقه من بين أول شهداء أوغندا. **المترجم**

ماذا تُسمِّي مجموعةً من الأشجار، أجَمَة؟ هناك أجَمَاتٌ مِن أشجارِ الصَّنوبرِ ارتفاعها يَصِلُ إلى 12 متراً تقريباً، يا ناير. وهي ليست أشجاراً شائعة ولكنَّ إِبَرَها من الذَّهَبِ فِعلاً. ويُمكِنُكَ جَمْع كلّ الإِبَر التي تُريدُها، ولكن إذا خَدَشَتْكَ إحداها ونَزَفَ دَمُكَ ستَفقِد روحَك، وسيأتي الشيطانُ على الفورِ إلى رائِحَةِ دَمِكَ، وينتَزِعُ روحَك ـ مِن قلبِكَ ـ في الحال. «هل تَذْكُر»، قال: «عندما أخبَرتُكَ ألّا تفعَل شيئاً ذا صِلَةٍ بالفُودو[1]، الشَّعوَذَةِ والسحرِ الأسود، ستكْتَشِف سَبَبَ ذلك الآن».

«مايكل»، سألتُهُ، «هل كانت قبيلَتُكَ وراء استِشهادِ هانينجتون؟» فكان كُلُّ ما قالَه هو، «طُعِنَ هانينجتون في أحَدِ جَنْبَيهِ برُمحٍ».

«سيَمتَزِجُ حفلُ الزِّفافِ بِحَرْقِ الدم، وهي مراسيمٌ ستَستَمِرُّ لِمدَّة أسبوع»، قال: «عندما نطرُدُ دَمَ الحَربِ السَيِّئِ ونشرَبُ دِماءَ السلامِ الجديدة. إنَّها طُقوسٌ جماعِيَّةٌ ويشتَرِكُ فيها الجميع! والطفلُ الذي يَتكَوَّنُ في ذلك الأسبوع سيكونُ رَجُلَ سلامٍ في قبيلته. طبعاً الذين يَتكَوَّنونَ ضِمنَ نِطاقِ الزوجِيَّةِ فقط. لا يُمكِنُ لابنٍ غير شرعيّ أن يكونَ رَجُلَ سلام».

---

(1) «الفودو» مذهب ديني توفيقي متأصل في غرب أفريقيا. ووفقاً لمعتقد سائد يقوم أتباع الفودو بغرس دبابيس في دمى تمثل أعداءهم ويحرقونها على أمل أن تصيب أعداءهم اللعنة، ويقال: إنهم يستطيعون تحويل الناس إلى زومبي. و«الفودو» نوع من أنواع السحر الأسود الذي يقوم أهلُهُ باستخدام الأشباح والجن لخدمتهم.

وفي لحظة ما، مع حُلولِ الغَسَقِ علينا، قال: «في أيَّةِ لحظةٍ سَنَصِلُ إلى جبلِ نيوادا. وحتّى لو قُمتُم بتمزيقِ عينيَّ سأجِدُهُ عن طريقِ قلبي».

تحوَّلنا إلى طريقٍ مَملوءٍ بالطين والوحل، وتَزايَدَ الطينُ كلَّ كيلومتر، حتى بدأنا السيرَ خلالِ حُقولٍ مزروعَةٍ بالبامية؛ كانت تلك المناطِقُ مفْصولَةً بِسَبْخاتٍ زَلِقَةٍ، صَعبَةٍ ومُخيفَةٍ، ولكِنَّها لم تَكُن تُمطِرُ على الأَقلّ. «بَقِيَ أمامَنا مسافةُ خمسة عشر كيلومتراً حتى نَصِل إلى جبل نيوادا»، أعلنَ مايكل. وبعدَ أن قَطَعْنا كثيراً من الكيلومترات، ما يزيدُ كثيراً جداً عن خمسة عشر كيلومتراً، بالتأكيد، اتَّخَذْنا طريقاً مُخْتصراً، كان مَمرّاً للمُشاة، قادنا إلى أرضٍ خَرِبَةٍ، أرض طينيَّة مُوحِلة مزروعة بالبامية الحمراء. لا يُمكِنُكَ الوقوف في مثلِ هذا النوعِ منَ الطينِ حتى بسيارة دفع رباعي وإلا ستغرقُ ولن تتمكن من الخروج منها أبداً مرة أخرى. وعندما خَيَّمَ علينا ظلامُ الليلِ الدامسُ أدْرَكْنا أنَّ الرائِحةَ الكريهَةَ التي كانت تَنتَشِرُ في المكان لم تَكُن تأتي من المستنقع بل مِن سيارتنا. «أشَمُّ رائِحةَ بنزين»، قال مايكل. ثمّ بَدَأَ المُحرِّكُ بالفَشَلِ والإخفاق. «أنا لستُ متأكداً بِشأنِ مِضخَّة الوقود»، قال مايكل. ثمّ توقَّفَ مُحرِّك السيارة عن العمل. أطفأ مايكل المصابيحَ الأماميَّةَ. وفي سَوادِ هذا الليل البَهيمِ أدرَكتُ كيف كان بإمكانِ تبشيريٍّ إنجليزيّ مثل جيمس

هانينجتون الوقوف في مثل هذه الأوحال والبكاء وهو يسمعُ الجِبالَ وهي تَضحَك.

بدأ المُحَرِّكُ المُتَعَطِّلُ يُصدِرُ أصواتاً صغيرةً مع انخفاضِ حرارته. وبإطفاءِ المصابيحِ الأماميَّةِ، استَطَعنا قِياسَ الظلامِ الذي أمامنا، وقد كان عميقاً ودامساً دون قمرٍ أو نُجوم. وبين الفينَةِ والأخرى، كانت تَظهَرُ الضفادِعُ بِنَقيقِها ثمّ تَختَفي. ومِن بعيد، جاءَنا صوتُ قَرْعٍ إيقاعِيٍّ وحَشِيٍّ للطُّبول.

قالت دافيديا، «هل هذه طُبولُ الغابة؟»

«رُبَّما هذا هو تَصَوُّرُ وفِكرَةُ أحَدِهم عن الديسكو»، قال مايكل.

«حسناً.. فلنمضِ»، قالت. ولكِنَّنا شَعَرنا نحنُ الثلاثةُ باستِحالَةِ الانتقالِ على الأقدامِ خِلالَ الظلامِ وعبرَ الطينِ والوحل. فأغلَقَ مايكل النوافِذَ وخَلَدنا إلى نَومٍ مِثلَ نومِنا الخانِقِ في ليلَتِنا السابِقة.

وصَحونا وقتَ الفجرِ في سيارة الجيب المُعَطَّلة، وليسَ لدى أيِّ واحِدٍ مِنَّا خُطَّةٌ أفضَلُ منَ الخُروجِ من السيارة لأجلِ التبَوُّل.

كُنَّا قد وَصَلنا تقريباً، وقد أدْرَكنا هذا الآن، إلى آخِرِ حُدودِ الأراضي المُنخَفِضة ذات الوَحْل الأحمر، عند سُفوحِ الجبالِ التي رأيناها خلال النهار، على مَرمى منَ الأشجارِ المُلتَفَّةِ

المُتشابِكَةِ والأكواخِ غير المُتوازِنةِ التي كان يَعوزُها التَناسُقُ والانسِجام.

«خُذوا أمتِعَتَكُم»، قال مايكل. «تَحَرَّكوا بِرِفقٍ وهُدوء».

كانَ قد أرادَ مِنَّا أن نَفهَمَ أنَّه مِن خلال الدَّوسِ اللطيفِ الخفيفِ على البُقَعِ ذات الأسْطُحِ الصُّلبَةِ، سَنتَجَنَّبُ الوُقوعَ والغَرَقَ في الطينِ والقَذارَةِ، ومع ذلك فقَد وَقَعنا في كثيرٍ منَ البُقَع. ومن جَرَّاءِ خُطُواتِنا المُتَعرِّجَةِ المُلتَويَةِ بَحْثاً عن أماكِن أفضل لأقدامِنا وخُطُواتِنا، قَضينا نِصفَ ساعةٍ لم نَقطَع خِلالَها سِوى بِضعَةِ مئاتٍ منَ الأمتار.

كانت القريةُ تَقَعُ بين حَقلٍ للذُّرَةِ وبستان للموز. كانَ قد وَصَفَها مايكل تماماً، كانَ الكُوخُ الرئيس بين الأكواخِ المُنخَفِضَةِ والأكواخِ الأُخرى؛ وكان أكبرَ نادٍ للديسكو، مع مُوَلِّدٍ كهربائيٍّ في الخارِج، لكنَّهُ كان لا يعمل.

وبينما ذَهَبَ مايكل في جَولَةٍ، جَلَستُ أنا ودافيديا على مقعَدٍ وراقبنا القريةَ وهي تستَيقِظ. الرِّجالُ والنساءُ مُنشَغِلونَ بأفرانِ الطَّبخِ القريبةِ منَ الأكواخ، والأطفالُ، والدجاجُ والماعِزُ، كُلُّهُم يَمشُونَ بتَأَنٍّ وتَؤَدَةٍ ويَتَحدَّثونَ بصوتٍ خَفيضٍ في الفَجرِ البارِدِ. رَجَعَ مايكل بِثلاثِ عُلَبٍ منَ الكوكاكولا وبعضِ البسكويت مَلفُوفَةً بِصَفحَةٍ منَ الـ مونيتور، وهي صَحيفَةٌ أوغنديَّة، وقال: «انظُروا إلى هؤلاءِ الناس. إنَّنا لا نَعرِفُ قُلوبَهم».

«لماذا لا تقول: إنَّهُم ليسوا قَبِيلَتَكَ وحَسْب؟»

«الأمرُ أكثرُ تَعقِيداً مِن ذلك».

«لا، ليسَ مُعَقَّداً»، قلتُ. «هل هذه قبيلَتُك، أم لا؟»

«حسناً، الجوابُ ببساطَةٍ هو نعم، إنَّهم يتحدثون بلَهجَتي، إلَّا أنَّهُم ليسوا أُسْرَتيَ المُقَرَّبَة. ولكن ليس هذا هو الوقتَ المُناسِبَ لأن أكشِفَ لهم عن نفسي».

«من تَظُنُّ نفسَكَ؟ يوليسيس الضائِعُ منذُ زَمَنٍ بعيد؟» ثم شَعَرتُ بالحَرَجِ لأجلِهِ. ولكنِّي استَطَعتُ أن أرى في نَظْرَتِهِ أنَّهُ كانَ فِعلاً يَظُنُّ أنَّهُ كذلك. «مايكل، هل هذا جبل نيوادا؟».

«حَسْبَ اعتقادي، إنَّهُ قريبٌ جداً».

لم تكن دافيديا تُعانِي مِن أيِّ شيءٍ مِن هذا. «أَحْضِر لنا بَعضَ الطعام الحقيقيّ»، قالت له.

«اجْلِسَا هناك»، قال. وكَأنَّنا لم نَكُن مُستَرخِيينِ بالفِعلِ جنباً إلى جنبٍ على المَقعَد.

وعندما ذَهَبَ، اقتَرَبْتُ مِنها، وقلتُ لها: «إنَّه يَسْتَغِلُّكِ مِن أجلِ شيءٍ ما. شيء روحانيّ، خُرافِيّ».

«مِثْلُ ماذا؟»

«لا أدري. اختطافُ أحَدِ الآلِهَةِ وإرْغامُ الآخَرينَ على... إعادَةِ تَرتيبِ قَدَرِنا جميعاً».

أصـدَرَت دافيديـا صَوتـاً كَصـوتِ النُبـاحِ، والدُّمُـوعُ تَـذرُفُ مِـن عَينَيهـا. «أنـتَ مَجنـون».

«مَجنونٌ مِثلَه؟»

«لا. فقط مِن حينٍ لآخَر».

«لقد حانَ الوقتُ لأَقومَ بإِخراجِكِ مِن هنا».

«ليسَ عليكَ قولُ هذا مَرَّتين».

«لِنذهَب إذن».

«كيفَ نذهب؟»

«سنَمشي».

«إلى أين؟»

«أوغندا مِن تلكَ الطريق، نحوَ الشرق».

«كم تَبعُد؟»

«لا أدري. ولكنَّها لن تقتَرِب مِنَّا إذا بقينا جالِسَين هنا».

«ماذا سيَفعَلُ؟»

«لا شيء، لا يُمكِنُهُ أن يَحتَجِزَنا هنا تحتَ تهديدِ السلاحِ».

«ولِمَ لا؟»

«لأَنَّهُ لا يَملِكُ أيَّ سِلاح».

شـيءٌ مـا بـدأ يَحـدُثُ، فجـأة، لِكُلِّ شـخصٍ فـي القريـة، كمـا

لـو كانـوا يختَنِقـونَ بالأدخِنَـةِ السـامَّةِ، ارتَفَعـت أصواتُهـم وعَلَـت عالِيـاً، وسَـمِعنا صـوتَ سـيارةٍ عـن بُعْـد. سـألَتني دافيديـا عمَّـا كان يَحـدُثُ، ومَـن هـو القـادِم، ومـا نـوعُ السـيارةِ. «لا أعـرف»، قلـتُ، «ولكِـن لا يُهِمُّنـي سـوفَ نَستَقِلُّ سـيارةً ونرحَـلُ مِـن هنـا أو نقتلُهـم، ونأخـذُ الشـيءَ مَعَنـا». ثُـمَّ سَـمِعْنا أصـواتَ مُحَـرِّكاتٍ أخـرى، العديـدَ مـنَ المركَبـات، ولـم يَكُـن أيٌّ مِنهـا مرئيّـاً. ثـم كانَ هنـاكَ شـخصٌ يَحمِـلُ سـلاحاً: طلقـة، طلقتـان، ثلاثـة... ثـم باقـي الطلقـات. فـي تلـك اللحظـة، كانـت سـيارتنا الجيـب، التـي كانـت علـى بُعْـدِ ثلاثمائـة متـر إلـى يميننـا، قـد تَحَوَّلَـت إلـى كُتلَـةٍ مـن الوَهَـجِ الصامِـت، وبَعـدَ ثانيـةٍ فقـط، جـاءَ صـوتُ انفجارِهـا.

نهضـتُ أنـا ودافيديـا بنفـسِ الوقـتِ عـن المقعـدِ. ورأينـا شـاحنةَ بيـك أب بيضـاء تَنطَلِـقُ مُسـرِعَةً عبـر الأُفُـقِ مُتَوَجِّهَـةً صَوبَنـا، فَتراكَـضَ القُرَويُّـونَ المَذعـورونَ هَرَبـاً مِـن أمامِهـا بشَـكلٍ هِسـتيرِيّ. كانـت نيـران البنـادِقِ تَتَفَجَّـرُ مِـن نافِـذَةِ الراكـب، وكانـت الشـاحِنَةُ مُحَمَّلَـةً بالجُنـودِ الذيـن وَقَفـوا فـي صَندوقِهـا الخَلفـيِّ وأخَـذوا يُطلِقـونَ النـار كُلَّمـا كان بإمكانِهـم وهـم يتَمايَلـون ويَتأرجَحـون، مُتَشَـبِّثينَ بالسـيارةِ لتَثبيـتِ أنفُسِـهم.

اسـتَدَرْتُ نحـوَ أقـرَبِ أجَمَـةٍ مـنَ الأشـجارِ الكبيـرةِ، واكتشـفتُ أنَّهـا كانـت مُحاصَـرَة بمركبـاتٍ أخـرى. شـعرتُ بالارتيـاحِ عندمـا جـاء مايـكل نحوَنـا علـى عَجَـلٍ وهـو يُنـادي «لنذهـب، لنذهـب، لنذهـب».

كان بستان الموزِ أحَدَ الاحتِمالاتِ المُمكِنة. أيُّ مكانٍ، حقيقةً. ومَشَينا على نَحْوٍ يُوحِي بالبَراءَةِ ولا يُثيرُ أيَّ شَكلٍ من أشكالِ الاستِفزاز، لا مَشاكِلَ هنا ولا شيءَ يُثيرُ الخوفَ أو الشكّ، إنَّنا نَتَمَشّى فقط.

دخلنا البستان. ورافَقَ ذلكَ بعضُ الصَّمتِ، ثم صَوتٌ سريعٌ لِرَجُلٍ، ثم العديدُ من الطَّلَقات، وعَويلٌ مُتواصِلٌ لامرأةٍ تَندُبُ حَظَّها يأتي مِن مكانٍ ما، ثم مِن كُلِّ أنحاءِ القرية، وكأنَّ القريةَ بأكمَلِها كانت تَصرُخ، بعضُهم صاحَ بذُعرٍ مثل الطيور، وبعضُهم كانَ ينوحُ ويزعقُ، وآخرونَ كانوا يَئِنُّونَ بصَوتٍ خفيض. وبدا كلُّ طِفلٍ كأنّهُ كَغيرِهِ منَ الأطفال.

وبعد أن أصبَحنا على مسافةٍ بعيدةٍ بعضَ الشيءِ عن جَلَبَةِ الأرواحِ وضَجيجِها، في منطقةٍ خاليةٍ، جَلَستُ على حافَّةِ كَومَةٍ من طُوبِ الآجر وَوَضَعتُ ذِراعَيَّ حول وسطي. «إنَّ مَعِدَتي أصبَحَت مِثل كيسٍ منَ القَيء».

«سأُعطِيكُم عشرَ ثوانٍ، ثم وقتاً مُضاعَفاً».

«أين دافيديا؟»

«أنا هنا الآن». كانت خلفي.

هَرَعَت امرأةٌ على الطريقِ أمامَنا وعيناها مثل مصابيحِ السيارةِ الأماميَّةِ، كانت تركُضُ وهي ترفَعُ يدَيها إلى الأعلى في الهواء. وكانت طَلَقاتُ الرصاصِ تَتَراشَقُ حولَها بين أوراقِ المَوز.

فقدتُ صَوابي. أدرَكتُ ذلك الآن. ومَشَينا مائة مترٍ على طولِ الطريق حتى أصبَحنا نَتَنَفَّسُ بِصُعوبَة وبدأت خطواتُنا تَخبُطُ الأرضَ بِتَثاقُل. وقبلَ أن أُشَكِّل أيّةَ نِيَّةٍ واضِحَةٍ للنُهوضِ والركض، وأنا في حالةِ الرُّعبِ هذه، لم أتَذَكَّر سوى أولئِكَ المَفزوعين، ووجوهَ الأطفالِ الصِّغارِ التي تَوَرَّمَت كوُجُوهِ شخصيّاتِ الكاريكاتير، الرُّموشَ الطويلَةَ المُبْتَلَّةَ بالدموعِ، والشِّفاهَ المُتَجَهِّمَةَ العابِسَة، وخُدودَ الأطفالِ والدموعَ المُتَفَجِّرَةَ وكأنَّها حِمَمٌ مُنصَهِرَةٌ هائِلَةٌ تَتَطايَرُ في الهواءِ حول رؤوسِهم.

اصطَدَم مايكل بظَهري، ثم أمسَكَ بكلا ذِراعَيَّ منَ الخلف، ودَفَعَني إلى الأمام. استَمَرَّت دافيديا في سَعيِها صَوبَ سَعَفِ الموز، ثم رَكَضَت أمامَنا وابتَعَدَت عنَّا. أدارَني مايكل بعيداً عن المَمَرِّ واحتَضَنَني ثم أوقَفَني.

«لا يُمكِنُكَ التفوُّق على الطَلَقاتِ والهَروبُ مِنها».

«نعم، أستَطيع!» وقد عَنَيتُ ما قُلتُ.

أشارَ إلى وَسَطِ البُستانِ وقال: «امْشِ لمسافَةِ عشرة أمتارٍ وانْبَطِح أرضاً». راقَبَني وأنا أقومُ بتَنفيذِ أوامِره، ثم ذَهَب.

أصواتُ أعدادٍ أكبرَ منَ الأسلِحةِ والبنادِقِ، وأصواتُ بَشَرٍ أقلَّ بكثيرٍ الآن.

انبَطَحْتُ على بطني. وعلى بُعْدِ خُطُواتٍ معدودَةٍ من وجهي، كانت نِهايَةُ البُستانِ. وعلى يَميني، بَدَأَ حقلُ البامية. ولِفَترَةٍ لم

أستَطِع تقديرَ طولِها راقَبتُ كَومَةً مِن شيءٍ يحتَرِقُ هناكَ قبلَ أن أُدرِكَ أنَّها كانت سيارَتنا. لم يَتبَقَّ منها سوى عَمودُ التوجيهِ وأحَدُ عَجَلاتِها مع الإطار؛ وبالقُربِ مِن هاتَين القِطعَتين، كانت القَذيفَةُ ما زالت تُصدِرُ بعضَ اللهَب. وحولَ هذا كُلِّه، كانت أبخِرَةُ التُّرابِ الأحمرِ والأدخِنَةُ تملأُ كلَّ الأرجاءِ.

جاء مايكل مُمسِكاً دافيديا بِيَدِها.

نهضتُ وتَبِعتُهُما على طولِ طَرَفِ البُستانِ نحوَ حقلِ الذُّرَةِ. توقَّفنا لمُشاهَدةِ شاحِنَةِ البيك أب البيضاء وهي تَعْدُو نَحوَنا، تَدهَسُ وتُكَسِّرُ السيقانَ أمامَها، إلى أن انْزَلَقَت واقِفَةً قُبالَةَ وُجوهِنا تقريباً. كانت شاحنة صغيرة أنيقة كُتِبَت على زجاجِها الأماميِّ بحُروفٍ ذَهَبيَّةٍ عبارة: كُلُّ العيون عليّ. تَقافَزَ الجنودُ من صُندوقِها الخَلفيِّ، وسِرْنا ثلاثَتُنا أمامَ أسلِحَتِهم.

انتَظَرنا أمامَ الديسكو، خلال انشِغالِهم بتَغطِيَةِ الغنائمِ التي نَهَبوها. هَرَبَ مُعظَمُ القرويين، لم يَعُدْ هناكَ مَزيدٌ منَ الصُّراخِ، سِوى شَهَقات الجنودِ ولُهاثهم وصُراخهم والكثير منَ الضَّحِك. أمَّا المُجنَّدُ الشابُّ المسؤولُ عنَّا فقد ابتَعَدَ عنَّا لِمَسافَةٍ، وكان مبهوراً بتلك الإثارة. وبَدَلاً منَ الهَرَبِ، أجْلَسْنا، أنا ومايكل، دافيديا على المقعَدِ وَوَقَفنا أمامَها كَنَوعٍ منَ التَّمويهِ لأنَّنا لم نَكُن نريدُ أن يَلحَظَ وجودَ دافيديا أحَدٌ، فيقومَ باغتِصابِها. استغرَقَ الأمرُ منَ القائِدِ ساعةً كامِلةً حتى قامَ بتجميعِ وَضَبْطِ

قُوَّاتِه. قامَ بِحَشدِهِم صَفّاً أمامَ الديسكو، وكانوا نحو ثلاثينَ شابّاً يرتَدونَ زِيّاً أخضَرَ مُمَوَّها. تَنَقَّلَ أمامَهُم، مِن وَجهٍ لِوَجه، وقامَ بتَوبيخِهِم وتَعْنيفِهِم بِقَسوَة، وهو يُشيرُ بتِكرارٍ إلى بقايا سيارتنا اللاندكروزر في تلك الأرض المُقفِرَة. كان منَ الواضِحِ أنَّ عمليات الاغتِصابِ والنَهبِ أَقَلّ شأناً وخُطورَةً مِن نَسْفِ وتفجيرِ آلة جيدَة.

قال مايكل: «هل رأيتَ كُرَةَ اللّهَب؟ وأَبخِرَة البنزين. أخبَرتُكَ بأنَّ مِضخَّةَ الوقودِ كانت مَفْتُوقَةً».

(16 أكتوبر، الساعة 06:00 صباحاً)

أنا على يَقينٍ بأنَّ مايكل نائم الآن. إنَّه يستطيعُ النومَ حتّى لو كان تحتَ وابِلٍ منَ الرصاص. لا أعلمُ أين قاموا باحتِجازِه، هو أو دافيديا. آملُ أن يكونا معاً. أنا في الكوخِ الرئيس مع القائِدِ، وعَشَرَة إلى اثني عشر رجلاً آخرين، يَتَغَيَّرُ عَدَدُهم، يأتونَ ويذهَبون. إنَّه كوخٌ رَحْبٌ واسِعٌ، حَوشٌ مكشوفٌ في الهواءِ الطَّلق، مُحاطٌ بأسوارٍ طينيَّةٍ منخَفِضةٍ تحت سَقفٍ منَ القَشّ، وطاوِلَةُ كفتيريا، وأريكةٌ بالِيَةٌ وثلاثَةُ كراسي مكسورَة.

قاموا بأخذِ أمتِعَتي، ومَلابِسي الإضافِيَّة، وجوازَ سَفَري، ونقودي - أربعةَ آلافِ دولارٍ أمريكيٍّ مُكَوَّنة مِن فئاتِ العِشريناتِ والخَمسيناتِ والمِئات. تَرَكوا لي ساعتي التايميكس، ربما

بسببِ ازدِرائِهم للماركة، أو ربما بسببِ مفهومِ الوقت ذاتِه. وسرقوا مصباحِيَ الصغير أيضاً، ولكنَّهُم أعادوهُ لي حتى أستطيعَ الكتابةَ بمُساعَدَةِ وَهَجِهِ الضَّئيل.

لماذا أخذوا كُلَّ أشيائي عدا الساعة والضوء وقلم ريشَتي، ثم قاموا بإعطائي هذه الأوراق المُسَطَّرَةِ المَقْطُوعَةِ مِن أحَدِ الدفاترِ المدرسيَّة، وكان عددها 42 صفحة؟ جَلستُ طوالَ الليل وأنا أُخَرْبِشُ عليها لأنَّني لم أستَطِع النوم بسَبَبِ رُعبي الشديد. بعد استعادة صوابي بدأتُ أفقِدُ صوابي وأُصَابُ بالجُنون. عندما أنتَهي مِن مَلءِ تلكَ الصَّفَحات سوف يقومونَ بإدراجِها، على ما أظُنُّ ضِمنَ الفِديَةِ التي سوف يطلُبونَها.

بَدَأت الدِيَكَةُ بالصِياحِ. لا أَحَدَ يَتَحرَّكُ سِوى امرأة بالقُربِ مِنَ المراحيضِ. كانت تقومُ بِحَفرِ جُرْنٍ في الترابِ بِمِعْوَلٍ بَشِعٍ قصير اليد؛ جُرْنٍ في الأرضِ أشبَهَ ما يكون، على ما أعتقد، بالقَبر.

(16 أكتوبر، الساعة 8:00 صباحاً)

يَدّعي القائدُ أنَّ لديهِ جيشاً نظاميّاً، إلا أنَّه قد يكونُ كاذباً، ببساطة؛ ومِنَ المُحتَمل أن يكونَ مُشوَّشاً ومُرتَبِكاً، لا تَحمِلُ بدلَتُهُ المُمَوَّهَةُ أيَّةَ شارَة. وكان يرتَدي تحتَ سُترَتِهِ المفتوحَةِ قميصاً عليه شِعارٌ باهِتٌ لِقارورَةٍ مِن نوعٍ ما، وكان يُطلِقُ على نفسِهِ

لَقَبَ جِنرال، ولا يَذكُرُ اسمَهُ. ويقودُ شاحِنَتَهُ النيسان، قِشْدِيَّةَ اللونِ، تِلكَ السيارةُ ذاتُها التي تحمِلُ عبارَة: كُلُّ العُيونِ عَليَّ.

يعتَبِرُني أنا القائدَ لأنَّني صاحِبُ البشَرةِ البيضاء.

الليلة الماضية، بعدما اكتَشَفَ أنَّ لُغتيَ الفرنسِيَّةَ السيِّئة ولُغَتَهُ الإنجليزيَّة السيِّئَة تجعَلُ مِن حِوارِنا التَّافِهِ أمراً مُستَحيلاً، ضَغَطَ على أحَدِ أزرارِ مُسَجِّلِ شرائِطِ الكاسيت على طاولته وقامَ بتَشغيلِ أغنِيَةٍ اسمُها، حَسْبَ اعتقادي، «مِعطَفٌ منَ العديدِ منَ الألوان» للمُغنِّيَةِ دوللي بارتون، وقامَ بإِعادَةِ الأُغنِيةِ مِراراً وتَكراراً. تلكَ الأُغنِيَةُ فقط، ظَلَّت تَتكَرَّر. لم يَكُن ذلكَ حَرباً نَفسِيَّةً، وإنَّما كان مُحاوَلَةً صادِقَةً للتَّعبيرِ عن حُسنِ ضِيافَتِه.

في صباحِ هذا اليوم، شاطَرَني الجِنرالُ إفطارَهُ الجنراليَّ: شَرائِحَ مِن أحشاءِ بعضِ الحيواناتِ في حِساء، كانَت رائِحَتُها أشبَه برائِحَةِ الكيروسين. وقد استَغرَقَ مِنِّي أَكلُها وَوَضْعُ الوِعاءِ جانباً فترةً منَ الوقت. ورافَقَ الوجبةَ بعضُ الحلويات، كَعكَةٍ سُكَّرِيَّةٍ مرشوشَةٍ بأَرْجُلِ نوعٍ منَ الحَشرات، إنْ لم يَتَعَدَّ ذلكَ الأَرْجُلَ فقط.

(16 أكتوبر، الساعة الثانية عشر ظهراً)

بعدَ الإفطارِ، كُنتُ أظُنُّ أنَّ الجميعَ ما زالوا نِياماً، إلَّا أنَّهُم هَبُّوا جميعاً على أوامِرِ وصُراخِ الجِنرالِ واحتَشَدوا في الفُسحَةِ

بين الأكواخِ من أجلِ مُحاكَمَةٍ عَسكَريَّةٍ سَريعةٍ جداً للمُجَنَّدينَ الذين كانوا قد فَجَّرُوا سيارَتَنا اللاندكروزر.

وعندما وَقَفوا على شَكلِ دائِرةٍ وجاهَدوا أنفُسَهُم مِن أجلِ الإصغاءِ والانتِباهِ، وكان يَبلغُ عَددُهم ثلاثين أو أكثر، قامَ الضابِطُ المُرافِقُ للجِنرال، وهو مُعاوِنُهُ الرئيس، بِجَرِّ شابٍّ منَ الكوخِ؛ كان الشابُّ حافيَ القَدَمين، وقد خَلَعوا ملابِسَه عنه وأبقَوه بشورتِهِ الرماديِّ. أوقَفَهُ المُعاوِنُ أمامَ قبرٍ مَحفورٍ حديثاً. وتَمَّ تَقييدُ يَدَيهِ خلفَ ظَهرِهِ برَبطَةٍ منَ المَطّاطِ الأسوَد، كانت قِطعَةً مِن إطارٍ داخليٍّ، ربما.

كُنتُ جُزءاً مِن هذا الحُضور المُكَوَّن مِن جُنودٍ مَذهولينَ يرتَدونَ نِصفَ ملابِسهم. وَقَفَ كلٌّ مِن دافيديا ومايكل بِمُقابِلي، كانوا بَعيدِينَ عنِّي بِضعَةَ أقدامٍ فقط. بَدَت دافيديا غير مُصابَةٍ بأيِّ أذى، ولم يَمَسَّها سوء؛ منَ المُؤكَّدِ بسبَبِ سِحرِ جَوازِها الأمريكيّ.

أمّا مايكل، فلم يَكُن يتمَتَّعُ بأيَّةِ حَصانَةٍ بجوازِ سَفَرِه الغانيّ. جاءَت عيني بعَينِه فحَوَّلَ عينَه جانباً، كانت يداهُ مقيَّدَتينِ خَلفَهُ، لكنَّني لم أتَمَكَّن مِن رؤيَتِهما بسبب الحَشدِ المُتَراصِّ. ابتَسَمَ وَهَزَّ كَتِفَيه.

كان جِنرالُنا أمامَنا بوَضعِيَّةٍ مُشابِهةٍ، يداهُ خلفَ ظَهرِهِ وقَدماهُ مُتَباعِدَتان، وخاطَبَ المَجموعَةَ كُلَّها بشَكلٍ مُوجَزٍ، بالفَرنسِيَّةِ

المَحَلِيَّة أعتقد. ثم نَزَعَ نظَّارَتَه الشمسِيَّة وتَحوَّلَ إلى الجاني وقامَ بتَوبيخِهِ في وجهِهِ لمُدَّةِ خمس دقائق أو أكثر، صارِخاً في وَجْهِ وحَلْقِ ذلكَ الصبيِّ ذي الفَمِ المفتوحِ. وأثناءَ هذه الخُطبَةِ التوبيخِيَّة، تَحَرَّكَ مُساعِدُ الجِنرالِ إلى الأمامِ والخلفِ بِخُوذَتِهِ ونَظَّارَتِه الشَّمسِيَّة التي كانت كالمِرآة، وأَخَذَ يَضرِبُ بمُسدَّسِه على راحةِ يَدِهِ حتى حانَ الوقتُ لدَفعِ الشابِّ على رُكبَتيهِ. وَضَعَ المُسدَّسَ على رأسِه، فبكى الشابُّ وصاحَ وناحَ بينما كان الجِنرالُ يصرُخُ به ليَلتَزِم الصمت. وعِندَما هَدَأ كُلُّ شيءٍ، قامَ بالعَدِّ: ثلاثة! اثنان! واحد! وضَغَطَ على الزِنادِ ليَتَبيَّنَ لنا أنَّ حُجرَةَ المُسدَّسِ كانت فارِغَةً منَ الرصاص.

ضَحِكَ الجِنرالُ والجُنودُ أيضاً.

دَفَعَ الجِنرالُ مُساعِدَه جانباً، وسَحَبَ مُسدَّسَهُ الخاص وَرَفَعَهُ عالياً، ثم سَحَبَ أقسامَهُ للخلفِ؛ كانَ كأنَّهُ يتظاهَرُ بِعَرضِ كيفِيَّةِ التسدِيدِ بهذا النوعِ منَ الأسلِحَة. ثم دَفَعَ سَبَطانَةَ المُسدَّسِ على رَقَبَةِ الشابِّ وأَجبَرَهُ على الانبِطاحِ على وَجهِهِ، وانحَنى فوقَهُ والشابُّ مُستَمِرٌّ بالبُكاءِ على التُراب. وتَساءَلَ بعضُ الجنود، عمَّا إذا كان الجِنرالُ سيقتُلُهُ ويُنهي المَسألة! ... حَدَّقَ بخشونَةٍ في وجهِ كلِّ واحِدٍ منهم، واحداً واحداً، من دونِ أن يقولَ أيَّ شيء، حتى جاءَت لحظة أدخَلَهُم جميعاً عُنوَةً في حالةٍ منَ الوَقارِ والتأمُّل. وازَنَ كَتِفَيه. حَوَّلَ وقفَتَه. ثبَّتَ

قدَميه. واستمر باللعِبِ والتمثيل. كنتُ متأكداً من ذلك. لكنَّ المُسدَّس كان جاهزاً للإطلاق وأيُّ خَطأٍ صَغيرٍ سيُؤدِّي إلى وُقوعِ جريمةِ قتل، وفي إفريقيا، إذ تُؤَكِّدُ لي الأيادي القديمة، أنَّ اليَدَ إذا ما فَعَلَت ذلك مرة، فلن تَستَطيعَ بعدَها الإقلاع عن ذلك أبداً.

مَرَّت عَشرُ ثوانٍ. وَتَحَدَّثَ الشابُّ مرة أخرى - صوتٌ مُحزِنٌ يُثيرُ الشفَقَةَ ويُوجِعُ القلبَ، وَوَجهٌ كوجهِ طفلٍ حديث الولادة، مُحاولاً توجِيهَ كَلِماتِهِ إلى الوراءِ، نحوَ الرجُلِ الذي يُوشِكُ أن يقضِي عليهِ.

أطلَقَ الجِنرالُ رَصاصَةً عاليةً إلى السماء. ومرَّةً أخرى، مجموعَةٌ مِن علاماتِ التعجب عَمَّت الوُجوه، لقد خَدَعتَنا للمَرَّةِ الثانية! أدارَ ظهرَهُ للشابِّ وَصَوَّبَ السلاحَ نحوَ الحَشدِ، مُستَهدِفاً بشَكلٍ خاصٍّ وجهَ مايكل أدريكو.

كَشَّرَ مايكل عن أنيابِهِ وهَزَّ رأسَهُ ولَعِبَ دَورَ المُهرِّج. لم يَضحَك أحَد. كان على كُلِّ كَتِفٍ مِن أكتافِهِ يَدٌ سوداء، ولكِن بَدا واضِحاً أنَّ حُرَّاسَهُ لم يعرِفوا بأنَّهُ هو الشخصُ الذي أشارَ إليهِ الجِنرالُ عندما صاحَ بالانجليزية: «ذلِكَ الشخص!».

أو ربما لم يفهَموا الكلمات. قالَ ذاك الشخص، ذاك الشخص، ذاك الشخص إلى أن رَفَعَ الرجُلانِ بنادِقَهم ودَفَعوهُ إلى حافَّةِ الخَندقِ. رَفَعَ الجِنرالُ يَدَهُ وأشارَ بإصبَعِه إلى أحَدِ

الأسلِحَة، وكان رشَّاشَ كلاشِنكوف، وهو نوعٌ قابِلٌ للطَيِّ وله مِقبضٌ مُسدَّس. حَرَّكَ السلاحَ بشَكلٍ دائِريٍّ قبل أن يُصَوِّبَهُ نحوَ صَدرِ مايكل.

تراجَعَ مايكل إلى الخلفِ فَسَقَطَ في الخندقِ ووقف مع المجند الشاب، كِلاهُما في حالةٍ مُماثِلةٍ. فَوَضَعَ الجِنِرالُ فُوَّهَةَ البندقِيَّةِ على إحدى عيني مايكل ثُمَّ على الأُخرى، ثم عاد إلى الأولى. أشَاحَ مايكل رأسَهُ ثم وَضَعَ مُقَدِّمَةَ البُندُقيَّةَ في فمه، شَفَطَها، ثم قَبَّلَها قُبلَةً فرَنسِيَّةً بلِسانِه، وظَلَّ خِلال الوقتِ كلِّهِ مُحَملِقاً في وَجهِ الجِنِرالِ وكأنّهُ يُحاوِلُ إغواءَ امرأة. آه يا مايكل. إن كانَ هُناكَ مَن سَيَضحَكُ ... فمِنَ المُحتَمَلُ أن يكونَ الجِنِرالُ هو ذلك الشخص. بَيْدَ أنَّ الجِنِرال خَرَجَ عن غَريزَتِهِ وانتظر مايكل لِيُحَدِّدَ ما الذي سيَحدُثُ بعدَ ذلك. أرْجَعَ مايكل رأسَهُ إلى الخلف، وحَوَّلَ نَظرَتَهُ، فأخَذَ الجِنِرالُ هذا على أنَّهُ بادِرَةُ استِسلام، فأعادَ البُندُقيَّةَ إلى صاحِبِها وانحَنى وَوَضَعَ يَدَهُ تحتَ إبْطِ مايكل وساعَدَهُ على الخُروجِ منَ الخَندَق. تَحَدَّثَ بِرِفقٍ إلى مايكل، وأجابَهُ مايكل بِرِفقٍ أيضاً. لم أعرِف ماذا قالوا.

وبعدَ دقيقَةٍ، انتهى الحفلُ وانصَرَفَ الجميعُ. أخَذوا مايكل نحوَ الأكواخِ الأصغَرِ. ومِنَ الواضِحِ أنَّهم أَبْقَوهُ مَفصُولاً عن دافيديا.

وأثناءَ مُرورِهِ، قال لي، ولدافيديا، ولِوَجهِ السماءِ الخاوي: «سنكونُ على ما يُرام. سأَتَحَدَّثُ مع هؤلاءِ الناس. بعضُهُم من قبيلةِ كاكواو، مِثلي».

بطريقةٍ ما، لم يَقُم بِخيانَة القَدَرِ وحَسْب، بل وأغواهُ بأن يُعيرَهُ سيجارَةً قامَ أَحَدُ حُرَّاسِه بإشعالِها لهُ أثناء اقتِيادِهِ لإعادَتِهِ إلى سِجنِهِ. وبَدَأَ بِنَفْثِ سيجارَتِه والنَّظَرِ بِطَرفِ عينِهِ واثِباً إلى الأمامِ كما لو كان مُعتاداً على الدوامِ أن يُدَخِّنَ ويداهُ مربوطَتان خلفَ ظَهرِهِ.

اقتربتُ من دافيديا، قبل أن يُفَرِّقونا مُجدَّداً. قلتُ لها: «هل أنتِ بخير؟»

قالت: «أجل. أجل. وهل أنتَ كذلك؟»

(16 تشرين الأوّل، الساعة 1:30 بعد الظهر)

عدتُ إلى مَقَرِّ إقامَةِ الجِنِرال. «مِعطَفٌ منَ العديدِ منَ الألوان»، «مِعطَفٌ منَ العديدِ منَ الألوان»، «مِعطَفٌ منَ العديدِ منَ الألوان»

أعطَوني خَرْطُوشَةَ حِبرٍ جديدَةً لقلَمي، ولكنِّي ما زلتُ أُخفِقُ بالسيطَرَةِ على طَرَفِ الريشَةِ خلالَ الكِتابَةِ، مما يُحفِّزُني للتَّدَرُّبِ المُتأنِّي على فَنِّ الخطّ.

تينا،

تينـا، أشُـكُّ فـي أنَّـكِ قـد ترينني بِلَحمِـي ودَمـي مـرة أخـرى. وربمـا أقـومُ بتبنّي الصِّـدق والصَّراحَـةَ أيضـاً. ومـع كُلِّ ضربَـةٍ بهـذا القلـم، أرَدتُ أن أقـولَ هـذا: لقـد فقَـدتُ قلبي بِحُـبِّ هـذه المـرأة. أنـا واقِـعٌ فـي حُـبِّ دافيديـا سـانت كليـر. إنَّ مَنظَـرَهـا يُعميني. في هـذا الصبـاح، كانَ بَريـقُ وُجودِهـا بالقُـربِ مِنّـي يفـوقُ كُلَّ شـيءٍ حَـدَثَ بيـن أولئِـكَ الرجـالِ القُسـاةِ العَنيفيـن.

والآنَ تمامـاً، أشـعرُ بطَريقَتيـنِ مُختَلِفتيـن. أشـعرُ بالامتِنـانِ والسـعادة بـأنَّ دافيديـا بِخَيـر علـى مـا يُـرام. وأشـعُرُ بالأَسـفِ لأنَّ مايـكل لـم يَمُـت.

IV

عـدتُ مجـدّداً للإنترنـت، بعـد أن اسـتَحمَمتُ، وحلقـتُ لحيتـي، وانتعش جسـدي مـن جديـد، عَقِبَ إحـدى عشـرة سـاعة مـن النـوم المتواصـل، فضـلاً عـن احتسـائي لثلاثـة فناجيـن مـن القهـوة المُعَـدَّةِ علـى الطريقـة الأمريكيّـة[1]، كتبـتُ لـ تينـا:

سـيقوم شـباب الفصيـل 4 بالتواصـل معـكِ، وأظـنُّ أنـكِ قـد تلقَّيـتِ مُوجَـزاً ـ إلـى حـدٍّ مـا ـ مـن جماعتـكِ الخاصـة.

أشـعرُ بالنـدم الشـديد على توريطِـكِ، لا لأيِّ شـيءٍ آخر. فقـط بسبب توريطِكِ.

لا أقصـدُ أن أكـون فظّـاً، بـل مُوجِـزاً؛ لا علـم لـديّ كـم مـن الوقـت سـيبقى الجهـاز بحوزتـي.

أعتقـدُ أنهـم سـيقومون باعتـراض هـذا الاتصـال، وسـيعملون علـى مراجعتـه وتنقيحـه، وحـذف نصفـه، ولكـن اسـمحوا لـي يـا أصدقـاء أن أخبرهـا بهـذه الجُزئيـةِ دون إجـراء أيّ تدقيـق وتنقيـح:

اسـمعي يـا تينـا، عندمـا يأتـي شـباب الفصيـل 4 إليـكِ، تذكَّـري

(1) القهـوة الأمريكيـة: تتـم عمليـة إنتاجهـا بعمليـة تنقيـط الميـاه السـاخنة إلى إسبريسـو. **المترجـم**.

جيداً أنكِ في حقيقة الأمر تعملين لصالح الولايات المتحدة، وليس الناتو. أُناشِدُكِ أن لا تتحدّثي معهم. ولا أرى، في الحقيقة، ما يمنعُكِ من العودة فوراً إلى واشنطن دي سي[1]، أو حتّى إلى بيتكِ في ميشيغان.

شكراً يا رفاق! شكراً لأنّكم سمحتم لي بإرسال هذه النصيحة!

أريدُ فقط أن أكون حريصاً على عدم تجاوز حدودي مع من يقومون باستِضافَتي. من هم؟ كما نقول نحن الأمريكيّون: اللعنةُ إن كنتُ أعلم. عملاء الاستخبارات. أقصدُ حلفاء الغباء.

كان ذلك تصَرُّفاً وقِحاً منّي. لقد كانوا ودودين طوال الوقت، ولذا يتوجب عليّ أن أمحو ما كتَبْتُ.

لكن عندما رأيتُهم قادمين نحوي ضغطتُّ على مفتاح «أرسل».

*

في ظهيرة اليوم التالي، وجدتُ حقيبة ظهري، وأدوات النظافة الخاصة بي، وملابسي الداخلية - ملابسي أنا - وكانت مغسولة حديثاً؛ وجدتُها كلها على سريري. لكنني لم أجد ساعتي. ولم أجد بقية ملابسي أيضاً. ما زلنا نتجول في الأرجاء ونحن نلبس بيجاماتنا الحمراء المصنوعة من

(1) واشنطن دي سي ويشار إليها بواشنطن العاصمة (أو ببساطة، العاصمة) وهي العاصمة الفيدرالية للولايات المتحدة الأمريكية. المترجم.

القطن والألياف الصناعية، وهي ذات المواد التي صُنِعَت منها الشراشف البيضاء الموضوعة على أسِرَّتِنا؛ إنها ليست كالأَسِرَّة العادية التي نعرفها، وإنَّما أَسِرَّة خاصة بالجنود في الثكنات العسكرية. ما زلنا أيضاً نحتفظ بما صرفوه لنا من جوارب، وسراويل قصيرة، وقمصان داخلية زيتونية اللون. وسمحوا لنا بالاحتفاظ بأحذيتنا التي قَدِمنا بها.

أقصدُ بـ «نحن» نفسي وشريكي، وهو رجل فرنسي، يُدعى «باتريك رو» - ليس «باتريس رو» - رجلٌ ضئيل الحجم، ذو وجهٍ كوجه العصفور، ويلبس نظّارة كبيرة مُقَرَّنةً من الجوانب، ولديه لحية لم يحلقها منذ خمسة أيام، وأظافر مقضومة. رائحة جسده تشبه تلك الرائحة التي تنبعث من زيت بذر الكتّان ... ولعلي أشعر بهذا بسبب أنفيَ الحسّاس وحسب، الذي يشتمُّ الزيف، والمدسوسين، والجواسيس، والوشاة؟

لن يتمكّن جيش الكونغو من الوصول إلينا في هذا المكان. سأنامُ بأريَحِيَّة تامّة وأنا أعلم أنني لن أستيقظ على نَخْزَةٍ بفُوَّهةِ بندقيةٍ مُصوَّبةٍ نحوي، ثمَّ يقومون بإطلاق النار عليّ منها؛ على الرغم من أنني أتوقع أن يأتي عليّ صباحٌ ما سيقدمون لي فيه فنجاناً من القهوة اللّذيذة كنوعٍ من الترحيب، وبعدها سيقومون بإعلامي بأنني رهن الاعتقال بتهمة التجسّس.

*

في ليلتي الثانية، بعدما تناولت العشاء، كتبتُ لـ تينا على الإنترنت:

لن أضايقكِ بالتماساتي كي تغفري لي وتسامحيني. آمل أن تكرهيني بنفس درجة كُرهي لنفسي. لن أقدّم لكِ أيّة تفسيرات، وأنتِ أساساً لن تفهمي شيئاً إلا أمراً واحداً فقط، وهو: سألَني مايكل ذلك اليوم عمّا إذا كنتُ حقاً أرغبُ بالعودة إلى وجودي البائس ذاك. فأجبتُه بـ كلّا.

لقد قاموا بفحص ومراجعة عشرات الأوراق التي ملأتُها بخَطِّ يدي. وعلى ما يبدو، لم يجدوا فيها ما يتعارض مع خططهم في السيطرة على العالم؛ وإذا ما قُدِّرَ لي أن أتحرر من هذا المأزق، فسأقوم بنسخ وإرسال هذه الصفحات إليكِ، ومن يدري فقد أقومُ يوماً بكتابةِ سَردٍ مُفصّل لكلِّ ما جرى منذ البداية، هل كان ذلك قبل 17 يوماً؟ هل حقاً كانت المدة سبعة عشر يوماً فقط؟

لقد قاموا بتوضيح بعض الأشياء لي. سيمنحونني ساعة واحدة فقط لاستخدام الإنترنِت يومياً، سأرسلُ خلالها لِمَنْ أتواصلُ معه أو معهم فقط (بمن فيهم أنتِ)، وسيتوجّبُ عليّ أن أكون حريصاً في ألّا أكشف بطريقة واضحة ما يقومون بفعله هنا، وإلا ماذا سيحصل؟ هل سيأخذون بيجامتي الحمراء؟

يمكنني إخبارُكِ الآن أنني ما زلتُ في إفريقيا. خلف

أسلاك الكونسرتينا[1]، الشائكة الحادة، اللامعة الجديدة. خلف الحواجز التي يبلغ سمكها أربعة أكياس رملية، وارتفاعها قرابة الأربعة أمتار.

أعتقدُ أنهم سيحذفون هذا الجزء أيضاً، إذا ما كان له قيمة: أنا متأكد أنني هنا بفضل دافيديا سانت كلير، وأيضاً بفضل علاقتها مع المجموعة العاشرة من القوات الخاصة الأمريكيّة، وهم مَن أجدُ نفسي بين أيديهم الآن. أعتقد أنَّني بالأمس لمحت قائدهم الشجاع، الكولونيل جورج ثيبس ذاته، هناك في الميدان. إنه قائد المجموعة العاشرة بأكملها. وأنا على يقين أنهم قصدوا أن يجعلوني أراه.

هذا ليس سجناً؛ نحن، أنا ورفيقي، الوحيدان فقط اللذان يرتديان بيجاماتٍ حمراء. تبدو الترتيبات الخاصة بالمعتقلين الأفارقة، وعددهم خمسون أو أكثر (وهم يرتدون بيجامات بيضاء) ترتيبات مؤقتة، حيث يتم اقتيادُهم وجمعُهم وسرعان ما يُخلى سبيلهم بعد ذلك.

كتبوا على بيجامة كل واحدٍ منّا أسماءنا «ناير» و«رو»، نسجوها يدوياً بالخيوط.. لكنهم، كما لاحظت، لم يكتبوا أيّة

(1) سلك الكونسرتينا السلك المطوي (بالإنجليزية: Concertina Wire) هو نوع من الأسلاك الشائكة مكون من اللفائف المعدنية مع الأوتاد الخشبية البسيطة لتكون عوائق سلكية. ترجع تسمية سلك الكونسرتينا بهذا الاسم إلى تشابه لفائف السلك مع آلة الكونسرتينا الموسيقية. **المترجم**

عبارات على قمصان أو متعلقات العناصر الموجودين هناك.

أثناء تناولنا لوجباتنا، كان رو حريصاً على تنظيف عدسات نظارته، بالنفث عليها ثم مسحها بطرف قميصه. لا يتحدث معي إلا بالفرنسية، ولكنه ينطق حرف الراء كما يلفظها الإسبان. استنتجت أن رو، وعقب عودته من مُهِمَّةِ عملٍ في مارسيليا، اكتشف أن زوجته، الكونغولية الجنسية، مفقودة. وأثناء رحلةِ بحثِهِ عنها، اقترف شيئاً ما، لا يستطيعُ التكهن به، شيئاً ما وَضَعَه في صراع مع الحلم الأمريكيّ.

لا أحد يمنعُني من التجوال في الأنحاء، ولكن إذا ما قمتُ بذلك، يقومُ واحدٌ أو أكثر من المجنّدين الضخمين بالتجوال في ذات الأماكن التي أجول بها.

أنا أجزمُ أنَّ دافيديا ما زالت هنا. ليس هناك ما يدعوني للاعتقاد بأنهم أخذوها إلى مكان آخر.

مايكل أدريكو في مكانٍ آخر. لم يأتِ إطلاقاً إلى هنا. لقد غادر. لقد هرب.

*

عقب يومين من الاستجواب القاسي، حصلتُ على استراحة.

لا إنترنت؛ انتهيتُ من تدوين رسالةٍ بخطِّ يدي إلى تينا. واستنفدتُ جميع صفحات دفتر ملاحظاتي عندما كتبت هذا التدوين السريع:

نمتُ لمدة ساعتين ورأسي على الطاولة، استيقظت للتوّ ووجدت أن كل شيءٍ قد تغير تماماً. أعاد لي الجنرال حقيبتي وملابسي، ومئات الدولارات من الأربعة آلاف دولار الخاصة بي أيضاً، كلها من فئة العشرين دولاراً.

كان مايكل يجلس في الصندوق الخلفيّ لسيارة البيك أب الخاصة بالجنرال، مَحَرَّرَ اليدين. رأيتُ دافيديا وهي تصعد إلى السيارة من الأمام؛ انقلب اليوم. ما إذا كان هذا اليوم قد انقلب رأساً على عقب فأنا أنعم بالكثير من النشاط والإثارة، حان وقت الذهاب.

... حسناً، يا تينا، أعتقدُ أنكِ استشعرتِ ما أودُّ قولَه. ارتقائي من سجين مذعور إلى شخص معتقل حائر.

لا بدّ أن مايكل، أو دافيديا نفسها، قد أخبر الجيش الكونغولي عن صلة دافيديا بالقوات الخاصة العاشرة. وأنا على يقين أنه قد تم إخبارهم عن صلة دافيديا فقط؛ فعندما اختفى مايكل لم يكترث له أحد.

آخر مرة رأيت فيها مايكل كانت وأنا أهُمُّ بالصعود إلى الشاحنة من الأمام، مع الكونغولي المُسمَّى بالجنرال ومع دافيديا. انحنى مايكل على الدرابزين الخلفي للشاحنة، ووصل - تقريباً - إلى نافذتي، وأعطاني حبّةً صغيرةً من اللبان.

«تفضّل. أشغِل نفسَكَ وتسلَّى بها».

في تلك الليلة، وعقب انتهاء موعدنا، حدث شيء غريب بدا وكأنّهُ خدعة سحرية. كانت السماء تمطر، فقام الرجال الموجودون بالخلف في شاحنة الجنرال البيك أب بتغطية أنفسم بغطاءٍ بلاستيكي قاتم اللون. ثم أزالوا الغطاء. كان مايكل قد اختفى.

كان موكب الحراسة المُختص بنا مكوناً من ثلاثِ شاحناتِ نيسان بيك أب تَخُصُّ قوات المشاة الأمريكيّة، تماماً كشاحنة الجنرال، إلا أنها كانت زيتونية اللون وليست بيضاء.

وما إن صعدنا، دافيديا وأنا، على متن الشاحنة، حتى قال لي أحد الشبّان الذين يحرسوننا، «جبل نيوادا».

«صحيح؟»

«أنا من هناك. أنا من قبيلة كاكوا».

«حسناً؟»

«صديقُكَ هناك».

«هل تقصد مايكل؟ صديقي الإفريقيّ؟»

«نعم. لقد غادر إلى جبل نيوادا».

«أوه!» قلت ـ وقد فهمت ما قاله بالشكل الصحيح لأول مرة ـ «جبل المياه الجديدة».

أما عن آخر التطورات يا تينا: فلا جديد لأخبركِ به. قضيتُ طوال اليوم بالكسل، في عالم النسيان، في الأمل. لقد تقدمتُ

باقتراح، وقد يتم الأخذ به. قد نتوصل إلى ترتيبٍ معين. على أيّة حال، لم يقولوا لا، وقد أعطوني إجازة ليوم واحد. وأنا بحاجة ماسّة لها - رأسي ما زال يدور، وقد نمتُ قليلاً جداً خلال الليلة الماضية، وقبل ذلك لم يكن لديَّ شهية لتناول العشاء، حيث تم قطع غدائي بسبب هذا الأمريكيّ الذي هبط علي من السماء وهو، واو، أحمقُ حقاً، وعلى صلة باستخبارات الناتو على ما أعتقد، لكنه حجب هويته عني.

كنتُ أجلسُ على طاولة مع باتريك رو، رفيقي في الخيمة وزميلي المحتجز، ظاهرياً، سمعنا ما بدا وكأنّهُ هبوط مروحية، على متنها هذا الرجل الجديد، فلم نُعِر اهتماماً لذلك وقتها، فالمروحيات تأتي وتذهب. بعد عشر دقائق دخل ذلك الرجل وركض عبر الكافيتريا كحيوان كرتوني ساذج، أعني في حالة من الحماقة والصفاقة الشخصية، كان يمشي كما لو كان يحمل رزمة من الأطباق على يديه ويحاول المحافظة على توازنها، إلا أنه كان يضع يديه على مستوى صدره على ذلك النحو دون أي إطباق. كان يرتدي قميصاً أزرق مُزخرفاً بالمربعات، وسروالاً كاكياً، وحذاءً رياضياً بنيّ اللون. «تعالَ وتحدث معي». قلتُ: «لا». كان لديه قليل من الشعر البنيّ مع بقعة صلعاء كبيرة. وخدود ممتلئة وعيون حادة غاضبة. كان شاباً في منتصف الثلاثينيات تقريباً.

وقف إلى جانبي واتّكأ على الطاولة، واستمر بالنظر إليّ إلى أن جاء رقيب وجنديّ، قاما برفعي من ذراعي من الخلف. وهما يقومان باقتيادي بسرعة إلى خارج المكان، ذهب إلى الطابور ووقف ينتظر دوره للحصول على وجبة الغداء.

على الإنترنِت، وقبل أن أضغط على زر «أرسِل»، قمتُ بإضافة:

أخذني الجنود إلى خيمة، ثم غادرها الرقيب، ووقف جندي مسترخياً على باب الخيمة. جلستُ على نصف الأثاث الموجود في الخيمة، أيْ على أحد الكرسيين القابلين للطي.

عاد الرقيب مع كرسي خاص به، وفتحه، ثم جلس عليه وحملق بي. انتظرنا معاً وصول أول المحققين لمدة ثلاثين دقيقة.

لم أقُل شيئاً، ولم يقُل الرقيبُ شيئاً.

كان حاضراً في كل دقيقة من كل جلسة، ولم يقل شيئاً أبداً في كل مرة، ولم يتوقف عن التحديق بي أبداً.

❋

كان على إجاباتي أن تكون سريعة؛ فمن يتردد سيكون هو الكاذب.

«نحن حصلنا على الكثير من الرسائل منكَ، كلها تقولُ لا يوجد شيء للإبلاغ عنه».

«نحن؟»

«لقد تم إرسال تقاريرك إلينا. كانت كلها تذكر أنه لا يوجد جديد».

«إذا لم يكن هناك شيء للإبلاغ عنه، فهذا هو ما قمت بالإبلاغ به. هل تُفَضِّل أن أقوم باختلاق وفبركة الأشياء».

«لماذا كنت تقوم بإرسال رسالتين متطابقتين، لتقول: إنه لا جديد، بفاصلٍ زمنيٍّ يبلغ 32 ثانية بين الرسالتين؟»

سقطت معدتي بين فخذيّ. ما أزعجني جداً أنَّني لم أستطع السيطرة على أنفاسي.

«وفي الثاني من أكتوبر أرسلتَ من مُنشأة فريتاون رسالتين متتاليتين بينهما ثلاثون ثانية، لتقول: إنه لا يوجد جديد. لِمَ فعلتَ ذلك؟»

«لقد كان ذلك أولَ استخدامٍ لي لِمِثلِ هذه المُعدَّات؛ لذا اخترتُ إرسالَها مرتين».

«ولكنك في الحادي عشر من أكتوبر أرسلتَ رسالةً تقولُ: «لم يَجِدَّ أيُّ جديد» من محطة آروا. ألم تكن وقتها تستخدم هذه الأجهزة للمرة الأولى؟»

«كان لديَّ ثقة في المعدات هناك لأن التجهيزات هناك بدت أكثر قوة ... كان من الواضح أنّها أكثر قوة، فلم يبدُ لي أنه من الضروري أن أكرر الرسائل وأبعث ما يزيد عن الحاجة».

«إذا كنت تعمل كدنماركي فلماذا لا تتصرف طبقاً للطريقة الدنماركية؟».

«عفواً! ماذا تقصد؟»

«إذا كنت تعمل كدنماركي، فلماذا لا تسافر كدنماركي؟»

«ظننتُ أنَّني كنتُ أعملُ لدى الناتو».

«أنتَ كابتن في الجيش».

«أجل».

«في أيّ الجيوش؟»

«الدنمارك».

«وتُبْرِزُ جوازَ سفرٍ أمريكيّ».

«جواز السفر الدنماركي فيه مخاطرة، لأنني لا أكادُ أتحدثُ الدنماركية على الإطلاق. هذا يجعلُني أبدو مُزيَّفاً».

«رسالتان بـ لا جديد وبينهما ثلاثون ثانية.. أليست هذه إشارة واضحة وصريحة جداً؟»

لأنه كان على حق فقد التزمتُ الصمت.

«من قام بالتقاط ورصد تلك الإشارة الصريحة الواضحة؟ ولمن تم إرسالها من الأساس؟»

«هذا ممل. ألا يمكننا أن نتحدث فقط؟

«ألاحِظُ أنك تلبس اللون الأحمر».

«الآن فقط لاحظتَ ذلك؟»

«الأبيض للكبار. والأحمر لمن يرفضون الامتثال. بروتوكول جيتمو»[1].

«خليج غوانتانامو؟»

«نعم فعلاً».

«كل تلك النماذج والقوالب القصيرة الأنيقة من البروتوكولات.. أمقُتها».

«أعطِنا موقع مايكل أدريكو».

هنا قمتُ بالعد حتى رقم خمسة قبل الاعتراف، «لقد فقدتُّهُ».

«موقع عام؟ أوغندا؟ الكونغو؟»

«الكونغو».

«الشرق؟ الغرب؟»

---

(1) معسكر الاعتقال في خليج غوانتانامو وهو معروف باسم جيتمو (Gitmo). يقع معتقل غوانتانامو في خليج غوانتانامو وهو سجن سيئ السمعة، بدأت السلطات الأمريكية باستعماله في سنة 2002، وذلك لسجن من تشتبه في كونهم إرهابيين، ويعتبر السجن سلطة مطلقة لوجوده خارج الحدود الأمريكية، وذلك في أقصى جنوب شرق كوبا، وتبعد 90 ميلاً عن فلوريدا، ولا ينطبق عليه أي من قوانين حقوق الإنسان إلى الحد الذي جعل منظمة العفو الدولية تقول: إن معتقل غوانتانامو الأمريكي يمثل همجية هذا العصر. **المترجم**

«الشرق».

«بالقرب مِنْ هنا؟»

«أستطيعُ التخمين فقط».

«افعل ذلك إذن».

«أعتقدُ أن لديه سبباً لأن يكون في المنطقة».

«لقـد كان لديـك، ثـم فقدتـه، ثـم تقـول: إنـه يمكننـا الوصـول إليـه. كان يجـب علينـا أن نعلـم بذلـك. أليـس هـذا شـيئاً يجـب الإبـلاغ عنـه؟»

«من أيّة منشأة؟ لقد كنا في الأدغال».

«أنا أعتبر هذا شيئاً يجب الإبلاغ عنه».

رفعت إصبعي الوسطى: «قم بالإبلاغ عن هذا».

«صدِّقْني، سأفعل».

«جيد».

«بدأنا الآن نصل إلى نقطة ما»، قال: «هل تدخن؟»

«لا».

«حشيش؟ أفيون؟»

«كلا على الإطلاق».

«أيٌّ منهما؟»

«كُفَّ عن هذا».

«ماذا عن الكحول؟»

«نعم».

«صحيح. تم الإبلاغ عنك وأنت مخمور في مطعم بابا ليون، هناك في فريتاون في ...» وبدأ بمراجعة دفتر ملاحظاته.

تباً لهورست. برونو العجوز. قلتُ، «مساءَ السادس».

«إذن أنت تعترف».

«أنا أتفق معك بخصوص التاريخ. وليس بخصوص حالتي. لم أخضع لاختبار نسبة الكحول».

«ماذا عن إرسالك لرسالةِ الجنون والانهيار العصبي، (تحوي بعض العبارات البذيئة)، هل كنتَ مخموراً؟»

«أنا الآن في حالة صحو. تباً لك».

فقال: «كابتنناير، في مارس سنة 2033، سيُقدِّمونَ لي ساعةً ذهبيةً، وبعدها يُمكِنُني التقاعد. حتى ذلك الحين، ليس لديَّ أيّ شيء أفعله سوى هذا».

«أنا اكتفيتُ بالإجابة عن الأسئلة».

«كما ترغب. ولكننا، أنت وأنا، سنبقى هنا».

«متى يُمكنُني رؤية محامٍ؟»

«حسب تطور وضعك القانوني، ستُمنح هذه الفرصة».

«وحالتي القانونية هي ـ ماذا؟»

«رهنُ التطور. وِفْقاً للتقدم الذي ستحرزه هذه المقابلة».

«حسناً، لقد توقف التقدم. متى باستطاعتي المغادرة؟»

«في الوقت الحالي، أنت محتجز دون إمكانية اللجوء إلى أيّ استشارة قانونية بموجب قوانين مكافحة الإرهاب الأمريكيّة».

«أيّ قانون على وجه الخصوص؟»

«يمكنك أن تتوقع أن يتم إعلامك بذلك مع تطور وضعك القانوني».

«حسناً. لنفترض أن هذه المقابلة ستجري بسلاسة. ما الذي يمكنك تقديمه لي؟»

«سأكون مستمعاً جيداً».

«إذن أنا من سيقومُ بتقديم العرض»، قلتُ. «سأقومُ بإخباركَ بكل شيء، وسأتوقعُ أن تقومَ بإحضار شخصٍ أعلى رُتبةً منك، شخصٍ قادر على التعامل مع موقفي».

«لن أنظرَ بأيّة عروض».

«إذن سأفترضُ أنك غير مُخَوَّل».

«لا أوصيكَ بتقديم الافتراضات».

«لكنك بالتأكيد تستطيعُ إرسالي إلى المسؤولين ذوي الرُتَبِ الأعلى».

«مَحْضُ افتراضٍ أيضاً».

«حسناً. تم سحب العرض. وليكُن الصمتُ هو سَيِّدَ الموقف من الآن».

كان حارِسُنا، الرقيب، هو الشخص المناسب لتقليده ومحاكاته. كان يجلسُ على مقعده، وقد أراح يديه على ركبتيه، ولم يقم بتحريكهما طوال الوقت.

خلال نصف دقيقة اضطررتُ لِمَسْحِ العرقِ عن شفتي العليا. لماذا بدأتُ هذا النزاع؟ وهل ما قلتُهُ لهم كان ذا أهمية؟ إنهم يحفرون فقط من أجلِ التنقيب عن الأكاذيب، وعندما يُظهِرون الحقيقة، سيصرفون النظر عنها وسيطرحونها جانباً، ثم يواصلون الحفر؛ أغبياءُ كالكلاب.

كان لدى المُحقِّقِ شعور بأن لا يسمح لهذا الأمر بالاستمرار. نظر إلى ساعة يده التي ربما كانت من البلاتين، «لديَّ فكرة، يا كابتن ناير. لِمَ لا تقومُ أنت بتكرار العرض، وأقومُ أنا بقبوله؟»

*

كان لخيمتنا سقف جيد مصنوع من المطاط المُضاد للتسرب. وناموسيةٌ مُرَكَّبَةٌ ضد البعوض، تسمح للضوء الشديد اللاسع أن يمر من خلالها طوال الليل، ولأشعةِ الشمسِ المُصْفَرَّةِ المزعجة جداً وعديمة الظل نهاراً. وباستثناء الميكروويف وأبراج الأقمار الصناعية، كانت القاعدة تُشبِهُ

مساحةً من الأنقاضِ المُقدَّسةِ للسكان الأصليين، ومخابئَ الرمل المُحصَّنة، وأكواخَ الكُوُونْسِيْت[1] التي تبدو للعيان من خلف أكوام التراب التي تم جَرْفُها أمامها، وفي وسط هذا كله، كان هناك مُوَلِّدانِ ضخمان هائلان لا يتوقفان عن العمل أبداً. ولا تُرى أَيَّةُ خزّاناتٍ للوقود أو المياه، من المؤكد أنها مدفونة تحت الأرض. وهناك أيضاً هكتار مليء بالشاحنات والسيارات القتالية، وحظيرةٌ كجبل صغير، ومُقَدِّمَةُ مروحية. وكان البوق يعزف، صباحاً ومساءً، بشكل حيّ وليس تسجيلاً، نداءات الاستيقاظ والنوم.

كان من الممكن لمنطقة أكياس الرمل المحيطة بنا أن تستوعب ثلاث خيام أخرى؛ إلا أن منطقتنا كانت منفصلة عن المناطق الأخرى، كانت بمفردها. أحَبَّ زميلي في الخيمة الجلوسَ على الجدار والتحديق بالطريق المقابل للمنطقة المُسَيَّجَةِ بالسلاسل والمليئة بالأفارقة، ثمة ما يقرب الخمسين منهم، كانوا من جماعة «جيش الرب» على ما أظنّ، أو متعاونين مع الأعداء. كانت النساء في الجانب الشمالي، والرجال في الجنوب. لا وجود لأطفال. قضى الرجال وقتهم في مواجهة الحاجز، أصابعهم تقبض على الأسلاك، وهم يضحكون ويتحدثون. في حين شكلت النساء كتلة واحدة

---

(1) ماركة تجارية لأكواخ متنقلة، (بالإنجليزية: Quonset hut). **المترجم**.

على الجانب الآخر، ولم يَكُنَّ ينظُرنَ إلى الرجال أبداً. وأحياناً أرغمتهم الأمطار على الاختباء تحت الستائر البلاستيكية الزرقاء المعلقة في الزوايا. وكثيراً ما كانت تندلع المشاجرات بين النساء. لم أسمع أبداً أيّ صوت يشبه صوت دافيديا.

ظنَّ باتريك أنه قد يلمح زوجته بينهن، هكذا كان يزعم. كان دائماً ما يكرر هذا، ولكني لم أكن آبه بكلامه.

كنا نتناول وجباتنا مع الجميع. كان الضباط والمجندون يأكلون معاً في مجموعة كبيرة في ثكنات فسيحة مع الزوار المدنيين، وطواقم طائرات الهليكوبتر المخصصة للعمليات الخاصة، والمحتجزان من بلدان حلف الناتو، وهما باتريك وأنا وحدنا، الوحيدين اللّذين يرتديان بيجامات حمراء.

تجدُ شعبة الأنشطة الخاصة نوعاً من الفائدة، كما أعتقد، في البدءِ بتوجيهِ الأسئلةِ إليك عندما تكونُ الشوكةُ في منتصف طريقها إلى فمك. ينتزعونك من مكانك انتزاعاً، وعندها وداعاً لشطيرة الهامبرغر؛ ثم مباشرة إلى المحقق.

هذا الأمر كان جديداً. وكان جيداً أيضاً.

*

التقينا في أكواخ الكُوُونْسِيْت، في مكتبٍ به طاولة مكتب، وزوج من كراسي الطعام الألومنيوم، وبعض الصناديق الفارغة من الورق المقوى وحاوية كرتونية لوجبات الطعام الجاهزة،

كان يمكـن أن يصـل ارتفاعهـا إلـى رقبتـي لـو وقفـت بداخلهـا. قـال: «إنهـا وجبـات مغلفـة فـي ظـروف». «هـل لديـك الرغبـة بتنـاول واحـدة؟» رفضـتُ العـرض. فقـدم لـي قهـوة سـادة. كان بإمكانـي اختيـار الشـاي بالحليـب.

قلت: «أين الرقيب ستون اليوم؟»

«الرقيب ستون؟»

«لا أعلـم إذا كان اسـمه سـتون، ولكـن يبـدو أنـه بالتأكيـد مصنـوع منـه»[1].

«لا يوجد من هم برتبة رقيب هنا».

«لـم يقـدم نفسـه لـي. ولـم يقـم الأفـراد المدنيـون بفعـل ذلـك أيضـاً».

«بموجب الأنظمة الحالية، هذا ليس متطلباً».

«لكـن فـي ظـل هـذه الظـروف، قـد يكـون ذلـك أمـراً لائقـاً ومهذبـاً».

«بالتأكيد. أتفق معك».

«إذن، من أنت؟»

---

(1) كلمـة «سـتون» بالإنجليزيـة (stone) تعنـي صخـر؛ فعندمـا قـال أنـه «مصنـوع منـه» كان يعنـي أنـه مصنـوع مـن الصخـر»، إشـارة إلى قسـوته وشـدّته. **المترجم**.

«دعنا نتخطى مثل هذه المجاملات في الوقت الحالي. هل بإمكاني اقتراح ذلك، دون إثارة غضبك؟»

كنتُ مُستاءً لدرجة أنني امتنعت عن الإجابة.

قام بالكثير من الحركات من أجل وضع كيس من الشاي في الكوب. لقد كان أكبر سناً من المحقق الأوّل، ولكنه بدا أصغر بطريقة أو أخرى، كان شعره مصففاً بطريقة تلائمه خِصِّيصاً، وكان يلبس سروالاً داكن اللون، وقميصاً أبيضَ جميلاً فيه أزرارٌ بأكمامه، لا أعلم إذا كان من الحرير أم لا، ولكن ربما كان كذلك. كان مظهرُ الرجلِ هو المظهرَ الذي أحاولُ الظهورَ به.

جلس في مواجهتي وقد تلامست رُكبَتانا تقريباً. وكان كلانا يراقب طريقة شرب الآخر من فنجانه.

«كابتن ناير، أودُّ معرفة رأيك».

«أنا مليءٌ بالآراء».

«جيد. حسناً. حسب رأيك الكامل، هل كل ما قلته لنا خلال اليومين الماضيين لم يكن إلّا مجردَ أكاذيبَ بائسةٍ لا يُمكنُ تصديقها؟»

عددتُ للثلاثة. «نعم». وعددتُ مرة أخرى. «الآن، هل بإمكاني أن أسألك سؤالاً؟» صَمَتَ. «إلى أين أنت ذاهب؟»

«لن أذهب إلى أيّ مكان».

«ولِمَ لا؟»

ارْتَشَفَ رشفةً من فنجان الشاي.

«في حال أنَّني سأقولُ الحقيقة».

أنهى احتساء الشاي. «أو في حال أنك توقفتَ عن الكذب؟ هل تريدُ المزيد من القهوة؟»

«لا شكراً».

نهض من مكانه ووضع أكوابنا جانباً، ثم سحب كرسيه خلف مكتبه وجلس. قال: «قمتُ بمراجعة كلِّ ما كتبتَه بيدِكَ»، وفتح أحد الأدراج وأخرج مُجَلَّدَ مانيلا[1].

«نعم».

وضعه بعيداً أمامه. كان يحتوي على رسائل إلكترونيّة مطبوعة، وملاحظتي الطويلة إلى تينا. ثم قال: «لقد احتفل بك الجيش الكونغولي حقاً».

«نعم».

«أمر مُرهِق».

«نعم».

---

(1) مجلد مانيلا (manila file folder) هو مجلد ملفات مصمم لاحتواء الوثائق والمستندات، يتكون عادةً من ورقة كبيرة قابلة للطي إلى النصف، على الرغم من أن اللون البرتقالي هو السائد إلا أنه أحيانًا يتم استخدام ألوان أخرى للتمييز بين فئات الملفات. المترجم.

قضى بضع دقائق في متابعة أوراق الرسالة، التي كانت مُقَرْمَشَةً من العرق والدموع. «بعض الأحيان أتمنى لو أن لديَّ الجرأة الكافية لأقول مثل هذه الأشياء، ولكني لا أملكُ الجرأة حتى للتفكير بها».

لم أقُم بالرد.

«بعبارة أخرى، إننا نرى كثيراً من الغضب والتوتر، وهذا ليس من خصائص توقعاتنا. مهما كان حجم التوتر والضغط النفسي».

«أنا لا أنكرُ ذلك، لقد كنتُ وما زلتُ في حالة مزاجية صعبة».

«بكل تأكيد. هذه طريقة أخرى للتعبير عنها، إن كنتَ تظنّ أن كل هذا مجرّد شيء هزلي».

«حسناً! لقد تم إرسالي لهذه المنطقة في واجب، والآن، بعد أسبوعين، يتم التعامل معي على أنني من الإرهابيين».

«حسب اعتقادي أنت تُعَدُّ غائباً عن واجبك».

«ولكنني لستُ مُتغيّباً، أنا حاضر. ها أنذا، بانتظار العودة إلى العمل».

«قام ملحق القوات الخاصة بتمرير ملاحظةِ غيابٍ بلا إذن، وبدأ بإطلاق عدة أصوات تحذيرية حول اليورانيوم المخصّب.

لقد تم إرسالكَ كي تتواصل مع الجهة التي أرسلتك، ولتوافيهم أيضاً بتقريرٍ مُفصَّلٍ عن المهمة التي أُرْسِلْتَ بشأنها. ثم التزمتَ الصمت». أمسَكَ ورقةً تحتوي على بريد إلكتروني مطبوع، أمسَكَها من زاويتيها العلويتين ورفعها أمام وجهي. كان مكتوباً فيها: «حتّى هذا الانفجار اللعين».

«كنتُ أقومُ بمهمَّتي وأتابِعُها وِفقاً لما كنتُ أراهُ مناسباً».

«وهذه الرسالة التي تتفجر بالغضب؟ كلمات بذيئة.. وأشياء من هذا القبيل؟».

«الجميعُ يميل إلى ذكر مثل هذه الكلمات».

«أعرف. إنها تُثير الاهتمام. ولكن لماذا قمت بإرسالها؟».

«مسرح». قلت.

«حقاً».

«إنني أتعامل مع بعض عملاء الموساد المُحتالين، كان يتوجَّبُ عليّ أن أجعل الأمر يبدو بصورة جيدة».

«أنتَ تقولُ: إن أحدَ عملاءِ الموساد كان يجلسُ بجانبكَ وأنت تقوم بإرسال الشتائم لزملائك في الناتو».

«هل سجّل الرجلُ الأخير مقابلتنا؟ عفواً؟ هل سمِعتَها؟».

«قرأتُ الأجزاء المُظَلَّلَة بقلم التظليل في النسخة المكتوبة للمقابلة».

«إذا أردتَ معرفة المزيد من التفاصيل، فيمكنك قراءة النسخة بأكملها، لكن لا تطلب مني إعادة صياغتها وقولبتها».

«كل هذا، والمراسلات المجنونة، والتخلص من معداتك العسكرية، وأجهزة الاتصال العسكرية، وقيام الجيش الكونغولي بِضَمِّكَ إليه، كل هذا كان من أجل الوفاء لأوامر رؤسائكَ بخصوصِ مراقبةِ هذا الشخصِ عن كثب. وتقولُ: إن حجم مهمتك قد تم تخفيضه بصورة ملحوظة. ثم تتقدم باستراتيجية لتبدأ من جديد».

«نعم».

جلس للخلف رافعاً يديه الفارغتين وهو يهز كتفيه، وبدأ يهز رأسه وهو يبتسم، ثم قال: «مِنَ الصعب معرفة ما يمكن فهمه واستنتاجه من هذا كله».

«أنا أريدُ أن أسأل عن دافيديا سانت كلير».

«بخصوص هذا الموضوع، فليس لديّ أيّة معلومة لأشاركك إياها. أنا جاد فى كلامي، لا أعرف شيئاً أبداً. لكنها ليست في أيّ مأزق أبداً. أنا مهتم أكثر بالشخصيّة التي قمتَ بإرسال الملاحظات لها. تينا؟ هل هذا هو اسمها؟».

«يمكنُكَ قراءة اسمها هناك. أستطيعُ قراءته بالمقلوب».

«اسمها تينا هانتنجتون. وتعمل لصالحنا نحن، في أمستردام».

«من أنتم؟»

«من؟ تقصد أنا؟»

«أنت تقول نحن. من نحن؟»

ضحكنا سوية.

«نحن الأمريكيون، من الولايات المتحدة الأمريكيّة». قال.

«نعم. إنها تعمل لصالحكم. هل أنتم الناتو؟»

«كلا. أنا مُلحَقٌ بحريّ أمريكيّ».

«برتبة؟»

«أنا ملحق فقط. ولست تابعاً بشكل رسمي، فقط ملحق».

«لذلك لا تحتاج إلى محيط».

«لديَّ محيط. أنا بالفعل مُعَيَّنٌ على ظهر سفينة».

«في المحيط الهندي؟ الأفريقيّ الأطلسي؟»

«حسناً، سفينتي تتجول في أكثر من مكان. لديها محركات بمراوح».

«ناقلة؟»

«كلا، بل سفينة قيادة. مجمع مكاتب عائم. هي فقط سفينة ركاب فاخرة. «USSOCOM»».

«لا أعرف معنى هذا».

««USSOCOM»؟ تعني قيادة العمليات الخاصة الأمريكيّة. والسفينة هي مركز القيادة الإقليمي».

«لهذه المنطقة».

«أجل».

«وهذا يعني: جمهورية الكونغو الديمقراطية؟ شرق إفريقيا؟».

«لـ أفريكوم. أفريقيا. القارة بأكملها».

شعرتُ فجأةً بالودِّ تجاهه. اقتربتُ منه أكثر لدراسة وجهه. «من أنت؟»

«أنا الشخص الذي يستطيع التعامل».

«هل ما زلت بلا اسم؟»

«الاسم الذي لديّ هو سوزان رايس».

«أنت لست أسودَ بما يكفي لتكون سوزان رايس».

«بالإضافة إلى ذلك، إنها امرأة».

«كنتُ على وشك قول ذلك».

«أنا أقرب شيء لسوزان رايس».

إنها مستشارة الأمن القومي الحالية في البيت الأبيض. بعبارة أخرى، مَلِكَةُ الأسرار والظلام.

وضع يديه على المكتب أمامه. وكان يحب هذا الجزء. قال، «حسناً، يا كابتن ناير، لقد قمتَ بِفَرْكِ الفانوس الصحيح».

*

جلسنا أنا وباتريك رو على حائط الرمل، وراقبنا مجموعة من

الرجال يملؤون المزيد من أكياس الرمل، لم يكونوا جميعهم رجالاً، في الواقع. رأينا في كثير من الأحيان نساء يرتدين الزي العسكري الأمريكيّ. وبالطبع رأينا نساءً بين السجناء الأفارقة بالزيّ الأبيض. لم نرَ قطّ أيّ نساء مدنيات. ولم نرَ دافيديا.

في ساحة السيارات، أحصيتُ 22 شاحنة نيسان بيك أب مُغَلَّفَةً بأغطية قماشية. واثنتي عشرة عربة هامفي[1]. وأربع سيارات قتالية من نوع سترايكر، كُلٌّ منها يُقدَّرُ بالملايين. ومن المحتمل أن تحتوي حظيرة الطائرات العمودية على مروحية ضخمة تكفي لابتلاع كل تلك الآليات مجتمعة.

قلت لباتريك، «كان هذا أكثر تسلية عندما كان خيالاً علمياً فقط».

ولم يبدُ عليه أنه فهم ما أعني.

مجموعاتُ ملء أكياس الرمل كانت تعمل بِفِرَق، كانت كل واحدة منها مُكوَّنة من ثلاثة أشخاص: الحفّار، والمُعبئ، والشيّال، يقومون بملء الأكياس من كومة التراب، ثم يحمِّلونها على شاحنةٍ مقطورةٍ مُسطَّحة. تذكّرت أنَّني كنت قد قرأتُ عندما كنت طفلاً، أنه من أجلِ توفير مثل هذه

(1) الهامفي (بالإنجليزية: Humvee): هي سيارة عسكرية أمريكية متعددة المهام وعالية الأداء والأكثر استخداماً لدى القوات الأمريكية على الإطلاق. المترجم.

الأكياس خلال حرب الخليج الأولى، قام الأمريكيون بشحن آلاف الأطنان من الرمال الأمريكيّة إلى مواقع تمركزهم في الصحراء العربية عبر البحار.

كان لدينا حَمَّامٌ كيميائي متنقل ضمن حدود منطقتنا، مع دهليز فيه دُشٌّ مزود بالماء الساخن الذي يخرج من تحت الأرض. وكان الماء ساخناً على الدوام، وكان وفيراً ولا يمكن استهلاكه كله.

كانت غرفة إعداد الطعام تُقدِّم أنواعاً ممتازة من الطعام والشراب؛ بيضاً حقيقياً، وبطاطا حقيقية، ولحوماً أمريكيّة. وفي الصباح كنا نشم رائحة خبز المعجنات.

كان لدينا غياران من البيجامات الحمراء، والملابس الداخلية، وشراشف الأسرّة، والمناشِف. ويقوم الأفراد المجنّدون بجمع الغسيل غير النظيف، ثمّ إعادته لنا نظيفاً بعد ثمانِ ساعات. ولذا بدأنا نشعر أن قيامنا بترتيب أسرّتنا الخاصة أمرٌ غير مبرر.

❊

لمدة ساعة تقريباً جلست وحدي. وعندما وصل مُضيفي لم يجلس؛ بالكاد دخل مكتبه الخاص. «قرأت النصوص المكتوبة بالتفصيل».

«جيد جداً »، قلت. ولكنه غادر الغرفة مباشرة من جديد.

وبعد خمس دقائق عاد مرة أخرى، أغلق الباب، وجلس

على مكتبه. انتظرتُ أن يُقدّم لي القهوة. استغرق في التأمل لفترة من الزمن على طريقة شارلوك هولمز؛ مرفقاه على الطاولة وأطراف أصابعه على صدغيه.

«ما الذي يجعلك تعتقد أننا سندفع لك وسنسمح لك بالخروج من هنا؟»

«سيكون عليك مساعدتي في معرفة وتحديد ذلك».

خيّم الصمت في الأجواء.

«سأحتاج إلى قصة مقنعة».

حلّ الصمت مرة أخرى.

«ولكن إذا طرحتُ قصة جيدة بما فيه الكفاية، وإذا أحضرتُ حقيبة من النقود لتدعم قصتي، فسيتحرك الأمر من جديد، وستكون الحركة باتجاه شيء يجب أخذه بمنتهى الجدية. ألا توافقني؟»

«طَنّ أو أكثر من اليورانيوم عالي التخصيب. أنت حقاً تدّعي ذلك؟»

«لا يَسَعُني وبشكل شخصي إلّا أن أؤكد لك وجود كيلوغرامين، تقريباً بالحُكمِ على وزنها في يدي».

«حملتَها بيدك».

«نعم. هذا حدث بالفعل». كان ملتزماً الصمت. «لا أعرف

أيّ شيء عن الأجهزة النووية أو تصنيعها». استمر بالصمت. «ولكني أتساءل فيما إذا كانت كمية بوزن كيلوغرامين منها ذات تأثير كبير أم لا». تمنّيت لو أتوقف عن الكلام، ولكن كان لصمْته سحر عليّ. «أعني من حيث القدرة التفجيرية. ليس لديَّ أيّ تدريب على المُتفجرات. لكن الضرر المحتمل. القدرة التدميرية». ظلّ صامتاً. «حتّى لو كان كل ما لديه هو كيلوغرامين فقط»

«هل أنت مستعد للخضوع لجهاز كشف الكذب؟»

«بكل تأكيد. أين؟ هنا؟ متى؟»

«لن يكون من الصعب ترتيب ذلك. هل يمكنني ترتيب ذلك؟»

«بالطبع. إذا كان هذا يرضيك، جيد، بالتأكيد، ولكن أعني: يمكنني أن أخبرك من الآن، ستحصل على نتيجة غير حاسمة. أقصد أن أقول: لقد كنتُ أقولُ العديد من الأكاذيب، وأستمعُ للكثير منها حتى صرتُ لا أفرق بين ما هو صحيح وما هو زائف. ونحن في إفريقيا، كما تعلم» - اخرس اخرس، قلت لنفسي اخرس، «وأنت تعلم أن القصص هنا كلها أساطير وخرافات، وأكاذيب، وشائعات. أنت تدرك ذلك». قمتُ بالعَضِّ على لساني لأَسْكُت، وبالفعل نجحتُ في ذلك.

انتظرَ كي أكمل كلامي، لكنني كنت قد انتهيت من الكلام.

«حسناً. اسمح لي أن أتركك لمدة دقيقة. قم بِسكبِ فنجانٍ من القهوة لنفسك. سأتركك لعشر دقائق كحد أقصى». ترك الباب نصف مفتوح خلفه وغادر.

كان إناء القهوة في متناول يدي. سكبت لنفسي في كوبٍ كنت قد استخدمتُهُ أمس، وكانت القهوة بدرجة حرارة الغرفة. لم أستطع تكوين فكرة مفيدة، وظللت أتذوق القهوة كأنني أتوقع أن تتحوّل إلى ساخنة وطازجة. دون ساعة يد لم يكن أمامي سوى التخمين، بدا الوقت الذي مر أقرب إلى الثلاثين دقيقة منه إلى العشر دقائق.

عندما عاد، قام أيضاً بملء كأس، وجلس خلف مكتبه. ارتشف رشفة وقال، «يا إلهي»، ثم صمت.

قاطع أفكاره مرة واحدة فقط ليقول: «لا يوجد جهاز كشف كذب».

نهض وذهب إلى الباب ونادى، «كلايد؟» وجلس وراء مكتبه مرة أخرى. «خذ هذه الأكواب، هلا فعلت؟» قال للجندي الذي جاء. «قم بتجديد القهوة. ليس الإبريق كله. فقط بمقدار قارورة أو شيء من هذا القبيل، حسناً؟ اترك الباب مفتوحاً».

استُؤنِفَ الصمت. كان لديَّ انطباع بأنْ لا شيءَ في هذا العالم يمكن أن يحدث دون أن نحتسي القهوة.

«بناء على السلطة المخولة إلي، أخبرك أن دافيديا سانت كلير في طريقها إلى بيتها».

«أوه ...»

«يمكنك أن تفترض أنه تم استجوابها، والاستعلام عنها. بدقة متناهية».

«تقصد أنها غادرت بالفعل؟»

«دعنا نركز على الأشخاص الموجودين في هذه الغرفة».

«فقط قل لي: هل ذَهَبَت؟»

«إذا لم تكن قد ذهبت بالفعل، فستذهب قريباً». دلف الجندي خطوة إلى الغرفة ثم توقف. «شكراً لك، يا كلايد. هل اسمك كلايد؟»

«نعم، سيدي».

«شكراً لك. اذهب وأغلِق الباب خلفك». قال لي: «أريد أن أسمعك وأنت تقول اقتراحك». ترك قارورة القهوة تقبع على مكتبه دون أن يسكب منها أيّ شيء. «أريد أن أسمع بالضبط ما تقترحه».

«حسناً، هو ما قلته أنت قبل بضع دقائق، ما اقترحته».

«والذي هو؟»

«أن تدفع لي وتسمح لي بالخروج من هنا. وأعود إلى ما كنتُ أفعله، وأرى ما إذا كانت الصفقة ما زالت مستمرة، أو إذا ما

كان مـن الممكـن استئنافها مـرة أخـرى، ومعرفـة مـا إذا كان بإمكاننـا الجمـع بيـن الأطـراف حسـب الترتيبـات المتفـق عليهـا سـابقاً».

«أطـراف هـذه المؤامـرة الإجراميـة اللعينـة، المقترحـة، والمدَّعـاة، وغيـر المسـبوقة والسـخيفة».

«نعم، تلك الأطراف».

«أنـت، وهـؤلاء الإسـرائيليون، والنـاس الذيـن يمثلهـم أدريكـو. إن كان لذلـك أي وجـود».

«تلك ستكون الغاية».

«عملية خداع سرية».

وافقته قائلاً، «يبدو هذا هو المصطلح الذي ينطبق عليها».

قـال: «أعتقـد أننـا قمنـا فعـلاً بنشـر المصطلحـات التـي تنطبـق، القصـص الخرافيـة، علـى سـبيل المثـال، هـراء، مـاذا أيضـاً يـا اللـه. ليس هنـاك ذرة شـك فـي ذهنـي فـي أنـك تعبـث معنـا».

«ومع ذلك، ها نحن هنا».

«لا أسـتطيع أن أنكـر ذلـك. فمنـذ التاسـع مـن سـبتمبر، تَحَوَّلَـتْ مُلاحقـة الأسـاطير والخرافـات إلـى عمـل جـاد. أصبحـت صناعـة، صناعـة مربحـة».

«هل نتحدث عن السعر الآن؟»

«يا لك من رجل سخيفٍ، سخيفٍ».

«لكن ماذا لو كنا نتحدث عن ذلك».

«إذن سأفترض أنها ستكون اللحظة التي تقول فيها رقماً».

«إنهم يريدون مليونين».

«نقداً؟ أم في الحساب؟

«ذهب».

«يتوقعون ذهباً؟»

«هل سيكون هذا متاحاً؟

«ذهب. ما هو سعر الذهب هذه الأيام؟»

«حوالي خمسة وأربعين للكيلوجرام، دولار أمريكي».

«خمسة وأربعون ألفاً. إذن، أربعون كيلوجراماً ونيفاً. أربعة وأربعين وزيادة».

«قل خمسة وأربعين».

«خمسة وأربعين كيلو من الذهب».

«هل يمكنك أن تفعل ذلك؟»

النظر في عينيه جعلني أشعر بالأسف عليه. «هل تريد سماع الحقيقة؟»

«نعم».

«يمكننا أن نفعل أيّ شيء».

في وقت مبكّر من بعد الظهر. استلقيتُ على سريري. سمعتُ صوتَ طائرة مروحية تهبط.

تَمَوَّجَت جدران الخيمة بشكل متواتر. ثم ارْتَجَّت وارتَجَفَت. صَمَّمْتُ على البقاء في الداخل لتجنب الغبار، ولكن انتابني حدس. عرفت. فخرجت إلى الخارج.

وقفت إلى جانب سياج أكياس الرمل وراقبت الرجل الذي ما زلت أعتقد أنه هو العقيد ثيبس، كان بِزيٍّ ضابط. كان متجهاً إلى المروحية وهي تتأرجح أثناء هبوطها، في يده اليسرى حقيبة دوفيل[1] قماشية، وكانت يده اليمنى تمسك بمرفق دافيديا سانت كلير.

توقفت دافيديا وحاميها وتركوا السحابة الحمراء تطغى عليهم بينما أكملت المروحية هبوطها. كانت مروحية خدمات، ولكن ليست من طراز بلاك هوك، شيئاً أصغر، لا أعرف أيّ نوع. انْحَنَت دافيديا نحو الزلاجات عندما لامست الأرض. رَكَّزَتْ على ذلك المنظر. لم تنظر إلى الوراء. وما إن لامست المروحية الأرض حتى انطلقا نحوها.

ركضتُ للحاق بها. ناديتُ على اسمها. لم تستطع سماعي

(1) حقيبة دوفيل: حقيبة من القماش الخشن، أسطوانية كبيرة مصنوعة من القماش، وغالباً يتم إغلاقها من الأعلى. وتستخدم كحقيبة أمتعة أو لنقل المعدات الرياضية وأيضاً من قبل الأفراد العسكريين. **المترجم**.

من هدير شفرات المروحية. ناديتُ مرة أخرى ـ «دافيديا!» صرخت باسمها عدة مرات.

توقّفتُ عن الركض وأدَرْتُ ظهري للغبار. في بضع ثوان هدأت الرياح وأصبحت الضوضاء أقل. لا بد وأن الطائرة كانت تحلق على ارتفاع منخفض، لأنني عندما نظرتُ حولي مرة أخرى استطعت سماع صوتها، لكنني لم أرها في السماء.

قفلت راجعاً إلى الخيمة، وأغلقتُ بابها بالسحّاب وجلستُ على سريري، أرْمُشُ بعينيَّ وأنفُضُ التراب بكلتا يديّ من شعري.

❋

شعرتُ بلمسةٍ على كتفي، فاستيقظت خائفاً مرعوباً. كان هناك ظلام، وهدوء في وقت متأخر جداً.

قال باتريك رو، «هذه ملابسك».

جلس هناك على الكرسي الوحيد لدينا. استطعتُ أن أرى أنه يحمل شيئاً في حِجره. «حان الوقت لارتداء ملابسنا».

كان يتحدث الدنماركية.

«ماذا؟»

«حان وقت الذهاب. الآن الطريق مفتوح».

«انتظر. انتظر ... ماذا؟»

«حـان وقـت الذهـاب. فقـط خـذ بعـض الأشـياء للتزيـن. ومـا يمكنـك وضعـه فـي جيوبـك. هـذه سـاعة يـدك عـادت إليـك».

فـرحٌ عظيـم شـدّني مـن السـرير. قلـت: «أيهـا الوغـد. كنـت أعـرف ذلـك».

قال باللغة الإنجليزية: «أنت تفضل الإنجليزية؟»

«أو الألمانيـة»، قلـت. «ذهبـتُ إلـى مـدارس سويسـرية. والحقيقـة هـي أنَّنـي بالـكاد أتحـدث الدنماركيـة علـى الإطـلاق. هـل هـذا قميصـي؟ ذهبتُ إلـى مـدارس ناطقـة باللغـة الإنجليزية».

«لدينا ست دقائق أخرى».

«لقد انكمش قميصي».

«دعنا نسرع».

عندمـا قذفـت بيجامتـي جانبـاً وارتديـت ملابسـي، وكنـت علـى أتـم الاسـتعداد للذهـاب، تريَّثنـا قليـلاً؛ أنـا علـى سـريري، وباتريـك علـى الكرسـي، جلسـنا دون فعـل أيّ شـيء، علـى مـا يبـدو، فقـط الاسـتماع إلـى قعقعـة المُوَلِّـداتِ وأزيـز الأضـواء الكاشـفة العملاقـة فـي الخـارج. أطـال النظـر فـي سـاعة يـده. كان الوقـت علـى سـاعتي التيايميكـس الرخيصـة التـي يمكـن الاعتمـاد عليهـا، 1:15 صباحـاً.

بعد دقيقتين، قال: «سنذهب الآن».

مشـينا فـي الوهـج البرتقالـي والمطـر الخفيـف البـراق. قـام باتريـك بغلـق سَـحَّابِ الخيمـة خلفنـا، وسـرنا عبـر الميـدان صـوب البوابـة المفتوحـة. خرجنـا ومررنـا دون أي عوائـق بيـن موقعـي المَدفَعِيـة المُحَصَّنَيـنِ، وكان هنـاك خمسـة جنـود بخوذاتهـم ونظاراتهـم الليليـة ودروعهـم. أُغلقـت البوابـة خلفنـا ودخلنـا فـي الظـلام.

توقـف المطـر، ولكـن لـم يكـن هنـاك قمـر. لمـدة ثلاثيـن دقيقـة مشـينا علـى طـول الطريـق دون مصابيـح، متجهيـن نحـو الشـمال، نشـعر بالحُفَـرِ والأخاديـد والبقـع الموحلـة الناعمـة تحـت أقدامنـا. لـم نتحـدث. طنيـن الزواحـف والحشـرات، صـوت خطواتنـا وأنفاسـنا، هـذا كل مـا سـمعناه.

سـطعت مـن بعيـد مصابيـح أماميّـة علـى الطريـق وراءنـا. بعـد فتـرة وجيـزة، سـمعنا صـوت المحـرك.

تنحَّينـا إلـى جانـب الطريـق، وتوقفـت المصابيـح الأماميّـة علـى بعـد خمسـين قدمـاً قبـل الوصـول إلينـا، وذهـب باتريـك إلـى السـيارة، كانـت سـيارة هامفـي، علـى مـا أعتقـد، ولكننـي لـم أتمكـن مـن رؤيتهـا والتحقـق منهـا، وفـي غضـون دقيقـة تقـدم انعكـاس خيالـه نحـوي ثـم اختفـى عندمـا اسـتدارت السـيارة، وقـد عـادت مسـرعة فـي الطريـق الـذي جـاءت منـه.

الآن، قـام رو بتوجيـه خطواتنـا بمصبـاح يـدوي صغيـر. رأيـت

حزمة كبيرة متدلية من ذراعه. كان يعلقها على كتفه. وكانت تصدر خلال سيرنا نوعاً من صوت النقر والطقطقة والدمدمة.

لفترة طويلة ظلت هالة السيارة مرئية وراءنا. كنت أتوقع منهم تشغيل المصابيح الأماميّة المُعتمة، لكن يبدو أنهم لم يهتموا.

عندما ابتعدوا بعيداً، قال رو: «سنبتعد عن الطريق هنا ونستريح».

«دعنا نتجنب الغرق في الطين».

«لا، إنها أرضية جيدة».

وجد مكاناً أعجَبَه، وضع منديلاً، وجلس ساندًا ظهره على شجرة. وضع الحزمة بين ركبتيه، كانت حقيبة ظهر من الخيش. قام بفك حزام الحقيبة. جثوتُ بجانبه وهو يفرغ محتوياتها على ضوء شعاع مصباحه، انعكس الضوء بشكل مخيف على عدسات نظارته، مثل شعلتين في وجهه.

بالأعلى، مجلد مانيلا كبير، بداخله خريطة لجمهورية الكونغو الديمقراطية. ونقود أمريكيّة من فئة العشرينات: «هذه نقودي».

«أموالك التي كانت بحوزتك عندما وصلتَ إلى هناك. كلها هنا».

لا محفظة، لا بطاقات من أيّ نوع. «أين جواز سفري؟»

«لست بحاجة له».

أيضاً، مجلد مانيلا وهو المجلد الذي كنت قد رأيته على مكتب الرجل من قيادة العمليات الخاصة الأمريكية، بقدر ما استطعت أن أرى في الظلام، رأيت نسخاً مطبوعة من رسائلي الإلكترونيّة، وكذلك الصفحات التي كنت قد كتبتها بخط يدي، ليس نسخاً عنها، بل النسخ الأصلية ذاتها. «إنهم يغسلون أيديهم مني بالكامل، أليس كذلك؟ أراهن أنهم سيحرقون بيجاماتي أيضاً».

لم يجب رو بينما كنت أنظر إلى بعض الأشياء الملفوفة في منشفة يد: شوكة وملعقة معدنيتين، سكيناً بشفرة واحدة قابلة للطي، وكشافاً ضوئياً: «لكن ماذا عن الهاتف النقال؟ كيف سأبقى على اتصال؟

«سيكون بإمكانهم تحديد موقعك».

«بالطبع سوف يستطيعون».

في قعر الكيس، كان هناك زجاجتا ماء سعة كل منهما لتر واحد، وفي القاع، ثمة كيس من القماش. وضع رو الكيس على الأرض وفتحه وحرك ضوء مصباحه فوق كثير من الحبيبات المعدنية ذات الشكل المعيني، كل واحدة منها كانت ملفوفة بمنديل ورقي.

حملتُ الكشاف بين أسناني ونزعت غلاف واحدة منها. مقارنة بوزنها كانت صغيرة. ثلاثة أصابع كانت تكفي لتغطيتها.

كيلو من الذهب.

قلت: «اللعنة! اللعنة!» فسقط المصباح من بين أسناني.

«كابتن ناير، اسمعني. في المقام الأول، سوف يكون هناك عشرون كيلو فقط».

«ومع ذلك فهذا يساوي مليون دولار. اللعنة!»

«كف عن قول اللعنة». أطفأ رو مصباحه وهدأ لبرهة كي يمسح نظارته بطرف قميصه. قرفص على كومة ثرائي. «في المقام الثاني، هذه الأشياء ليست حقيقية».

«حسناً، إذن، سحقاً. سحقاً واللعنة. لا شيء حقيقي؟»

نزعَ غلاف واحدة أخرى وأضاء المصباح عليها، وَقَلَّبَها بين أصابعه الُمتَّسِخة. «يتكون الطلاء من النحاس والنيكل، مع القليل من الذهب. من الداخل رصاصٌ فقط».

«على من ستنطلي مثل هذه الترهات؟»

«لا أحد. قد يفلح الأمر مع الهواة فقط، المبتدئين بشكل كامل.. تعرف، أو مع السائحين المغفلين الذين يمكن أن يقعوا في حبائل سماسرة الليل، أشياء من هذا النوع. إنها ليست للألاعيب والمكائد الجادة، فلن تجتاز أي نوع من أي فحص

أصولـي ضليـع. إنهـا أشـياء تسـتطيع إظهارهـا بشـكل عاجـل سـريع، لا أكثـر. تسـتطيع فقـط إخراجهـا بسـرعة البـرق».

«هذا شيء شنيع».

ضحـك رو فقلـت: «اضحـك فأنـت مُسَـلٍّ وتُرَفِّـهُ عـن النفـس. سـوف أعـود الآن». أمْعَنَ النظر فـي المحتويـات ثـم رَبَطَهـا داخـل الصُـرَّة وهَـمَّ بالوقـوف. وبـدا كأنـه فـي عجلـة مـن أمـره. «إنهـا لـك، فاحملهـا».

حملـتُ الصـرة. كان الحمـل ثقيـلاً، ولكنهـا كانـت مجهـزة بشـكل جيـد. أشـرطة سـميكة قويـة. قـد أسـتطيع المشـي بهـا لمسـافات طويلـة دون أن يُحـدِثَ ذلـك أيـة خـدوش وعلامـات فـي إبطـي.

وبمواجهتـه أدركـت، الآن فقـط، أنـه لطالمـا كان طولـه بنفس طولـي. ولكنـه كان ضعيـف الشـخصية، ووجهـه كان صغيـراً كوجـه عصفـور. لذلـك كان حجمـه مجـرد وهـم ليس أكثـر. كمـا هـي حال فرنسـيته وحقيبـة ذهبـه، وزوجتـه المفقـودة، كلهـا كانـت زائفـة.

«أُعْطِيْـتُ تعليمـاتٍ لإخبـارك بـأن تقتـرب جسـدياً مـن بعـض الأطـراف وأن تحتفـظ بهـذه المـواد معـك».

«هذا ما فهمته».

«كمـا أنهـم سـيحددون موقعـك فـي جميـع الأوقـات. تذكّـر ذلـك».

«هل هي عملية مُسَيَّرة؟»

«لا علم لديَّ بهذا الأمر».

«بالتأكيد».

«أنا مجرد مرسال ولكن يمكنني أن أؤكد لك أنك شخصياً لن تصاب بأيّ مكروه. فنحن لا نقاتل بهذه الطريقة ولن نؤذي رجالنا».

«بالتأكيد. إلا عندما تفعلون ذلك».

فقال: «لا عليك، فليس هناك ما يدعو للقلق. ولا تنسحب من مهمتك».

«لن أفكر في ذلك مجرد تفكير».

قال رو: «إذا فعلت وانقطعتَ عن الاتصال فستكون في موقف لا تحسد عليه، سوف ترى الجحيم. وسوف تكون دوماً تحت المطاردة المستمرة. لن تستقر ولن يهدأ لك بال. ولا أحد يفعل ذلك يستمر طويلاً.. أنت تعلم ذلك، أليس كذلك؟ لا أحد يستمر أياً كان».

*

أبقى جيشُ الولايات المتحدة الأمريكيّة مواقعه العسكرية بعيداً عن الطريق. فكان الطريق بأكمله لي وحدي. خمَّنْتُ عن طريق الرائحة أن هذا الطريق يمر عبر غابة من أشجار

الأوكالبتوس. طقطقت محتويات الحقيبة بشكل إيقاعي منغم مع كل خطوة. قلت: نعم، أخيراً، نعم، في النهاية، لقد انتهيتُ منكم، ومن عالمكم، سئمتُ منكم جميعاً ومن عالمكم.

عشرون كيلو من الهراء على كتفي. كم باونداً تساوي؟ أكثر من أربعين. تبدو خمسة وأربعين. كم سْتُوْن؟[1] تقريباً ثلاثة. حوالي سبعمائة أونصة. ومع ذلك لم أشعر بوزن الحقيبة إلى أن أفسحت إثارتي الهائلة المجال للسؤال: لم لا أتخلص منها؟ فلا بد أن أحد محتويات هذه الحقيبة متصل بشكل لا ينقطع مع قمر صناعي عالمي لتحديد موقعي، مع طائرة مروحية للعمليات الخاصة، طائرة بدون طيار، أسطول من هذه الطائرات، كلها بالنهاية تقوم باستدعاء الأشخاص المنوط بهم موضوع إرساء وإعادة النظام إلى أموري إما بسجني أو قتلي وتصفية حياتي.

مشيت بإجهاد لمدة خمس ساعات، لم أقطع خلالها سوى بضعة أميال. بدأ الفجر بالبزوغ، كما هي الحال دوماً بالقرب من خط الاستواء تدريجياً، بل وبشكل غير يقيني، قبل أن أتحسس وجود أكواخ بين الأشجار.

(1) ستون (بالإنجليزية: Stone): وحدة قياس للكتل، تساوي 6.35 كيلوغرامات (أي 14 رطل). يُستخدم الستون لقياس كتلة جسم الإنسان في كل من المملكة المتحدة وأيرلندا. **المترجم.**

وصلت إلى بقعة طرية زَلِقة لم يكن بإمكاني تجنبها إلا عن طريق الالتفاف حولها وسَلْكِ طريق طويل في الغابة. سرتُ بمحاذاتها من جهة اليسار على طول حافتها حتى وصلت لحفرة طينية امتصاصية، شكلها قاتل، ولونها أحمر وأصفر، وحشِيَّة من الطين الأحمر والأصفر تنتشر على حوافها الأغصان اليابسة الميتة. في مثل تلك الحفرة يمكن لأي شيء أن يغرق. ألقيتُ بالحقيبة من فوق كتفي وفتحتها عند قدمي. وضعت أوراقي والمال والخريطة والماء جانباً. أمسكتُ بأحد أحزمة الحقيبة وقمت بالدوران حول نفسي والحقيبة تلتف معي ثم قذفتها فطارت لمسافة عشرة أمتار. ارتطمت بالسطح وانزلقت في حركات دائرية بطيئة نحو الأسفل.

أشارت ساعتي التايميكس إلى الساعة 6:17 بتاريخ السادس والعشرين من أكتوبر. لم يتبقَّ أمامي سوى خمسة أيام وتسع ساعات حتى أجد طريقي وأصل إلى فريتاون. إضافة إلى ساعة سأكسبها بسبب فرق التوقيت. حللت الساعة من معصمي ثم طرحتها وأخفيتها تحت الطين.

خمسة آلاف كيلومتر. مائة وثلاثون ساعة.

شربتُ لتراً من الماء أثناء وقوفي هناك، قذفت الزجاجة بعيداً، واحتفظت بالثانية، التي لن تبقى معي أكثر من سابقتها. وبينما غاصت الحقيبة بكل ما فيها من أشياء معدنية: مصباحي،

سكين التخييم، والكيلوغرامات المزيفة، والأشياء الكثيرة الأخرى، خلعت قميصي ولففت به ما تبقى. فكرت بنزع حزامي وطرحه بعيداً بسبب عروته الحديدية التي قد تجلب الشك، وفكرت أيضاً بأزرار قميصي وبنطالي، فاكتشفت أنَّني بهذه الطريقة سأمشي عارياً، وماذا سأجني حقاً من كل هذا؟ هناك دائماً شيء ما يجب التخلص منه، شيء ما في الداخل.

*

تساءلتُ عما حصل لمايكل. أتوقعُ منه أن يظهر إلى جانبي بعد أن انتَظَرَ طويلاً في هذه المنطقة طوال هذا الوقت، يراقبُ أية علامةٍ تشير إلى وجودي أو وجود دافيديا. وبمجرد أن خطر بخاطري، رأيتُهُ ماثلاً أمامي، إنه مايكل، يجثم تحت إحدى الأشجار الطويلة هناك أمامي، ولكنه لم يكن مايكل. كان مجرد حائط ترابي للنمل الأبيض. ومع بزوغ النهار وتقدمه ظهر الكثيرُ من أمثال هذه الجدران الترابية لأن هذا النوع من النمل يقتات على أشجار الأوكالبتوس، واعتقدت أنَّني رأيت أشكالاً غير واضحة المعالم أو أشباحاً تجثم في الغابة، وسرعان ما امتلأت الغابات حقاً بأناس يتحركون بين الأشجار ويغرزون أعواداً رفيعة في أكوام التراب، ويحصدون النمل الأبيض. انضمَّ إليّ على الطريق الآن عشرات من الملطخين والمرشوقين بالطين، نساءٌ يمشين بثبات يضعن سِلالاً على رؤوسهن باتِّزان،

يحمِلنَ الحشرات إلى السوق. لم تتكلم أيّ منهن. كُنَّ يتصرفنَ على طريقةِ الأشباح. ربما تكون إحداهنّ قد خرجت من جثة المرأة التي دهسناها في أوغندا. ولكن أقدامهُنَّ كانت تمشي بِخِفَّة على الطين. سمعتُ صوت أنفاسهن.

تبِعتُهُنَّ إلى خارج الغابة وإلى داخل داربا، وهي بلدة بلا إضاءة كهربائية، بل لا يوجد بها أسلاك، فقط أعمدة كهرباء قديمة مكسرة من الأعلى تشبه السيقان العملاقة الميتة. في سديم أدخنة الطهي، تجسد المكان حولنا، مدينةٌ من المباني الفرنسية الاستعمارية المتينة التي لا نوافذ لها ولا أبواب على مداخلها، أخبئة قام أهل البلدة بنقل حيواناتهم إليها بينما قاموا بصنع أكواخ من الأغصان وطوب الآجر لأنفسهم في الباحات.

توقفت عند مقهى، بل خيمة كي أكون صادقاً. أعطيت النادل عشرين دولاراً حتى يتركني أنام على وجهي على طاولته الوحيدة، بينما قامت ابنته الصغيرة بالاعتناء بالمقهى.

استيقظت عندما هرع إلينا شاب كان تحت تأثير عقارٍ قد يكون أقوى عقار تم صنعه حتى الآن. كان يتحدث بلغات غير مفهومة، لم تلمس قدماه الأرض. تحملنا بقاءه بالجوار بسبب ابتسامته.

اشتريتُ له كوب قهوة، واشتريتُ لنفسي أيضاً مثلما اشتريت له. عندما سألته ما إذا كان يتحدث الإنجليزية، قال: «لغة إنجليزية ممتازة».

«أين يقع جبل نيوادا؟»

«عليك أن تذهب إلى دولسي».

«كيف لي أن أجد دولسي؟»

«اذهب إلى جبل نيوادا».

«لا. لا. أين دولسي؟»

«الدولسي!» سمعت الكلمتين الإيطاليتين، رغم أنه ربما قال لادولتشي[1].

«هل تقع دولسي بالقرب من جبل نيوادا؟»

«إنها أُمّ جبل نيوادا».

«هل هي شخص؟ امرأة؟ هل هي شخص؟ امرأة؟»[2]

«نعم. الأم. نعم الأم نعم»[3].

فتحت خريطة الكونغو وبحثنا معاً عن جبل نيوادا ونحن نحتسي القهوة، ثم ذهبت أنا وهو في نوم عميق من شدة التعب.

عاد النادل ومعه حذاء رياضي للركض أملس من الأسفل ولونه أزرق، وبنطال جينز يُسمى غاوتشو[4]، وقميص تي

(1) قالها بالفرنسية (Ou est La Dolce). **المترجم**

(2) أعاد السؤال باللغة الفرنسية بعد أن طرحه بالإنجليزية أولاً: (Une personne? Une femme). **المترجم**.

(3) أعاد الإجابة باللغة الفرنسية بعد أن أجاب باللغة الانجليزية (Oui. La mère. Oui). **المترجم**

(4) الغاوتشو (El Gaucho): سروال جينز دينيم ذو سيقان واسعة.

شيرت أصفر مرسوم عليه وجه سيدة بني اللون. من هي السيدة؟ قلت. فقال: إنها جميلة جداً![1] فقلت: نعم نعم[2]. ثم أعطاني الباقي بالشلنات الأوغندية. فقلت، أليس لديك فرانكات كونغولية؟ قال، فرانك؟ هذا مقرف[3].

وعندما سألته عن جبل نيوادا قال: إنه هناك وأشار إلى جهة الشمال، ولكني لا أعرف كيف أصل إلى هناك. اذهب إلى صانع التوابيت. إنه ذاهب إلى نيوادا. إنه بجانب الكنيسة.

نعم، إنني أرى الكنيسة.

إنه ذاهب إلى جبل نيوادا. اتبع صانع التوابيت.

فَرَدَتْ الساعةُ المعلقةُ على العمود عقاربَها على الجنبين مُعلِنةً التاسعة والربع. كنت قد مشيت لمدة خمس ساعات، ونمت لمدة ساعة واحدة. وقضيت أخرى في المقهى، وجدتُ خلف المقهى بقعةَ أرضٍ جافة لأقف عليها بين برك الماء. لبستُ الملابس الجديدة. كان بنطال الجينز والقميص فضفاضين جداً، وتلاءم الحذاء الأزرق تماماً مع جواربي المتسخة.

خلف الكنيسة وجدتُ رجلاً، ضئيلَ الحجم جداً، ربما

---

(1) قالها بالفرنسية: (Très jolie). **المترجم**.
(2) قالها بالفرنسية: (Oui oui). **المترجم**.
(3) قالها بالفرنسية: (Le franc? – c'est merde). **المترجم**.

مـن سـكان مبوتـي[1]، إحـدى جماعـات البيغمـي[2]. كان يرتـدي قميصـاً رياضيـاً وسـروالاً نظيفـاً وصنـدلاً بلاسـتيكياً لامعـاً. وقـف ويـداه علـى دراجـة هوائيـة خضـراء، كان يحركهـا للخلـف والأمـام كأنمـا كان يتحقـق مـن كفاءتهـا. قلـت: هـل أنـت صانـع التوابيت؟» لـم يفهـم. حاولـت تذكُّـرَ معنـى كلمـة تابـوت بالفرنسـية ولكننـي لـم أكُـن أعرفهـا منـذ البدايـة. نـادى عليـه شـخصٌ مـا، فتجاهلنـي مـن أجـلِ ذلـك الأحمـق، فتبعتـه وهـو يسـير بجـوار دراجتـه علـى الطريـق الإسـفلتي المتداعـي.

علـى طـاولات النجـارة ونشـر الخشـب أمامـه خـارج سـقيفته الصغيـرة ربضـت خمسـة توابيـت قرمزيـة براقـة، كان بينهـا اثنـان،

(1) شعب مبوتي (Mbuti)، ويعرفون أيضاً بجماعات البامبوته (Bambute): واحد من أقدم الشعوب الأصلية في منطقة الكونغو في أفريقيا؛ وواحد من مجموعات الأقزام الأصلية العديدة في منطقة الكونغو في أفريقيا، وهم صيادون أقزام. يعيش سكان مبوتي في غابة إيتوري، وهي غابة استوائية مطيرة تغطي حوالي 70،000 كيلومتر مربع من الجزء الشمالي / الشمالي الشرقي من جمهورية الكونغو الديمقراطية. **المترجم**.

(2) البيغمي (Pygmy): الأقزام الإفريقيون، وهم الأفراد الذين لا يزيد طول قامة الذكر البالغ فيهم على130 سم، والمرأة البالغة على 121سم. يتصفون بقصر القامة وصغر الحجم واكتناز الجسم؛ أذرعهم طويلة، وسيقانهم قصيرة، وبشرتهم سوداء غير داكنة مائلة للصفرة، كما يتصفون بالشعر المفلفل الصوفي الملمس، والشفتين الغليظتين البارزتين غير المقلوبتين، والفم الواسع البارز إلى الأمام، وعظام الوجنتين البارزة. وتتخذ الجبهة عندهم شكلاً قريباً من المثلث المتساوي الساقين، وينمو الشعر على وجوههم وعلى أنحاء أجسامهم كافة. **المترجم**

للأسـف، قصيـران جـداً. كان هـذان همـا التابوتيـن اللذيـن انشـغل بهمـا باهتمـام. أوقـف إطـار دراجتـه الخلفـي علـى حاجـز مُثَلَّـم لمُوازنـة الدراجـة وتثبيتهـا، ثـم قـام بوضـع التابوتيـن ـ المتسـاويين فـي الطـول، حوالـي المتـر ـ علـى الدراجـة بشـكل عرضـي خلـف المقعـد وربطهمـا بشـريط مطاطـي أسـود شَـدَّهُ وانتزعـه ثـم شَـدَّهُ ثانيـة.

قفـز مـن فـوق العمـود العلـوي لدراجتـه وجلـس علـى مقعدهـا، حررهـا مـن الحاجـز ووضـع قدميـه علـى الدواسـات. وقـف فـي الهـواء لوهلـة، ثـم نـزل وقـام بدفعهـا إلـى الأمـام. كان يعلـم أنَّنـي أراقبـه. لا أعتقـد أنـه أحـب ذلـك.

تَبِعتُـه ولكنـي أبقيـتُ بعـض المسـافة بيننـا، سـرنا إلـى خـارج المدينـة تحـت أمطـار خفيفـة، ثـم تحـت سـماء زرقـاء حـارة. وانتهـى الإسـفلت بضبـاب مـن الغبـار الأحمـر الـذي انفجـرت خلالـه وجـوه ضخمـة لشـاحناتٍ مُسـرعةٍ الواحـدة تلـو الأخـرى، مكتـوبٍ علـى واجهاتهـا أنـا تائـه ـ كل شـيء إلـى نهايـة ـ لا تنـدم علـى أيّ شـيء ـ كانـت تقتـرب منـا فـلا يفصلهـا عنـا سـوى نصـف إنـش، كأنمـا تطلبـت خرافـةٌ مـا حـدوث ذلـك. فقـدت أثـره فـي الغيـوم الخانقـة حتـى تـرك الطريـق الرئيـس واتجـه فـي طريـق جانبـي، فلمحـت بعضـاً مـن اللـون القرمـزي علـى بعـد ربـع ميـل إلـى يمينـي.

طُفـتُ لبعـض الوقـت كَدُمـيَـةٍ متحركـة. لـم يكـن لـديَّ أيّ مبـرر للاعتقـاد بـأن هذيـن النعشـين كانـا متجهيـن إلـى جبـل نيـوادا.

كانـت الشـمس تسـير إلـى يسـارنا، ولذلـك، بـدا لـي أن هـذا الطريـق كان يقودنـا شـمالاً، وبـدا الشـمال سـبباً كافيـاً لفعـل أيّ شيء، بمعنـى جزء مـن ذاكرتـي وَضَـعَ نيـوادا فـي الشَـمال حيـث دخلـتُ الكونغـو لأول مـرة مـع مايـكل ودافيديـا.

لـم تكـن لـديَّ أيـة مشـكلة فـي مجاراتـه بالمشـي، فقـد كان يتوقـف مـراراً لاسـتعادة قوتـه. وفـي المنحـدرات الصاعـدة كان يترجـل عـن دراجتـه ويسـير بهـا، فكنـت أسـبقه. لـم أقـل أبـداً مرحبـاً أو مـا شـابه. تماسـك حذائـي، رغـم أن جوربَـيَّ تقطعـا إربـاً إربـاً. لـم يتشـكل عنـدي أي تقرحـات. شـعرت بالخشـونة فـي أسـفل عقبـيّ، ولكـن بدرجـة خفيفـة.

وبعـد حوالـي ثـلاث سـاعات مـن المشـي، عـدة كيلومتـرات مـن الطريـق الرئيـس، فـرغ الإطـار الخلفـي للدراجـة الخضـراء مـن الهـواء ـ ربمـا بسـبب عمـل تخريبـي، حيـث حـدث الثقـب أمـام منشـأة مُكوّنـة مـن مقعـد ومضخـة دراجـات، مفتوحـة بغـرض العمـل، وعملهـا كان إصـلاح الإطـارات، فـك رجـل الصيانـة الإطـار مـن مسـاره وأخـرج الإطـار الداخلـي، ورقعـه ببقايـا مقطوعـة مـن أنبوبـة داخليـة أخـرى.

فـي تلـك الأثنـاء، شـعرت بالحاجـة للعثـور علـى كشـك وشـراء كيـس مـن أرغفـة الخبـز الصغيـرة وعـدد مـن الشـمعات وأعـواد الثقـاب ولتريـن مـن المـاء وقلـم رصـاص أصفـر قيـاس

اثنين وسكين مطبخ صغير، ملفوفٍ، لأغراضٍ أمنية، بجريدة. دفعتُ بورقة نقدية فئة خمسة آلاف شلن. أغلق صاحب البقالة وزوجته متجرهما وذهبا لتدقيق الديون والحسابات مع جيرانهما. لم يعودا قبل أن ينطلق صانع التوابيت مرة أخرى.

على حد علمي، أعتقد أن حامل التوابيت لم يأخذ ماء لبقية الرحلة، التي تقدر بنحو خمسة عشرة كيلومتراً، أكلتُ خبزي وشربتُ لتري الماء ثم بدأتُ أعاني العطش الشديد.

تركته يشق الطريق في منطقة مطيرة أخرى، وخارجها مرة ثانية. ودخلنا أرضاً زراعية مفتوحة، في الوحل آثار أقدام ماعز وبشر حفاة الأقدام، سطعت الحقول المبتلة بشدة وبدرجة تكفي لأن تلسع عيوني. مررنا بصبيان توقفوا عن عزق الأرض وسجدوا على الأرض بين صفوف الذرة، يُصلّون باتجاه مكة، بعد ذلك مباشرةً، اختفت التوابيت في المطلع، وعندما صعدتُ للقمة ونظرتُ خلال المساحات الشاسعة من الهضاب المتموجة والظلال ـ ومجموعات الأكواخ؛ رأيتُ القليل من الأشجار الوحيدة المتباعدة، وثلاثة أبراج هاتف نقال تتشابه مع الأشجار في حالتها، واحد في الشمال، والآخران بعده في الشمال الشرقي.

صانع التوابيت، وقد تحرر من حمولته، اندفع أسفل الطريق قافلاً إلى حيث أتى. تحركتُ كي أسُدَّ الطريق عليه. وفي محاولته للوقوف انزلقت دراجته. فاتكأ على مقوده، وانحرف

جانباً وأوقف الدراجة بقدمه التي أنزلها على الأرض، وعندما سألته عما إذا كان هذا هو جبل نيوادا، تحدث بكلماته الأولى إليّ، قائلاً: «نعم، هذا نيوادا»، وانطلق ثانيةً، زاد من سرعته وهو يهبط أسفل الهضبة؛ توقعتُ أن يصل إلى الطريق الواسع قبل حلول الظلام التام. وبعد بدئه في النزول، التَفَتَ برأسه وتحدث مرة أخرى، صائحاً بالفرنسية: «مكان السوء!» وهو ما أظن أنه يعني بالإنجليزية المكان الرديء أو الخاطئ أو الآثم.

*

انتبه بالإنجليزية:

يُرجى ممن وجد هذه المادة إرسالها إلى

المنطقة العسكرية التابعة للولايات المتحدة الأمريكيّة

قُرب داربا، الكونغو

إلى من يهمه الأمر (أفراد الجيش الأمريكي):

رجاء قم بتحويل المادة المرفقة إلى

دافيديا سانت كلير

بواسطة قائد المنطقة الكولونيل ماركوس سانت كلير

القوات الخاصة الأمريكية العاشرة، فورت كارسون، كولورادو،

الولايات المتحدة الأمريكيّة

مع الشكر _ كابتن رونالدناير

جيدسكي دراجون ريجيمنت، شبكة الموارد البشرية (الجيش الملكي الدنماركي)

(27 أكتوبر، حوالي الساعة 12 صباحاً)

دافيديا،

أتمنى لو أستطيع تسجيل هذا الصمت. إنه مثل قاع البحر. في صمت مثل هذا، يصنع عقلي ضوضاءه الخاصة، أستطيع سماع القمر، أستطيع سماع النجوم. بين حين وآخر طفلٌ مريضٌ يلفظ أنفاسه الأخيرة في أحد الأكواخ.

(شرعتُ في كتابة هذا منذ ساعتين. أشعلتُ شمعة، ولكن اللهب جذب الحشرات الليلية، بما فيها عثة بحجم عصفور أطفأت اللهب في غاراتها ثم اصطدمت بقدمي بجناحيها المحترقين الملطخين بالبارافين، وجثمت هناك تتخبط وتحترق لعدة دقائق؛ وكل ذلك بسبب عشقها.. وبعدها رأيت القمر المنتصِف يظهر، لذلك انتظرت ضوءه لأكتب وأنا أجلس على مدخل هذا الكوخ. أحاول تخمين هذا الوقت، ولكن القمر بدأ يتزايد ويَكبر لاحقاً، وأتذكر أنه ظهر في حوالي الساعة العاشرة مساءً في آخر مرة عندما كانت ساعة يدي معي).

لن أزعج نفسي باللحاق بكِ، فيوماً ما سأرفق كل ذلك مع سرد كامل للوقائع، سوف أطويه في ورق بني وأربطه بخيط

وأضعه داخل طرد دي إتش إل[1] مُرسلٌ إليك، أو إلى تينا هنتنجتون. إلى أيّ منكما أنا أكتب؟

إليكِ، يا دافيديا، فقط لإخبارك (إذا وَصَلَتكِ هذه الرسالة) أنني ما أزال على قيد الحياة حتى التاريخ أعلاه.

للمرة الثالثة خلال عشرة أيام، أنا مأسور، لست حبيساً عند أحد، ولكنني عالق بلا خيار بخصوص الحركة والانتقال. في عالمي، يلتحم الزمان والمكان في الساعة الثالثة من عصر يوم الثاني من نوفمبر في مطعم بوارتشي في فريتاون، هل تذكرين البوارتشي؟ إنه يبعُد 5000 كيلومتر و 112 ساعة عن هذا المكان والزمان. ليس لديَّ أدنى فكرة حول كيفية الوصول إليه.

لديَّ بعض الشموع وأعواد الثقاب، ولكن كما ذكرت الحشرات اللعينة. لديَّ ورق وأقلام رصاص وسكين، ملابسي على ظهري. 720 دولاراً أمريكياً. 60 ألف شلن أوغندي. لا بطاقات ائتمان ولا تذاكر طيران، لا جواز سفر، لا وثيقة تحقق شخصية. لا أقراص ضد الملاريا. كل يوم، أُصْبِحُ أفريقياً أكثر.

أعتقد أنه عندما تغير الرياح اتجاهها سيكون بإمكاني سماع خرير الماء أسفل التلّة، أو ضحكاتِ الناس أو بكائِهم بالأسفل.

(1) دي إتش إل (DHL): هي قسم من مركز بريدي ألماني يقدم خدمات البريد السريع دولياً. تم تأسيسها في عام 1969. قامت الشركة بتوسيع نشاطتها في العالم كله في أواخر السبعينيات من القرن العشرين. **المترجم**

منذ بضع ساعات، في الغسق يا دافيديا، تسلقتُ هذه الهضبة ووصلتُ قرية جبل الماء الجديدة. وقفت بين عشرات الأكواخ، لا جبل في مرمى البصر. حوَّلَتِ الحوافرُ والأقدامُ قمة الهضبة إلى بقايا طينية مسطحة. رتوش الألوان الوحيدة تأتي من أباريق صفراء اللون تتسع عشرين لتراً من الماء، جميعها تقبع حولي. وتابوتان براقان قرمزيّا اللون بحجم طفل. بجانب التابوتين، رجلان عجوزان يحفران الأرض، أحدهما بفأس، والآخر بمجرفة، وكلاهما حافي القدمين ولكنهما يرتديان أكماماً وسراويل طويلة.

بالقرب منهما، ثمة رجل وامرأة كانا كأنهما يفككان أحد المنازل، يزيلان القش، ويُنَحِّيان الأشياء جانباً. توقفت المرأة، حَنَتْ رأسَها للخلف، ووجَّهت وجهها إلى السماء ـ توقَّعتُ نحيباً محزناً، ولكنها ارتعدت قليلًا فقط، ثم سَوَّت الأمر في ذهنها، كما يبدو، وعادت إلى العمل.

تتسيد المشهد في الجوار شجرة عملاقة، غير مورقة، مرعبة الشكل من أعلى المرتفع (أستطيع سماع حفيفها في النسيم الآن وأنا أكتب). وقف أربعة أشخاص عند قاعدة الشجرة، وبدؤوا يصيحون بصوتٍ عالٍ صوب الأفرع الأعلى من الشجرة ككلاب الصيد. قابلتني امرأة، وكانت بيضاء، وقالت لي وأنا في طريقي إليها، «هل تتساءل أين ذهب الدجاج؟»

ـ فأجبتها لا ـ «والماعز؟ ماتوا جميعاً. ومعظم الأطفال ماتوا. هل أنت تائه؟» ـ قلت لها بعض الشيء ـ «تبدو مضطرباً»ـ فقلت كنت كذلك.

سارت عبر العديد من القرى مع الآخرين، امرأتان ورجلٌ قويُّ البنيان يحمل منجلاً على كتفه، كلهم أفارقة. كانت هي الوحيدة البيضاء بينهم ـ بيضاء وممتلئة الجسم، من المحتمل في الثلاثين من عمرها ـ كانت متسخة من السير، ولكنها كانت سليمة ومعافاة ومنتصبة.

قلت: إني أعرفك. لقد رأيتكِ في فندق النيل الأبيض، أليس كذلك؟ كنتِ تسبحين في بركة السباحة.

«زوجي جيم وأنا تابعان لبعثة شمال شرق الكونغو التبشيرية التابعة لكنيسة السبتيين».

«كان لديّ انطباع بأن الأمر كان شيئاً من هذا القبيل».

«إنها مشيئة الربّ»، قالت. «ولكنك كل يوم تريد قتل شخص».

قال الرجل الذي يحمل المنجل، «علينا المضيّ، يا أمي».

«أعلم ذلك. قلت هذا للتوّ».

أخبرتني أن زوجها أمضى اليوم في داربا، في محاولةٍ منه للعثور على أحدٍ من وزارة الصحة لعمل أيّ شيء هنا، «أو الصليب الأحمر أو أيّ شخص، شيء مضحك. ولكن علينا أن نحاول».

«ماذا عن أطباء بلا حدود؟»

«سيتواصل معهم أيضاً، إلا أنهم يرغبون بالبقاء قريبين من بونيا من أجل الحصول على الإمدادات، وقريبين من المطار».

استمرت المرأة في التلويح بيديها وحركت أصابعها وكأنها تتصارع مع خيوط عناكب؛ وخشيتُ على سلامة عقلها بقدر ما كنت أخشى على سلامة عقلي أنا. قالت: «تفقّدنا ثلاث قرى أخرى في اليومين الماضيين، ووجدنا نفس الشيء على مدى خمسين كيلومتراً حولنا. الناس مجانين، والماء سام، الكل يموت. أقنعناهم بإخلاء المكان، الكل باستثناء هذه المجموعة، لديهم ملكة تحكمهم من فوق قمة شجرة. تعال هنا لترى بعينك».

التحقنا بالآخرين. على بعد عدة أمتار فوقنا، بين غصنين كبيرين، تدلّى كرسي كان باستطاعتنا رؤية الجزء السفلي منه، وزوج من الأقدام، ترتديان حذاء تنس أبيض، تتدليان إلى أسفل الكرسي، في الأغصان التي فوق الكرسي، كانت هناك باقات من القش، من الواضح لحماية صاحبة القدمين.

«لن تنزل حتى الصباح، ولكن لا يمكننا الانتظار حتى ذلك الحين. سنقابل القسيس في كانانجا. إنها على بعد كيلومترين من هذا الطريق، أو أكثر».

بَدَت القدمان في الأعلى ثابتتين في مكانهما. «هل هي نائمة؟».

«لا أعرف ما هي، هل أنت ذهب أم هيدروكربونات؟».

«عفواً؟».

«هل أنت موظّف في إحدى الشركات؟ أية شركة بالتحديد؟».

«لا هـذه ولا تلـك، أنـا هنـا للبحـث عـن أحـد أصدقائـي، ولكنني لـم أعثر عليـه حتّـى الآن. لـم أر أيّ شـخص، في الواقـع».

لقـد وقفنـا علـى قطعـة أرض بنيـة اللـون تمتلـئ بقشـور الـذرة وقشـور المَنِيْهُـوت[1] المبعثـرة نظـرتُ ناحيـة الغـرب فرأيـتُ اثنيـن مـن أبـراج السـجون المتباعـدة، وأشـجاراً منفـردة، والعديـد مـن الأكـواخ، كل ذلـك كان بمنظـر ثنائـي الأبعـاد، كلهـا منبسـطة مقابـل غـروب الشـمس، وفـي الاتجـاه الآخـر، اغتسـل كلُّ شـيء بضـوء معدنـي كئيـب، والتابوتـان الصغيـران، علـى بعـد عشـر خطـوات منّـا، ظهـرا بلـون أرجوانـيٍّ فريـد، لـون أرجوانـي لـم يسـبق لـه مثيـل. وبجانبهمـا الحفارتـان القديمتـان اللتـان اختفتـا تقريبـاً فـي الأرض، اقتربـتُ منهمـا أكثـر ونظـرت، فوجـدت أن الحـد الفاصـل بيـن القبريـن التـوأم قـد انهـار فأصبحـا حفـرة واحـدة كبيـرة. وبينمـا كان الرجـال يقومـون بتسـوية جوانبهـا بأدواتهـم، كانـت أقدامهـم

(1) المنيهـوت: المَنِيْهُـوت أو الكاسـافا أو البَفـرة (في السـودان): شـجيرة خشـبية موطنهـا أمريـكا الجنوبيـة، تـزرع علـى نطـاق واسـع كمحصـول سـنوي في المناطـق الاسـتوائية وشـبه الاسـتوائية. وهـي مصـدر رئيـس للكربوهيـدرات، والكاسـافا هـو ثالـث أكـبر مصـدر للكربوهيـدرات للغـذاء الإنسـاني في العـالم، وأفريقيـا أكـبر مركـز إنتـاج لهـا. **المترجـم**.

تنغمس وتغرق في الوحل حتّى الكاحل، قد يكون هذا الشيء تحديداً هو الذي قتل الفقراء المساكين.

قالت: «عادةً عندما يموت شخص يبدؤون فترة عزاء يقضونها بالولولة والعويل وقرع الطبول، ولكن وبسبب الكثير من الوفيات، أصبح الأمر مجرد عمل روتيني. المنطقة بأكملها مسمّمة بفضل الرغبة في الحصول على المعادن النفيسة. إنه تقليد لصورة روحانية مُحَرَّفة، هل أنت مؤمن من نوع ما؟».

«لا».

«سنخرج من هنا بعد غدٍ، أكاد أموت فرحاً».

«كيف ستسافرون؟».

«سيراً على الأقدام، في الوقت الراهن. جيم معه سيارة تروبر. سنقوم بجولة أخرى عبر القرى، ثم سنعود إلى لوبومباشي[1]. وسنأخذ طائرة من بونيا».

قلت لها: «انظري، إذا وجدتُ صديقي، فسنحتاج إلى من يُقِلّنا للخروج من هنا. لا مانع لديَّ للدفع أو الاستعطاء والاستجداء».

«الأمر يتوقف على عدد الأفراد الذين سيأتون في السيارة،

(1) لوبومباشي (Lubumbashi) هي ثاني أكبر مدن جمهورية الكونغو الديمقراطية بعد العاصمة كينشاسا. وهي من أهم المدن في جنوب شرق البلاد. تعرف المدينة بمناجم النحاس، وتقع على ارتفاع 1000م فوق مستوى سطح البحر. **المترجم**.

إلى أين ستذهبون؟» ـ قلت لا أعرف ـ «أيّ فندق لائق، هل أنا على حق؟» ـ قلت نعم ـ أوصَتني بالتوجه إلى بونيا. «هناك قدر كبير من نشاطات الأمم المتحدة. وقوات حفظ السلام وما شابه. إنها بلدة للأمم المتحدة».

«كم تَبعُد بونيا؟».

«مئتي كيلومتر. إنها أقرب مهبط للطائرات. تستخدمها الأمم المتحدة، وبعض شركات الطيران».

«من فضلكِ يا سيدتي. أرجوكِ. لا نريد مقاعد. ضَعونا على السقف. حقاً. فهذه إفريقيا».

أسعدتني بقولها: «إننا قد نمر من هنا بعد يوم غد. سنبذل قصارى جهدنا لنحملك معنا. ابحث عن إيسوزو تروبر زرقاء اللون وسقفها أبيض».

«سأقوم بالبحث عنها، صدقيني».

«في هذه الأثناء، ستقابل الملكة. ومن يدري فقد ينتخبوك ملكاً».

«هل تسخرين مني؟».

«بعد فترة من الوقت»، قالت: «كل شيء يغدو مضحكاً»، لثانية واحدة، أعتقدُ بسبب غضبها الشديد بَدَت مثيرة. الْتَفتَتْ إلى أصدقائها، «كانانجا هي النقطة التالية. ميلين فقط، أليس كذلك؟».

ساروا، الأربعة جنباً إلى جنب. راقبتُهم وهم يبتعدون. صوب أسفل التل، سطع وميض، وبدأ يهتزّ على الأرض .. لم أعرف اسم المرأة ولم أخبرها باسمي، حتى لم أسألها إذا ما كانت قد رأت شخصاً مثل مايكل.

غربت الشمس. وأصبح لون الجانب الغربي بلون باذنجاني ساطع بكثافة، ومخيف. وقفت وحدي بجانب شجرة الملكة، ناديت اسم مايكل فلم أحصل على أيّة إجابة، على حد علمي، فالملكة الآن تغط بنوم هادئ آمن مريح.

نظرت في واحد أو اثنين من الأكواخ. تجاهلني الناس الذين بداخلها، حتى عندما ناديتهم لم يأبه بي أحد.

خيّم الظلام، ووجدت هذا الكوخ فارغاً فدخلت إليه وجلست، هنا على هذه الأرض الترابية عِشتُ الساعات القليلة الماضية، ومن المحتمل سأبقى هنا حتى أموت، ربما من العطش؛ لم أشرب الماء منذ ظهر هذا اليوم. وقريباً سأنزل إلى الأسفل وأشرب من مياه الجدول السامة.

(27 أكتوبر، قرابة الساعة 7:00 صباحاً)

عندما تعكرت أحلامي بسبب صراخ امرأة، لم أُلْقِ للأمرِ بالاً ولم أفكر بالموضوع بتاتاً ـ فهناك دائماً امرأة أو رضيع أو حيوان يصرخ ـ وبقيتُ في جُنْحِ ظُلمَةِ رأسي لأطول فترة

ممكنة قبل أن أستيقظ ظمآنَ وخائفاً في هذا الكوخ، كنتُ أجثم في زاوية الكوخ وصرخات تلك الأنثى مستمرة. وصوتُ طَرْقٍ أو تقطيعٍ أيضاً ـ لم يكن الصوت إيقاعياً، ولكنه كان عنيفاً: عليّ التبول.. أريد ماءً.. رجل يصرخ أيضاً: هذا العطش يقتلني.. أعطوني ماءَ صرفٍ صحي؛ سأشربه. لكن لا يمكنني البحث عن جدول الماء الآن. وأخشى أن أغادر هذا الكوخ.

دافيديا: لقد ألقيتُ نظرة.. إنه مايكل هناك في الخارج. أدريكو، مايكلُنا نحن.

لن أخرج للخارج. أنا سعيد برؤيته ـ لقد جئتُ إلى هنا بحثاً عنه ـ ولكنني لن أقوم بالتعريف عن نفسي إلى أن تتشكل لديَّ فكرة عما يحدث.

أرى الكثير من القرويين يجلسون على الأرض حول التوابيت والقبر والأكوام الترابية. يجادل مايكل ـ يتشاجر ـ مع امرأة ضخمة، هو والشخص الذي يصرخ، هما الوحيدان اللذان استمرا بالوقوف، يطاردان بعضهما البعض في دائرة مساحتها عشرة أمتار، وقد جعلا الناس والنعشين والقبر المزدوج بينهما.

يمكنني عَدُّ تسعة وعشرين شخصاً جالسين على الأرض، النساء يرتدين التنانير الطويلة والقمصان ذات الألوان والأنماط الجريئة؛ الرجال يلبسون كنزات أو قمصان تي شيرت كبيرة عليها

شعارات فاهية اللون، كلهم يبدون كأنهم تمرَّغوا بالوحل، ولكنهم لا يهتمون. امرأتان مع طفلين استلقيا في حضنيهما، والطفلان كانا عاريين نحيلين إلى العظام ومريضين، عيونهما مفتوحة ويحدقان في عالم آخر، امرأة أخرى في لباس راقٍ ولكن بغطاءٍ قذر وغطاء رأس جلست على رأس كومة ترابية، ترقب الجميع.

يحمل مايكل منجلاً بكلتا قبضتيه، يرفعه أحياناً فوق رأسه كما لو كان يقصد أن يقطع الشمس من السماء، هو والمرأة كانا يصرخان بنوع من لهجات الكريول أو اللوغبارا التي كانت غير مفهومة لي.

تخميني: المرأة هي ملكة القرية، دولسي، وقد نزلت من أعلى شجرتها ـ عرفتُها من خلال حذاء التينس الذي كانت تلبسه ـ وهؤلاء الناس قد تجمعوا لتشييع اثنين من الأطفال الموتى، ومن المؤكد أن مايكل قد أوقف مراسيم التشييع بصرخاته ومنجله. هو ودولسي يصرخان بالعواء والعويل في وجه بعضهما البعض إلى درجة أنهما اختنقا بالكراهية والبغضاء، ولكن لم يكن هذا التجاذب في آن واحد ـ كانا بين شد وجذب ـ أي، كما بدا الأمر، جرى الأمر كنقاش بينهما وهما يدوران حول الآخرين.

كانت ترتدي تنورة طويلة سوداء وقميصاً رجالياً بلا أكمام، ممزقاً حتى أسفل صدرها. كان لها على رأسها الذي يشبه رأس

فرس النهر كتلة كبيرة من الشعر الإفريقي المنفوش، وكانت عيونها تتقافز من المآخذ والجفون التي تغلق عليها كمناقير الطيور، فمها صغير ومستدير، ولكنه يفتح بضخامة مروعة، يُظهِر العديد من الأسنان البيضاء المربعة.. أنفها واسع عريض مثل بسكويت مثلث كان قد انسحق على وجهها. كانت سمينة وضاحكة، وتتبختر في الأنحاء، تاركة الناس والتوابيت والقبر بينها وبين مايكل.

كان الشعر على رأس مايكل قد بدأ بالنمو مجدداً. وكان يتجول في الأنحاء بصندل مطاطي، وجينز أزرق، وكنزة رمادية بقلنسوة، مُلوِّحاً بالمنجل بيده اليسرى وهو يصفع صدره بيده اليمنى، على كلمة هارفارد التي كانت مطبوعة على صدر كنزته.

خلال كل هذا كنت أساساً أشعر بالعطش. لم يكن لديَّ أيّ شيء أشربه منذ ظهر أمس، وكل هذه الدراما، والسماء كلها والأرض والمحيطات لا تساوي شيئاً مقابل عطشي.

قبل دقيقة واحدة أخذ مايكل بتقطيع كرسي المرأة بمنجله، كرسيها الذي استقر على الأرض بجانب شجرتها. تمايلت صوبه بجلال وعظمة قاذفة بجسدها في الكرسي تماماً، ومتحدية مايكل في أن يستمر بهذا التدمير وبأن يُقطِّعَها إرباً إرباً كذلك.

إنه يتحدث الإنجليزية ـ «سأدمر هذا المكان!»

والآن توقَّفَتْ عـن الصـراخ والعويـل، ولكنهـا بـدأت تتغنـى بقوتهـا ونفوذهـا، علـى مـا أظـنّ، وهـي تجلـس علـى عرشـها، وتنـادي صائحـة، أعتقـد، أحضـروا لـي طعامـاً! أحضـروا لـي طعاماً! حتى تقدمت امرأة ما على طبق بلاستيكي ثم تراجعت وهي تعتذر، بـدأت دولسي بإلقاء الحبوب إلـى فمهـا، اندلقت الحبوب وتناثرت على جميع أنحاء بطنها. ماء الآن! أحضروا لـي مـاء! تراكضـوا من أجل أن يجلبوا لهـا لتراً من المياه المعبأة - الميـاه اللعينـة المعبـأة فـي زجاجـات. مَسَـحَت رأسَـها منهـا ونضحـت المـاء علـى وجههـا. وظلـت القطـرات علـى وجههـا خـلال حديثهـا باللغـة الإنجليزيَّـة مـع مايـكل.

توقفـا عـن كل شـيء، إنـه يلتقـط أنفاسـه.. اسـمعي، دافيديـا، وجهـه يخيفنـي. والمنجـل يرتعـش فـي يديـه.

إنها تضحك عليه.

أحتاجُ إلى الماء وسأخرجُ الآن قبل أن يُجهِزَ عليها مايكل.

(27 أكتوبر الساعة، 5:30 مساء تقريباً)

الشـمس منخفضـة، وحمـراء جـداً، متوهجـة للغايـة ولئيمـة. لا أسـتطيع النظـر إلـى الغـرب.

نزلـت إلـى الأرقـام ذات الخانتيـن: 94 سـاعة سـفر. إضافـة إلـى 30 دقيقـة. ولا يـزال أمامـي 5000 كـم علـيّ قطعُهـا.

شربتُ من الجدول حتى ارتويت. لا يُهمُّني. السموم مفعولها بطيء. كان سيقتلني العطش بحلول الغد. وأنا الآن أستريح بجانب الجدول بين بعض الزملاء الجُدد، أربعة قطعان براهمية[1] نحيلة كالهياكل العظمية وبعيون تعيسة حزينة، ورعاة ثلاثة يقومون على رعايتها. لاحقاً سأخبركِ عن هؤلاء الأشخاص. لا أنوي الرحيل عن هذا الملاذ الذي اعتدت العيش فيه، وأشغل أوقات فراغي بالكتابة وأشياء أخرى سأخبرك عنها، لكن أولاً ـ فيما يتعلق بالمرح الصاخب صباح هذا اليوم.

عندما خرجتُ من كوخي الذي أختبئُ به، كان مايكل يعلن مرة أخرى:

«سأدمرُ هذا المكان!» ثم قال وهو يلوح بمنجله: «أيها الناس أنتم مجانين!».

وقفتُ أمام مدخلي حتى لاحظني مايكل. في البداية لم يكن قد شاهدني، لكن القرويين فعلوا، ودون الابتسام والضحك المعتاد، لم تحتل أفواههم أي مكان من وجوههم، وبدت عيونهم ضخمة بصورة غير طبيعية.

رؤيةُ مايكل لي كانت بمثابة صفعة أيقظته من نومه. أثرُ تمييزِهِ لي بدا وكأنه ارتحلَ من قدميه إلى الأعلى، وعندما وصل إلى وجهه دَنَوتُ منه، ولكن ليس لدرجة أن أكون في متناول منجله.

نظـر حـول نفسـه: يوجـد نحـو اثنـي عشـر كوخـاً أو قرابـة ذلـك العـدد؛ الشـجرة الوحيـدة كانـت ميتـة؛ كومَتـانِ مـن التـراب الأحمـر؛ تابوتـان أرجوانيـان، وحفـرة؛ وكانـت عشـيرته تحتشـد فـي المـكان كمـا الناجيـن مـن غـرق سـفينة.

قال: «أين هي؟» كان يقصدكِ أنتِ، يا دافيديا.

قلت، «قبض علينا الأميركيون». «زِيُّكِ، زِيُّ العاشرة».

«أين هي، يا ناير؟».

«رَحَلَتْ. صَعَدَتْ على متن مروحية ولم تنظر إلى الوراء».

ذوى عمـودهُ الفقـري، وتَدلَّـى سـلاحه إلـى جانبـه. «فـي وقـت مـا أثنـاء وجودنـا فـي آروا، أَخَـذَتْ قلبهـا منـي بعيـداً. شَـعَرْتُ بذلـك. لقـد حـدث شـيء مـا، فـي آروا».

أردتُ أن آخـذه بعيـداً عـن هـذا المشـهد لأتحـدث عـن المشـهد الآخـر، عنـكِ أنـتِ، يـا دافيديـا، وعـن الكولونيـل وعـن زلاجـة المروحيـة التـي غَسَـلَتْ أَثَـرَكِ والسـحابة الصاخبـة التـي ابتَلَعَتـكِ.

علـى أيّـة حـال: امـرأة الدولسـي اقتربـت مـن وجهـي وأبـدَت ضحكـة رقيقـة عذبـة، وزائفـة؛ ثـم صَرَخَـتْ، «اندحـر السـيد إلـى الـوراء!».

قال مايكل: «هذه المرأة مجنونة».

قلت: «بالتأكيد أنتِ دولسي».

قالت: «لقد جَلَبْتَ إلينا أحد الإنجليز!!» (أستَخدِمُ علامات الترقيم بشكل مبالغ فيه لأنَّ طريقتها جاءت مباشرة من الكتب الهزلية. كانت تتواصلُ معنا بالتعابير الصوتية التي يستخدمها رسامو الكاريكتير للتعبير عن الصرخات، والصيحات ـ ماذا أيضاً ـ القهقهات، والهتافات، وإلقاء الخطب والمواعظ، وإصدار البيانات ـ وكان علي أن أتفق على الفور مع مايكل بأنها مجنونة). «أنتَ على حقّ، لأنني!!! ـ أنا دولسي!!!».

«يا له من اسم غبيّ تنادي به نفسَكَ»، قال مايكل.

رَفَعَتْ وجهها إلى السماء وصاحت ها ـ هاه.

«أعي أنها ملكة القرية أو ما شابه ذلك؟»

«بل أكثر من ذلك. إنها كاهنةُ الإبادة الجماعية».

خاطَبَتْ دولسي إخوتَها، مُشيرةً إلى رأس مايكل. «هل تسمعون الشيطان يتحدث في فمه؟».

«تدعوني سجينها»، قال مايكل. «تقولُ لهم إنها تُجبِرُني على البقاء هنا بقوتها ونفوذها».

«إنها تتحدث الإنجليزية جيداً».

«إنها من أوغندا. إنها ابنةُ عمٍّ عمي».

أشارت دولسي إليّ الآن، لَمَسَتْ أنفي تقريباً: «عشيرة هذا الشخص تدعى بونغ ـ كو. أكاذيبهم تجعلك تضحك!»

قال مايكل: «إنهم يعرفون حقيقَتَكَ». قلت: ماذا؟ ـ قال: «ألستَ كاذباً؟ لماذا أنت هنا دون دافيديا؟ إذا كانت العاشرة قد قبضت عليكَ، فكيف استطعتَ أن تنجو منهم؟ هل قُمْتَ ببيعي من أجل حريتك؟ كم تبقّى من الوقت قبل أن يأتوا إليّ؟» ورفع المنجل عالياً. «أشعرُ وكأنني أقومُ بِقَطْعِ الأكاذيب منك!».

لم يرعبني المنجل كثيراً ـ فقط النظر إليه. كانت لحيته تنمو ببقع وجدائل. رأسٌ أزغب، عيونٌ حمراء، وشفتان ضخمتان جاثمتان. كان يَسُدُّ الجرح في ساعده بالطين الأحمر. وجهُهُ الأسود الدهني، قميصهُ المُنَسَّل، وجينزه البالي، جميعُها مُلطَّخة وغارقة بالطين الأحمر. وصندله وأقدامه كانت ملطخة بنفس الوحل الإفريقي.

«مايكل. اخفض سلاحك. أنا بحاجةٍ للماء».

«لا أستطيعُ مساعدتكَ. هل ترى عينيها المجنونتين؟» جلست دولسي في كرسيها الخشبي مثل طفل ضخم، يَبُثُّ غضباً بهيجاً. «تطلبُ هذه المرأة تقديم قربان. إنها تريدُ دفن شخص وهو حيّ. إذا لم أبقَ أراقبها عن كثب، فسترمي بأحد هؤلاء الناس في القبر».

«هل حَصَلَتْ على المزيد من المياه المعبأة؟».

«لديها مخزن تموين كامل».

«أين؟ — أرجوك».

«مت من العطش، ياناير. لقد قمتَ ببيعي للجهاز».

«ليس لديَّ وقتٌ لاتهاماتك».

«يجب أن تكون أنت من يذهب إلى القبر مع هؤلاء الأطفال».

«اخفِض سلاحَك وساعِد صديقَك».

«تضحية مقابل تضحية».

«شيئان»، قلت وأنا أتراجع للخلف. «أولاً، الماء. ثم، نخرج من هنا معاً». أعتقدُ أنني بَدَوتُ غبياً بهذه الهفوة. وبدا هو غبياً مع خنجره المرفوع في الهواء، كما لو كان عالِقاً هناك ولا يتمكنُ من إنزاله.

دسست رأسي في عدة أكواخ ووجدت واحداً مكدساً بنصف دزينة من صناديق علب المياه المعبأة وبصناديق من الوجبات المشتقة من الحبوب والمعلبات. يحرس مدخل الكوخ رجل يتكئ على مجرفة. رفعها للأعلى كالهراوة عندما وصلتُ بالقرب منه. حاولتُ رشوته بكل ما أملك من شلنات أوغندية، ثم بالدولارات الأمريكيّة: عشرين، مائة، مائتين لكنه رفض إعطائي أيّ شيء.

جَرَّبْتُ هنا نوعاً من الانسلاخ عن المكان. الدقائق اللاحقة كانت قد شردت مني ومن إدراكي ولست متأكداً من أنَّني أتذكرُ الأشياء حسب الترتيب الفعلي لحدوثها.

رأيتُ القرويين كلهم يقفون حول القبر، يَخْطُونَ بأقدامهم وهم في مكانهم، يَئِنُّون ويرتجفون. كانوا يرقصون ويغنّون.

واستأنف كل من الدولسي ومايكل رقصتهما الخاصة وهما يدوران حول المشهد.

لم ألاحِظ أن التوابيت الأرجوانية كانت قد اختفت إلا عندما عادت للظهور على أكتاف أربعة رجال جاؤوا اثنين اثنين من خلفي، الأطفال الموتى، أعتقد، كانوا يرتحلون فيها. أفسَحَ الحشدُ الطريق، وهم مازالوا ينشدون ويتحركون بنشوة زومبية[1].

انتظر كل الحَفَّارَين داخل الحفرة، ثم قاما بتناول واحتضان كل من التابوتين من أعلى وأنزلاهما إلى أرضية القبر محدِثينَ بعض الخشخشة. ثم امتدَّت أذرعُ الواقفين في الأعلى لرفع أحدهما من

(1) نسبة إلى زومبي. والزومبي (بالإنجليزية Zombie): جثة بلا روح يُعتقد أنها عادت للحياة على يد السَّحرة، أو أي وسيلة خارقة للطبيعة. تعود جذور الزومبي للديانة التي يؤمن بها الناس في غرب أفريقيا. والزومبي كلمة من منطقة غرب أفريقيا، تم تسجيلها لأول مرة في الإنجليزية عام 1819م. كلمة «Zumbi» تعني «صنم» و«nzambi» تعني «إله» في لغة الكيكونجو والتي يتحدث بها الناس في الكونغو، وجمهورية الكونغو الديمقراطية والمناطق المحيطة. ويشير مصطلح الزومبي إلى «إله الثعبان» في ديانة الفودو في غرب أفريقيا. فحين تم اصطحاب مجموعات من غرب أفريقيا إلى هاييتي وأجزاء من الكاريبي خلال القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، قضت على معتقداتها وممارساتها الدينية. وانتشرت فكرة الزومبي تدريجياً في الولايات المتحدة وأوروبا. أما في القرن العشرين فنشط تناول هذا الموضوع في الخيال والسينما والتلفزيون. وغالباً ما يطبق هذا المصطلح المجازي لوصف شخص منوم مجرد من الوعي الذاتي. **المترجم**

القبر، في حين صعد الآخرُ على أحد التوابيت وقفز خارجاً من تلقاء نفسه، تاركاً وراءه آثار أقدامه العارية الملطخة بالوحل على التابوت.

صَرَخَتْ دولسي طويلاً، وتحدث مايكل لفترة وجيزة بنغمة أقل حدة بكثير؛ تحدث كلاهما بلهجة اللوغبارا، على ما أظن.

التَفَّ الرعاع حول القبر وجثموا على رُكَبِهم، وشرعوا بإهالة التراب في الحفرة بأيديهم. ألقوا الأكوام مرة أخرى في الحفرة وأحنوا رؤوسهم أثناء خطابٍ ألقَتْهُ ملكتهم والذي تكرر فيه كثيراً ذِكْرُ «دولسي، دولسي». عندما اقتَرَبَتْ مني، بدأت حديثها باللغة الإنجليزيَّة: «ما هو ذلك الاسم؟ أنا دولسي فيتا!! أنت تعرف أن اسمي يعني الحياة حلوة. هذا أنا. أنا أجلِبُ الحياة. الحياة حلوة. ولكن يجب علينا أولاً أن نُضَحِّي». تنقَّلَتْ بين الحشد، وهي تنظرُ من وجه إلى وجه، وتنحني باتجاه الوجوه: «هل تستطيع إيقاف الموت؟ هل تستطيع إيقاف الموت؟» ماذا عنك؟ هل تستطيع إيقاف الموت؟ لا! لا تستطيع.

قال مايكل لها: «إن شعب نيوادا ليسوا أرواحيين وممن يقدمون القرابين. كانت هذه القرية مسيحية» لفظها بالإنجليزية «كريشين» بدلاً من «كريستيان»[1]. ثم صاح أيضاً باللغة الإنجليزية قائلاً:

(1) مسيحي تعني بالانجليزية «كريستيان» (Christian)؛ ولكن مايكل لفظها «كريشين» (Chrishen). **المترجم**

عـودوا إلـى منازلكـم! امتـلأ القبر بمـا فيـه الكفايـة! عـودوا إلـى منازلكم!»

الكثيـر مـن هـؤلاء الرعـاع نهضـوا وتفرقـوا بعيـداً. بعضهـم كان يبكـي، ولـم يتحـدث أحـد. قرابـة العشـرة أو يزيـد بقـوا مـع ملكتهـم.

راقَبَـتْ دولسـي الآخريـن وهـم يرحلـون، وانتابنـي إحسـاس بـأن مايـكل قـد انتصـر هنـا.

قَدَّمَـتْ الملكـة رقصـة بطيئـة أشـبه مـا تكـون برقصـة الفيـل، وهـي تُغنِّـي هـا-هـاه، هـا-هـاه. ثـم أشـارَتْ إلـى مايـكل وقالـت، «أنـا ذاهبـة إلـى نومـي الآن. عندمـا أحلـم، ستتحوَّلُ أجـزاؤك إلـى صخـور بيضـاء!»

ضحـك مايـكل. كان ضَحِـكاً كاذِبـاً، ولكنـه مرتفـع، خـرج مـن أعمـاق رئتيـه. قـال، «يـا امـرأة! لـو كان لـديَّ ديـزل، لقُمـتُ بنَقْعِـكِ وحَرْقِـكِ وأنـتِ علـى قيـد الحيـاة».

«دولسـي ذاهبـةٌ إلـى الأعلـى!» هبطـت الملكـةُ علـى عرشـها، مـع كثيـر مـن الهزهـزة الاسـتعراضية والمباهـاة. سـارعَ الحَفَّـاران لمسـاعدتها.

بجـوار الشـجرة كان هنـاك طاولـة خشـنة غيـر مصقولـة، عليهـا بعـض الأشـياء، بضعـة لتـرات مـن الميـاه المعبـأة فـي زجاجـات فارغـة، منيهـوت كاملـة، بعـض حبـاتٍ مـن المانجـا، بعـض حبـاتٍ مـن البرتقـال الأخضـر الـذي يأكلونـه فـي هـذه المنطقـة. ثمـة مسـامير مطروقـة فـي جـذع الشـجرة تَدَلَّـتْ منهـا أكيـاس تسـوق

بلاستيكية، كانت مليئة بأشياء لم أعرفها. ربما ملابس أو طعام. وعلى حبل مربوط طرفه الأول بعمود مغروز بالأرض بالقرب منا وطرفه الآخر بالشجرة رفرفت بعض الأشياء البرّاقة وِشاحٌ، وتنورة، وتي شيرت. وزوج من الجوارب الرياضية البيضاء. وثمة مسار متعرج من الدرج يصعد إلى أعلى جذع الشجرة، لكن دولسي لم تكن تستخدمه.

رَفَعَتْ دولسي إصبعاً واحدة وحركتها بحركة لولبية، فقامت امرأتان متينتان ورجل بإمساك حبلها. ضَحِكَتْ وظَلَّتْ تضحك بينما رفعوها عن طريق نظام بكرات مثبتة في مكان غير مرئي بأعلى الشجرة، رفعوها وهي على كرسيها عن الأرض، فارْتَقَتْ إلى الأعلى بين الأغصان.

أمَلْنا رؤوسَنا إلى الخلف لمشاهدة المنظر، الكرسي المُتمايِلُ، والحبلُ وهو يتحشرج صاعِداً إلى مخبأ الشجرة الوَعِرِ المُتعرج، وهمهماتُ وتمتماتُ الجموع وعلاماتُ التعجب البادية عليهم ـ آييييي آييييي ـ الرياحُ القادمةُ عبر المدى الواسع الفسيح.

فأشارَتْ إلى مايكل في الأسفل. «سيتعفن اسمه!»

تَذكَّرْتُ عنكبوتاً رأيتها تتأرجح على هذا النحو من فرشاة أسنان مايكل أدريكو. فَكَّرْتُ: نعم، كل الأشياء يأتي بعضها مع بعض الآن.

لـم يَـدْرُ بِخَلـدي أن شـيئاً يمكـن أن يصرفنـي عـن عطشـي. بـدأتُ الآن أسمعُ صوتَ محرك، فَحَلَّقَتْ بي موجةٌ من الأمـل. «هـل كان ذلـك صـوت سـيارة؟»

كانت بقرة. ثم جاءَ خُوارُ بقرةٍ أخرى.

قلت: «اللعنة. لا يمكننا الخروج من هنا على ظهرِ ماشِية».

وَجَّـهَ مايكل ضربتيـن إلـى الشـجرة بمنجلـه. تَوَقَّـفَ عـن فِعـلِ ذلـك وبـدا كأنـه علـى وشـك السير بعيـداً إلـى مـكان مـا.

«مايـكل، أُريـدُكَ أن تُرَكِّـز معـي الآن. لقـد تحدَّثـتُ مـع بعـض المبشـرين. يمكنهـم إخراجُنـا مـن هنـا إلـى بونيـا غـداً».

«هذا جيد بالنسبة لهم».

«لا تفعـل هـذا. باللـه عليـك يـا رجـل، ليـس الآن، أنـا بحاجـة للوصـول إلـى فريتـاون، وقـد نَفَـدت منـي أفـكاري».

«اتركني وحدي».

«أنا بحاجةٍ إلى مساعدتك».

«اتركني وحدي».

عندما يكون هكذا.. فإنه هكذا. تركتُهُ وحده.

مشيتُ في الطريق إلى أسفل التلة.

بينمـا كانـت بقـرةٌ محدبـةُ الظهـرِ تُطلِـقُ سـيلاً مـن البـول علـى مسـافة متريـن منـي، غَمَسْـتُ جوربـاً قـذِراً بمـاء الجـدول وعصَرتُـه

في فمي. لم يلمس شفتيَّ أحلى من هذا السائل أبداً إلا بعد خمس دقائق إذ كان حول بقايا جذعِ شجرةٍ في المكان الذي كنت سأسقطُ فيه على ركبتيّ، ثلاثةُ رُعاةٍ قد ظلوا هناك مجتمعين. قدَّمَ لي أحدُهم وعاءً من القرع. اعتقدتُ أنه كان يقصدُ استعمالها كزجاجة ماء، ولكنها في الواقع كانت تسبحُ بسائلٍ أصفر رقراق، عندها أدركتُ أنني بين أفراد قبيلتي.

ثلاثة رجال بصحة جيدة: أحدُهم أصغر سناً، والاثنان الآخران كبيران بالسن. نسيتُ أسماءَهم. هيئتُهُم المنتفخة تشبه هيئة الجثث العائمة بالفورمالين[1]. وثلاث بقرات جائعة توقفت عن النمو وثور يجرجر ذقنه على الأرض لأنه لا يستطيع حَمْل قرونه.

ومِمّا تسنَّى لي فهمه من حديثهم خلال الحاجز اللغوي بيننا، فهمتُ أنهم كانوا يبيعون آخر ما تبقى لديهم من ماشية من أجل موز الجنة[2] وقصب السكر، اللذين يدفنان بطريقة تجعل منهما مشروباً رائعاً يسمونه ماوا. لا أعتقد أنه جيد

---

(1) الفورمالين (بالإنجليزية Formalin): مادة كيميائية تستعمل في التحنيط وكمادة حافظة للأنسجة. **المترجم**.

(1) موز الجنة (بالإنجليزية plantain): هو الاسم الشائع لنباتات عشبية من جنس الموز. وتُستخدم الفاكهة التي تنتجها بوجه عام لأغراض الطهو. يعد موز الجنة طعاماً رئيساً في المناطق الاستوائية بأفريقيا والإنديز. ويتمثل سر جاذبيته في أنه يثمر طوال العام، مما يجعله طعاماً رئيساً يمكن الاعتماد عليه في جميع المواسم. ويشكل ذلك أهمية خاصة بالنسبة للمجتمعات التي تعيش في الجبال أو الغابات وليس لديها تقنيات كافية لتخزين الطعام وحفظه ونقله. **المترجم**.

للأسنان، إذ لم يكن لديهم أيّ أسنان أبداً. أما ما كان في وعاء القرع، أراهنكِ، فإنه يُعطي القوة للعظام.

لا أستطيعُ القول إذا ما كانوا من قبيلة مايكل أو من مجتمع مجاور. كانوا يرتدون صنادل مصنوعة من الحبال. قمصانٌ طويلةُ الأكمام مصنوعة من القماش الخشن، إما بنية أو رمادية، حسب انعكاس الضوء.

غفوتُ بجانب الجدول، ثم استيقظتُ من غفوة طويلة، وها أنا ما زلت أجلس هنا وأكتب دون أية نية لترك هذه البقعة. وإذا ما كنتُ قد فهمت كلامَهم بالشكل الصحيح، فإن مجموعة جديدة من مشروب ماوا ستخرج من الأرض عند غروب الشمس؛ لذا أخطط أن أكون هنا من أجلِ هذا الانبعاث. قبل غفوتي لم أحصل إلا على كميةٍ قليلة من الطعام.

لن أعود إلى أعلى هذه الهضبة لأتعامل مع مايكل. أُفَضِّلُ أن أجرب فرصتي في كتيبة القوات الخاصة العاشرة على أن أُعَلِّقَ آمالي على مايكل أدريكو، هذا الكوميدي المخبول.

يجب عليّ أن أبقى في حالةِ صحوٍ ويقظةٍ من أجل سماع صوت سيارة الإيسوزو الزرقاء والبيضاء.

حقاً؟ انسِ ذلك. ما الاختلاف الذي سيُحدِثه هذا؟ انقضى أسبوعان على مغادرتي لآروا، وكُلّ ما قطعته لم يتجاوز الخمسين كيلو متراً تقريباً.

(نفس التاريخ، 6:30 مساء؟)

أوه، دافيديا! أو ربما أقصد

أوه، تينا!

أيهما كان اسمك، الذي أدعوكِ به، أوه يا امرأة قلبي.

قامـوا بِصَـبِّ مشـروب المـاوا مـن إبريقيـن سـعة كل منهمـا خمسـة لتـرات.

وعاء القرع ظل يدور ويدور.

رفاقـي ذوُو اللـون الأسـود المُطفـأ كلـون الظـلال، يقفـون الآن مقابـل غـروب الشـمس. المشـهدُ وراءهـم كان يبـدو وكأن درِسْدِن[1] تحترق. نسيت أسماءهم. سوف أسألهم مرة أخرى.

ـ أودري

ـ غيسلين

ـ آرماند

كَهَنَةُ الرحيق، قَساوِسَةُ الرعية، الذين أنا واحد منهم.

إذا لـم أتمكـن مـن شـراء طريقـي للخـروج مـن هنـا أو التفكيـر

---

(1) درسـدن (بالألمانيـة: Dresden) عاصمـة ولايـة ساكسـونيا في شرق ألمانيـا. يبلـغ عـدد سـكانها نحـو نصـف مليـون نسـمة. قامـت قـوات التحالـف بقصفهـا بشـكل مكثـف في الحـرب العالميـة الثانيـة. قـدرت الخسـائر البشريـة مـن القـوات الألمانيـة آنـذاك بـ 350000 مـدني، ثـم جـاء في تقريـر رسـمي نـشر عـام 2010 بعـد خمـس سـنوات مـن البحـث وخلـص إلى أنـه كان هنـاك مـا يصـل إلى 25000 قتيـل في قصـف المدينـة مـن قـوات الحلفـاء. **المترجم**.

بأيـة طريقـة للخـروج مـن هنـا غـداً، فسـأرجع إلـى الأمريكييـن وأقـول لهـم: السـجن؟ حسـناً.

قد يكون خَطِّي غير مقروء ـ لنُلقي باللائمة على الظلام.

كمـا أن قلمـي الرصـاص أصبـح بحاجـة إلـى مبـراة، ولكـن دعينـا مـن هـذا كلـه، كفـى.. ممـا يزعـج ويضايـق العقـل والجسـم أن يضطـر المـرء بعـد كتابـة كل نصـف صفحـة إلـى صقـل القلـم وبَرْيِـهِ بالمبـراة.

قـام آودري وجيسـلين وآرمانـد بإشـعال النـار فـي الـروث المجفـف فـوق طبقـةٍ سـابقة مـن القـش، وسـرى ضحكنـا فـي الظـلام عاليـاً مـع شـرارات اللهـب.

بالمناسـبة، يـا دافيديـا، هـذا هـو السـبب فـي أنهـم يمزقـون الأكـواخ هنـا للحطـب.

دافيديا، كم أتمنى لو أنك تقابلين تينا.

تينا، لستُ متأكداً من أنَّني أودُّ أن تقابلي دافيديا.

هـل أناقـض نفسـي؟ لا تقلقـي. سـأقومُ قريبـاً بنسـخ هـذه الملاحظـات وأنـا فـي زنزانـة بالسـجن، وسـيكون لـديَّ مُتَّسَـعٌ مـن الوقـت لأضـعَ أفـكاري فـي ترتيبهـا الصحيـح.

لنُواجِه الأمر. يجب أن أعود إلى الأمريكان.

لقـد قمـت بتحسـين الخطـةِ قليـلاً: سـآخذ آخـر مـا تبقـى

معي من نقود إلى بونيا، وأصرفها في اللهو، ثم أُخْطِرُ الأمم المتحدة ليأتوا للقبض عليّ.

خمسون كيلومتراً في 14 يوماً. وبناءً على حساباتي، كان بوِسعِ مهرج سيرك أن يحقق تقدماً أفضل مني وهو يمشي على يديه بالتأكيد.

تينا.

أنت رائعة يا تينا. وذكية. ربما كان لديك تعاملات مع مايكل. أعتقد أنك قد تعاملت معه. تعرفين ما أرمي إليه؟

(28 أكتوبر الساعة، 8:00 صباحا تقريباً)

عندما واجهتُ مايكل أدريكو مرة أخرى لاحقاً، وجدتُهُ مستمراً بحالته البائسة. بدا وكأنّهُ تعرض للضرب على وجهه بمضرب، لكن الأمر كان حزناً، بؤساً فقط، ولم يكن شيئاً جسدياً؛ كان كل شيء من الداخل. كان ذلك في الليلة الماضية.

بِضْعُ كلماتٍ عن الندم.

هذا الندم يتلوَّى داخلي مثل دوار البحر.

إذا أصابكِ دوار البحر في الآونة الأخيرة، فأنتِ تعرفين ما أعنيه. هذا الندم لا يُطاقُ جسدياً.

تسلَّقتُ التلة في الليلة الماضية بعد أن سهرت مع زملائي

الرعاة. ما هي أسماؤهم؟ يا إلهي. لقد نسيتُ أسماءَهم، والرعاة كذلك، وماشيتهم. أين هم؟ أنا وحدي بجانب الجدول.

هناك سببٌ لتسمِيَتِهم لتلكَ الأرواحِ بالأرواح. إنهم يدخلون، ويسيطرون، ثم يتكلمون ويتجولون. الأرواح الشريرة، شريرة.

الليلة الماضية ظننتُ أنَّني سمعتُ مايكل يقطع شيئاً ما بالمنجل فوق هذه التلة. كان يضرب شجرة دولسي، ويصرخ مع كل ضربة، ناير! ناير! ناير!

من المؤكد أن الوقت حينها كان قد تجاوز منتصف الليل بكثير. لأن القمر كان قد استقر عالياً وأرسل الكثير من الضوء الذي ساعدنا على الرؤية. صعدتُ بِخَطٍّ متعرج أعلى التلة، وأُقِرُّ الآن أنَّني كنت أهلوس. فلا أحد كان يضايق الشجرة.

جلس مايكل على قاعدة جذعها باسطاً رجليه أمامه ومنجله مغروز بشكل عمودي تماماً في الوسط بين رجليه، مُرْخِياً ذراعيه إلى جانبه، ذقنه على صدره، ذات مرة في قندهار رأيتُ رجلاً يجلس هكذا بالضبط، وكان ميتاً.

قلت: «لا يهمني إن كنتَ مستيقظًا، أو ميتاً، أو ماذا».

«إنني مهزوم، هذا كل شيء».

«نحن بحاجةٍ للذهاب، يا رجل. ما الذي يُبقيكَ هنا؟»

«يجب أن يحدثَ شيءٌ ما، شيء لم يحدث بعد».

«ما الذي يمكن أن يحدث؟»

«قد تأتي دافيديا».

«لن تأتي دافيديا. لقد انتابها الاشمئزاز طوال الوقت هنا. لم تنظُر إلى الوراء، يا مايكل. ولا حتى نظرة واحدة».

«لقد وضَعتُها في اختبار شديد القسوة».

«هل تعتقد أنك ستكون الملك هنا، وأن دافيديا ستتقلد الحكم بجانبك كملكة؟»

«أنت تجعل تجربتي تبدو ضحلة وسطحية. أنت مخطئ. فِعْلُكَ هذا يسببُ جرحاً عميقاً بداخلي. لم أقصد أبداً إبقاءَها هنا. لا، كان كل مقصدي هو أن أُقَدِّمَ زواجي كهديةٍ كبيرةٍ لهؤلاءِ الناس فقط، ثم نغادر. كنتُ دوماً أقصدُ أن نغادر».

«تغادر؟ كيف؟»

«هناك دائماً خطة للانتشال والخلاص. كم مرة قلت لك ذلك؟»

«أية خطة؟ من سيستخرجنا؟»

«في هذه الحالة، سنستخرج أنفسنا».

«إذن دعنا نقوم بذلك. بحق الربّ، يا مايكل».

«مِمَّ أنت مصنوع، يا ناير؟ لماذا قمتَ بخيانتنا؟»

«هل من الممكن أن تترك هذا الأمر لوقت آخر؟ دعنا نخرج من هنا، إذا كنت تعرف طريقة ما».

«أنا لن أغادر».

«تعـالَ واشـرب بعـض المـاوا مـع هـؤلاء النـاس أسـفل التلـة. دعنـا نسـترخي، ونتناقـش فـي هـذا الأمـر ».

لـم يُجِـب. مشيتُ بعيـداً علـى أمـل أن يقفـز مـن مكانـه ويتبعني، كمـا تفعـل الكلاب.الحقيقـة هـي أننـا قـد شـربنا المـاوا إلـى آخـر قطـرة، رشـفناه حتـى الرواسـب. لهـذا السـبب، إذا كان لـديَّ أيـة مهمـة مـن مشـيي بعيـداً، فقـد نسـيتها الآن.

أخذتنـي قدمـاي إلـى الأنحـاء؛ وتوقفـتُ عنـد مايـكل مـرة أخـرى. «جيـد جـداً، سـيدي. مـاذا الـذي يحـدث؟»

«دعنا نتحدث قليلاً عن الخيانة».

«أنت خبير بهذا».

«هناك خيانة، وهناك خيانة».

«حتى الآن لا أستطيعُ مجادلتك».

«أنا بحاجةٍ إلى مساعدتك».

«ابتعد عني وارحل».

«بكل سرور.»

كـررت نفـس العمـل، لـم يكـن لـديَّ أيّـة سـيطرة علـى كلامـي أو أفعالـي. أسـفل التلـة أصبـح أعلاهـا، وهـا أنـا أعـود إليـه.

«قبـل أن أذهـب، أريـد فقـط أن أقـول وداعـاً لأكبـرِ أحمـق عرفتُهُ علـى الإطلاق».

«إذاً مع السلامة. لن تبتعد كثيراً عن هنا».

«وأنـا أتقبَّـلُ ذلـك. سـأدعُ الأمريـكان يلعبـون معـي لبعـض الوقـت. فنهايتـي هـي السـجن».

«ما الذي يجعلهم يهتمون بكَ، حقاً؟»

«هـل تعتقـد أنـك الأبلـه الوحيـد الـذي يملـك أسـراراً إجراميـة وسيناريوهات جنائيـة غبيـة، وأنـك الوحيـد الـذي يقـوم بأفعـال غبيـة؟»

«أنت تهذي. لو كان لديَّ حبل، لقمت بربطك به».

«أنـا ذاهـب إلـى أسـفل التـل وسـأنتظر هـؤلاء المبشـرين. لديهـم سيارة».

«ممتاز. ربما سيُغمى عليك ويقومون بدهسك».

وصلـت إلـى أسـفل التلـة مـرة أخـرى. شـياطين. مخربـون. أشـرار. هـذه المـرة تَغَلَّبنـي إحسـاسٌ بالهـدوء، رصانـة زائفـة مسـتميتة، أدركـتُ مـن خلالهـا أنـه مـن الأفضـل لـي أن أتحـدَّثَ بوضـوحٍ وبشـكلٍ مُقنِـعٍ مـع هـذا الأحمـق الغبـي.

كان مايكل في الواقع واقفاً على قدميه عندما عُدت».

«مهلاً؛ إلى أين أنت ذاهب؟»

«لا تتبعني».

«نسيتُ مـا أردت قولـه مـن قبـل. أردتُ فقـط أن أقـول: هنـاك عمـلٌ مـا فـي فريتـاون يجـبُ علـيّ إنهـاؤه بطريقـةٍ مـا وعلـى وجـه السـرعة».

«على وجه السرعة؟ أين تظن نفسك؟».

«لقد تفاوضت على بيعِ مادةٍ ما»، قلت، «والتسليم في فريتاون دون تراجع، وأخشى أن الموعد النهائي قد أصبح قريباً جداً . إنه بعد ظهر يوم الخميس».

«ما الذي يجعلك تفقد عقلك وصوابك بسبب هذا؟ هل في ذلك أموال؟».

«قبل أن ينتهي الوقت المحدد، هل نستطيع الوصول إلى فريتاون؟».

«هناك رحلات طيران للأمم المتحدة من بونيا».

«كيف يمكننا الصعود على طائرة؟».

«المال والحظ».

«أظن أن من الأفضل لنا أن نحاول. وخلاف ذلك سأقَعُ في ورطةٍ كبيرة. بالأمس وعدني زميل لي بالجحيم».

«كان الوعدُ صحيحاً».

«كان يقصدُ أنَّني لن أستطيع المُضيّ في الفرار طويلاً، سينتهي بي المطاف بتسليم نفسي، وأنت على حق في ذلك كثيراً، الوعد صحيح. ماذا يمكنني أن أفعل سوى الاستسلام؟ ساعدني».

«ليس الآن. سأخلُد إلى النوم قليلاً».

«تباً! لقد قلتَ إن لديك خطة. أوه، حسناً. سأكونُ كاذِباً إذا

قلتُ إنّني صدَّقتُكَ يوماً ما، سأكون كاذباً».

«هذا هو أنت بالضبط. كاذب».

«انتظر. أنا آسف. انتظر».

«قلتُ لا تتبعني».

نَعَتُّهُ بخنزير صغير جبان، وزنجي أسود غبي.

«هل أطرَحُك أرضاً؟».

«سوف أنهض، أيها الزنجي. سأنهض، وسأستمر في القدوم».

«إنك تحاول أن تؤذيني. وهذا يؤذيني».

ويؤذيني أنا. كان مايكل، بعد كل شيء، الرجلَ الوحيد الذي احتضنني في الليل، أكثر من مرة، على أرض الصحراء الباردة خارج جلال أباد ذات نوفمبر، وبقوة ذراعيه، حصلتُ على الدفء، واستَرَحتُ، ونمت... قلت، «ألا لعنةُ الله عليكَ أيها الراكون اللعين».

«حسناً. انطلق. لا مشكلة».

«أنا أعرف كل كلمة تليق بك. تعيش عائلة أمي في جورجيا. ما زالوا يرفعون علم التمرد هناك».

«حسناً، حسناً. نسيتَ أنني قضيتُ بعض الوقت في ولاية كارولينا الشمالية».

«فورت براغ، هذا صحيح. فورت كارسون. وفي كل حصنٍ أمريكيٍّ موجود».

«لقد رأيتُ تلك الأعلام الاتحادية».

في ضوء القمر البرتقالي، نظر إلى قدميه أسفل منه، وتفحصهما جيداً، رفع إحداهما ثم الأخرى، وخطر لي أنني قد أحصل على ضربتين موجعتين منه خلال قيامه بهذا العمل العبثي الذي صرف انتباهه، وكان بإمكاني وبشكل جيد أن أوجه لكَماتٍ لأذنيه. من المؤكد أن هذا حصل وأنَّني جربتُ ذلك، لأنني وجدتُ نفسي منقطع الأنفاس والأضواء البيضاء تتقافز كالصواريخ مخترقة زوايا رأسي. كمن يمص الفراغ، هكذا بدا الأمر لي.

«ألا تنوي النهوض؟ سمِعتُكَ تقولُ: إنك ستستمر في القدوم».

كان فمي وأنفي في الوحل. لم تقدم الشياطين أيّ رد.

نزل على ركبتيه إزائي وغرس نصله في الأرض على بُعْدِ مليمترٍ واحدٍ من أذني. اعتقدت أنه قد ينهي حياتي بهدوء، بقبضةٍ خانقة.

«هذا هو السبب في أنك لم تحصل على أية ترقية بعد رتبة نقيب. إنه مزاجك الصبياني».

(30 أكتوبر، ظهراً)

دافيديا، وتينا -

إذا وصلكما هذا التحادث بشكل خام، وقبل أن تتاح لي كتابة هذه الملاحظات بشكلٍ صحيح، أو تضمينها يوماً بسردي شبه الصادق للأحداث، فلا بد أنكما تريان الحبر. لا مزيد من أقلام الرصاص. تريان أن يدي قوية ثابتة. إنكما تنظران إلى صفحة جديدة.

قد تظنان أن حظوظي قد تحولت. في أيّ اتجاه، سأخبركما خلال دقيقة. هذا القَدْرُ فقط يكفي الآن: تناولتُ وجبةً أو اثنتين، واستحمَمتُ في حوض، وأرتدي الآن ملابس جديدة. اسمحا لي بإنهاء القصة.

بعد العِراكِ مع مايكل، نمتُ على وجهي على الأرض.

في الصباح، أيقظني مايكل برفق. قال: «كيف كانت ليلتك؟»

كان يبدو مختلفاً جداً. أحضرَ لي قارورة ماء سعة لتر من المياه اللذيذة لأشربها. وبمجرد أن لامَسَ فمي فوهتها، كنتُ قد استنزفتها فوراً.

كانت السماء رمادية تماماً بكل معنى الكلمة. بدا الهواء رقيقاً، فلم يتحرك شيء. تساءلتُ عما إذا كانت القبيلة بأكملها قد ماتت في الليل، كلهم مرة واحدة.

عندمـا تمكنـتُ مـن الوقـوف، قادنـي مايـكل إلـى جـزءٍ مـن الجدول حيث تمكنتُ من الاستحمام به إلى مستوى صدري وأنا بملابسي، على الطراز الإفريقيّ. كان يبدو مثل جدولٍ أصليّ، تيارٌ مائيٌّ قـويٌ وشـلالاتٌ صغيرة، مكانٌ قد يأوي إليه الناسُ للترويحِ وشُرْب ماء جيد؛ لكنّ الماء كان سيئاً، ولم يأتِ أحد.

انقشعت الغيوم وتحولّت سماءُ الصباحِ إلى اللون الأزرق. عدتُ إلى الحياة ولاحظتُ وجودَ بعض الأبقار الهزيلة، وزوجين من الماعز الصغار أيضاً، يدفعان أنفَيهما إلى الأرض بالقرب مني. استلقيتُ على صخرة مسطحة دافئة في أشعة الشمس. جلس مايكل بجواري، وهو يدخن.. أودُّ لو أعرف، كيف يحصل على السجائر من الفراغ؟

عند هذه اللحظة شعرتُ أن رأسي يؤلمني، وشعرتُ، في كل الأنحاء، بعدم السعادة. وهذا اعتراف: لقد تقيَّأتُ خلال فقداني لوعيي، وقضيتُ طوال الليل وأنا مُلقىً على وجهي في مرضي. لو أنني فقدتُ وعيي وأنا مُستلقٍ على ظهري، لكنتُ قد غرقتُ بالقيءِ واختنقت، وبذا تكون كل أعمالي قد انتهت، ولكن من أين لي بالحظ. في هذه الأثناء كان مايكل يقول: «الحياة قصيرة. لكن الوقت طويل. أنظُرُ إلى الوراء، فأرى الكثير جداً طفولتي...».

وأنا غارقٌ شارِدُ الذهن في ملذاتي، وهذه كلمة فعلية،

أخبَرَني مايكل بكل ما فعله منذ هروبه من الجيش الكونغولي: السفر دون مال، التعثّر على جوانب الطرقات، الزحف والمشي البطيء عبر الحقول مثل وحشٍ فرانكنشتاين. خيَّم لمدة يومين بالقرب من القاعدة الأمريكيّة، لكنه لم يستطع وضع خطة. لم أتمكّن من مساعدتك، قال مايكل: ولم أستطع مساعدة دافيديا، لم أستطع مساعدة نفسي. ولم يكن هناك أيّ شيء يمكنني القيام به. لذلك لم يكن أمامي سوى المجيء إلى هنا.. حيث لم يكن بإمكاني فعل أي شيء أيضاً. أفرادُ قبيلتي مرضى، مجانين، يقومون بحرق أكواخهم، وليس لديهم أيّ طعام. لا يمكن لأحدٍ منهم أن يتذكّرني. إنهم يعرفون أسماء أمي وأبي، وشقيق أمي، وابني عمٍّ والدي الاثنين اللذين كانا يملكان مصلحة تجارية ويبيعان القماش والحبال، لكنهم لا يتذكرون الأطفال، لا أنا، ولا أخي الذي مات، ولا شقيقتيَّ اللتين ماتتا أيضاً في أحداث الشغب آنذاك، عندما غادرت العشيرة.. وهكذا بنفخةٍ واحدةٍ تم مَحْوُ وجودِنا. وهذه المرأة، دولسي، أَوَدُّ قتلها...

وأضاف قائلاً:

«أعتقدُ أنَّني كنتُ في التاسعة من العمر عندما قتلتُ شخصاً لأول مرة. لست متأكداً كم كان عمري حينها، ولا حتى أعرفُ كم عمري الآن؟ حقاً».

«قل لي: إن الذي قتلتَهُ كان امرأةً، أو طفلاً؟».

«ما الهدف من قول ذلك؟»

«لا أعـرف. أعتقـد أنـك تسـعى لأن تكـون مثيـراً للعواطـف ومُحـرِّكاً للمشـاعر، وأنـا بـدوري أسـعى لتقويـض مسـاعيك».

«كان هنـاك اثنـان منهـم، ولـم أكُـن أعـرف مـن همـا. كان ذلـك خـلال الأعمـال الانتقاميـة. عاشـت قبيلتُنـا حيـاةً رغيـدة، كمـا تعلـم، خـلال عهـد عيـدي أميـن دادا، لأنـه كان مـن قبيلـة كاكـوا أيضـاً. ولكـن عندمـا هـرب، انقلبـت السـواطير والمناجـل علـى كاكـوا وخَرَجَتْ ضدنـا، وجرى هـذا الجدول بدمائنـا. عـدتُ إلى هنا بعد أن تـم الاسـتيلاءُ علـى قريتنـا... هـذا هـو المـكان الـذي حـدث فيـه كل شـيء. سـمعتُ شـخصين يتحدثـان فـي كـوخ، سـمعتُ صوتَهمـا فقـط، وليس الكلمـات، ولا حتـى نـوع الصـوت، أكان صـوتَ رجلٍ، أم امـرأة، أم طفـل، وألقيـتُ بقضيـبِ الديناميـت. كان الكـوخ هنـاك تحديـداً. لقـد مشيتَ بقدميك علـى أوَّلِ جريمـةِ قتـلٍ لـي... وهـا أنـا قـد عـدتُ مـن جديـد، وكل شـيء قـد مـات. هـل تسـببتُ فـي إيقـاعِ لعنـةٍ علـى عشـيرتي؟ مـاذا فعلـتُ؟ هـل فعلـتُ شـيئاً؟

لـم أعـرف مايـكل أبـداً خائفـاً، نعـم هـذه حقيقـة. بالتأكيـد لـم أرَهُ مرعوبـاً إلـى هـذا الحـد مـن قبـل.

استلقيتُ هنـاك علـى ظهـري، مُنشَغِلاً بمـا يـدورُ فـي عقلـي، أو لنقـل باتِّـزانِ جوهـري وماهيتـي، وبعدهـا تخليـتُ عـن التفكيـر فـي أيّ شـيء، مُدرِكـا أنـه لا غايـة ولا نتيجـة مـن كل ذلـك.

قال مايكل:

«لم أكُن أبداً مع تينا. وحتى لو كنتُ معها قبل أن تأتي، لكنت قد أخبرتك».

«أصدِّقُك. لقد كنتُ مجنوناً. وهناك شيءٌ أودُّ قولَه أيضاً. هل تسمعني؟».

«أسمعك».

جلستُ ونظرتُ إليه مباشرةً وحاولتُ جاهداً أن أجعله يُصدِّقُني، لأنها بالفعل كانت الحقيقة، «من غير الممكن أبداً أن أخونَ وأشي بصديق. قد أحاول أن أستولي على معشوقته، وأتركه غارقاً في الوحل.. حسناً، وأهرب معها. لكنني لستُ مُخبِراً أو واشياً.. أبداً».

قذف مايكل منجله في البِركَة فغرقت.

«يا رجل. قد نحتاج ذلك».

«بما أن الله شاهدٌ عليّ، وطالما أنا على قيد الحياة، فلن أنهي حياة إنسانٍ مرة أخرى. لن أقتل ولو شخصاً واحداً أبداً. وإذا تحتّم عليّ القيام بذلك، فعندها أفَضِّلُ الموتَ على أن أقوم بذلك».

أطفأ سيجارته التي كانت قد وصلت إلى نصفها ووضعها على الصخرة بجانبه. ثم قام الآن بتقويمها، وأخرجَ عُلبة

كبريت من سرواله، وقضى بضع دقائق في إشعالها وتدخينها إلى أن وصل إلى الفلتر، وبدا راضياً عن نفسه. ثم ألقى بعقب السيجارة في الماء ووقف، ومدّ يده لي. «الآن حان الوقت الذهاب. أين سنلتقي بالمُبشِّرين؟».

«على الدوار أسفل التلة، في الجانب الشرقي، من المكان الذي تأتون منه».

«متى سنلتقي بهم؟».

«لا أعرف حتى إذا كانوا قادمين بالفعل. لكن السيدة قالت: في وقت ما هذا اليوم».

«دعنا نذهب وننتظرهم. نحن بحاجةٍ للوصول إلى بونيا».

«مايكل!»، قلت: أنت تستطيعُ القيام بهذا هنا، أما أنا فلا أستطيع. أنا لستُ إفريقيا. أنا مثل دافيديا بهذا الأمر».

«إلى أين تعتقد أنك ذاهب؟».

«أعتقدُ إلى السجن».

«هل تعتقد أنَّني سأدَعهم يضعونك في السجن؟» .

«هل هناك أيّة طريقة أخرى؟».

«ألم أخبرك منذ البداية؟ هناك دائماً خطةٌ للخروج». وأحْدَثَ صوتاً كصوت الخنزير على المعلف، مُحاوِلاً حبس دموعه. استولى اعْتِدادُه بنفسه، في هذه اللحظة، على

المشاعر. «بعد كل شيء، ما زلنا نحن الاثنين معاً، وكل شيء يحتاجنا نحن الاثنين معاً».

دافيديا: عندما مشينا خارج القرية، قامت دولسي، فرس النهر تلك، بإيقاظ عشيرتها وأَمَرَتْهُم باللحاق بنا والإغارة علينا لجزء من الطريق أسفل التلة. صَرَخَتْ، «اضحكوا عليهم، اضحكوا عليهم!» ثم «اضحكوا! اضحكوا!».

قالت: «لا تلمسوهم، لا تتحدثوا معهم، هل ترون الشيطان في عيونهم؟ اضحكوا! اضحكوا!»[1].

لم أكُن أظنُّ أنهم كانوا قادرين على فعل ذلك. واحد منهم، أو اثنان أطلقا كِسَفاً من الضحكات وقاما ببصقها علينا. وسرعان ما بدأ الرعاعُ كلهم يُهمهِمون ويُثرثِرون كالكلاب. حنى مايكل ظهره، رأسه إلى الأسفل. «اضحكوا! اضحكوا!» مثل الدجاج، مثل الإوز المرعوب. قمتُ باللحاق به وهو يُطْرَدُ من عائلته.

---

(1) استخدمت دولسي كلمة (Riez) مرتين، وهي كلمة تعني «اضحك» بالفرنسية. **المترجم**.

(1 نوفمبر، 6 مساء)

عزيزتي تينا، عزيزتي دافيديا

مـرة أخـرى، أكتـبُ إليكمـا علـى ضـوء الشـموع، ولكـن فقـط لأن التيـار الكهربائـي انقطـع فـي رُكنِنـا فـي فريتـاون.

نحـن نقيـم الآن فـي أجنحـة الفخـار الوطنيـة، التـي ليـس فيهـا مـا يدعـو إلـى الفخـار. خـارج النافـذة، غـربُ إفريقيـا: حـارة كالمجـاري، أكـواخٌ دائريـة، ضَحِـكٌ لا يمكـن تفسـيره.

فـي الطابـق السـفلي يوجـد مطعـم، مُكَيَّـفٌ بالهـواء بشـكل متقطـع، يعبقُ برائحة الليمـون والعصائر الطبيعية والعطـور، لكنني لستُ زبونـاً.

علـى أيّـة حـال، أنـا لسـتُ مائـة فـي المائـة. أشـعرُ بألـمٍ فـي البطـن، بسـبب جـدول نيـوادا اللعيـن. علـى مـا يبـدو فبعـض الميكروبـات تعتـاش علـى المعـادن الثقيلـة.

ومـع ذلـك، فـإن النسـبة المئويـة الصغيـرة الجيـدة مـن جسـمي تبـدو رائعـة للغايـة.

أمضيـتُ السـاعتين الأخيرتيـن بغفـوة وأنـا أضـعُ رأسـي علـى كيـسٍ مليءٍ بالنقـود. مائـة ألـف دولار أمريكـي، نَقَـصَ منهـا المصاريـفُ الأخيـرة. إنهـا ليسـت وسـادة كبيـرة، فقـط ألـف قطعـةٍ مـن الـورق مضغوطـة فـي كيـسٍ مـن البلاسـتيك. ولكـن يـا إلهـي، يـا لهـا مـن راحـة؛ كـم كانـت جميلـة أحلامـي.

تينا، آملُ أن تكوني قد خرجتِ من أمستردام. آملُ أنك نَجَوتِ. آملُ ألّا تكوني قد جلستِ هناك بانتظار التداعيات السامَّةِ لدماري.

هاه. «تداعيات».

لكن يا تينا، أنا جادّ: في يوم من الأيام سأكتبُ كل شيءٍ على الورق وأرسلها لكِ، وسأضَمِّنُ هذه الملاحظة الأخيرة في الأعلى. لا أعرف ما الذي يمكن أن يفعله اعترافٌ شاملٌ لك، أو ما يمكن أن يفعله الاعتراف في تخفيف هذا المزيج من الفزع والغضب اللذين فعلا الأفاعيل في دواخلي ... مهما كانت قيمة هذا الأمر، يوماً ما سأروي لكِ القصة من بدايتها إلى نهايتها.

وستكون النهاية مذهلة: مايكل وأنا نذهب إلى بونيا في إيسوزو تروبر بلونها الأزرق السماوي والأبيض الصافي المملوءة بالمسيحيين السبتيين، وآلتُنا الباسلة المقدامة تنطلقُ بنا كالصاروخ في العواصف، وخلال الحوادث، وبالزلازل، لا أدري ماذا، حقاً.. نِمتُ طوال المائتي كيلومتر، باستثناء مرتين فقط عندما أيقظني الرجل الذي على يساري، وهو شاب كونغولي يُدعى ماكس، ليشكو من لُعابيَ الذي كان يسيلُ على كتفه. انتهت الرحلةُ عند كنيسةِ مجموعةِ البعثةِ في بونيا، حيث دخل إليها كل المتدينين بيننا. أما مايكل وأنا، أصحابُ

الأرواح الضائعـة، فقـد وقفنـا تحـت مظلـةِ متجـرٍ للدراجـات، وحاولنـا تدبيـر خطـة للخـروج مـن المطـر.

عليكِ أن تتذكـري، يـا تينـا، أن النهايـة لـم تـأتِ بعـد، وأن كل مـا كان لـديَّ هـو مايـكل أدريكـو، مـا يعنـي أن كل مـا لـديَّ هـو المـرارة والشـك، ومـا زالـت أمامنـا 68 سـاعة لنقطـع الـ 4800 كيلومتـر القادمـة.

قال مايكل: «لنرتدِ الياقات، أنت وأنا».

«ياقاتُ رجال الدين».

«هل أبدو كرجل دين؟»

«أعتقد أن ذلك سيساعدنا خلال الأسئلة».

«إنه غِطاءٌ رديء. سيجعلُ الجميع يريدون الاقتراب منك».

«من اقترَبَ من هؤلاء السبتيين؟ انتقلنا عبر نقاط التفتيش».

«لا علم لديّ»، اعترفت. «كنتُ نائماً. لكن هل أنت جادّ؟»

«إنها مزحة، هيا.. ابتسم».

«أنـا لا أحـب أن يقـول لـي النـاس ابتسـم. مثـل هـؤلاء النـاس يثيـرون اشـمئزازي».

«نايـر، لـديَّ القليـل مـن الأخبـار: غـداً بعـد الظهـر سـنصعد إلـى طائـرةٍ متوجهـة إلـى آكـرا. سـنهبط فـي مطـار كوتـوكا الدولـي مـع بـزوغ فجـر اليـوم التالـي».

«لا أصدقك، أهذه مفاجأة؟».

«سوف تصدقني قبل أن يمر وقت طويل. وعندها عندما أقولُ لك: ابتسم، ستبتسم».

قضينا الليل في فندق السيتيزين، معظم الوقت في المقهى، وأرسلنا من يشتري لنا ملابس جديدة. دفعني مايكل لأن أعِدَه بأن لا أشرب أبداً إذا وصلنا إلى فريتاون في الوقت المحدد للحاق بموعدي، والذي ما زال على بعد مسافة ستين ساعة منا، ولم يكن أقرب من ذلك على الخريطة. لذلك قطعتُ له ذلك الوعد... كان في الغرفة التي حجزناها مغسلتها الخاصة. تقيأتُ فيها.

وفي صباح اليوم التالي استلقيتُ في الفراش مُسترخياً أو مُحتضراً. في حين أن مايكل خرج لِلَمس عينٍ سحريةٍ لبدء خطته في استخلاصنا وباسترجاع الأحداث، تبدو الأمور بتلك البساطة، بِحَرَكَةٍ من إصبعه، ويتحقق كل شيء.

حتى الآن، وأنا أكتب هذا، مع كل شيء، أو مع جزءٍ جيدٍ من كل شيء، بعد أن تبيَّن أن الأمور تجري على ما يرام، أشعرُ بالغضب تجاه نزعات مايكل وقصصه الدرامية المُتَحفظة الخَجلى. أنا مجبرٌ على الاعتراف بفضله، وأعترف بذلك بكل امتنان. لقد حَبَونا من قلبِ الحُطام، خرجنا ونجونا، وكل هذا من عمل مايكل. وددتُ، نوعاً ما، لو أن الأمور لم تجرِ على هذا النحو.

في الظهيرة يوم 29 أكتوبر، ومع بقاءِ 52 ساعة أمامنا، استأجرنا سيارةً بأحدِ أوراق العشرين دولاراً التي كانت بحوزتي. وفي غضون ثلاثين دقيقة وصلنا إلى نقطة التفتيش خارج مطار بونيا.

أحدُ الحراس بالملابس الكاكي قام بتفحص السيارة من الداخل، وطلب منا النزول من السيارة لدقيقة، حرَّك عصا التفتيش على أجسادنا، تجاهل رنينها، ثم لَكَزَ زوجاً من الماعز بحذائه، وحرَّرَ طرف الحبل ليسمح لنا بالمرور.

ثلاثةُ صواري أعلام، رايتان متدليتان، ومدرجٌ ترابي أحمر. كشكٌ من الخرسانة، كان أمامه بعض الرجال يرتدون زياً رسمياً ويجوسون في المكان ضاحكين. لا شيء آخر سوى شيء يشبه المطعم له شرفة خشبية. قلت: «لا أرى أيّة طائرات».

«هل ترى تلك الأزياء الغانية؟».

«أرى أزياء رسمية».

«الغانية. انتظر هنا. لكن أعطني بعض النقود أولاً».

«كم؟».

«كل شيء. إذا أردنا الخروج من هنا، علينا أن ندفع».

تركني في المقهى. لم أجد أحداً بالداخل. كان هناك بعض الطاولات، وصندوقُ تبريدٍ مليءٍ بالمياه والعصائر،

غير موصول بالكهرباء، ولكن لا شيءَ أمْتَعُ من الكوكا كولا. كرعتُ واحدةً دافئة. انضَمَّ لي مايكل بعد عشر دقائق. جلس دون شراب وقال: «عندما نصل إلى آكرا، سأترُكُك في مبنى المسافرين في المطار خلال قيامي بالحصول على جوازات سفر غانية».

«رائع».

«هل تريدُ جوازاً دبلوماسياً، أم خاصاً؟».

«واحداً من كلا النوعين. وطالما أنه بإمكانك، فاحصل لي أيضاً على شهادة دبلوم طبية».

«أنا سعيدٌ لأنك لا تصدقني. هذا سيرفع من مستوى المتعة لاحقاً».

«جُلُّ اهتمامي بالطريقة التي سنصل بها إلى هناك؟».

«أين؟»

«آكرا، اللعنة».

«سلاح الجو الغاني، يعمل لصالح الأمم المتحدة».

«الأمم المتحدة؟ طائراتُهم لا تأتي في موعدها المحدد إطلاقاً».

«أنت سلبيٌّ للغاية. خُذ الباقي، مائة وثمانين دولاراً. كان الطيّارون معقولين في طلباتهم».

في مطار كوتوكا الدولي في آكرا، ناولني مكعب علكة من نوع بيغ جي أوريجينال[1] بغلاف أحمر اللون وقال: «تناول هذه، اشغل نفسَك بها». ثم ذهب إلى المدينة وأتَمَّ ما لا يمكن التفكير به، رغم أنَّني كنت حينئذ قد سمحت لنفسي بالتفكير به، لأنه أخَذَنا إلى هذا البعد وذلك الحد، ولأن اثنين من السفاحين الغانيين ببدلات رجال أعمالٍ سوداء حضرا في سيارة مرسيدس لأخذه من مبنى القادمين.

هذا هو المكان الذي جلستُ فيه لساعاتٍ عديدة، خمس عشرة ساعة، أعتقد إلى أن عاد مايكل، حوالي الساعة 11 من تلك الليلة.

وجَدَني في كشك الشاي الذي يُدعى «كشك وقت الشاي» في كوتوكا، وصادف ذلك كتابتي لرسالتي الأخيرة لكِ، يا دافيديا، أو لكِ، يا تينا، أو لكما أنتما الاثنتين.. ألقى على سطح الطاولة أربع وثائق غانية، اثنتين لكل واحد منا، إحداهما جواز سفر مدني، والأخرى دبلوماسي، مختومان بالتأشيرات إلى سيراليون، وأوغندا، وليبيريا. «كنتُ على وشك القدوم إليك، من أجل التقاط صورة لك، ولكن كان هناك زميل لي، إنجليزي، يشبهك تماماً. يطابقك في الشكل تماماً. ووافق على أن يتبادل معك».

«هذه الصورة لا تشبهني أبداً».

---

(1) علكة من نوع «Big G Original Gum». **المترجم**

«إنها تبدو مثلك تماماً»، أصَرَّ مايكل.

«بالطبع تبدو كذلك. بالنسبة لإفريقي».

لا أستطيع أن أذكرَ اسمي الجديد لكِ يا تينا. ولكن لا تسألي عن رولاند ناير.

«أنا مولودٌ في كوماسي، وأنت في آكرا. كلانا في نفس اليوم، لأننا أشقاء».

«ولكنني لم أعطِكَ أيّة نقود».

على ما يبدو أنه لم يدفع أيّ شيء. «قلت لك، لقد أنقذتُ حياة الرئيس. لقد أخبرتُك بذلك مرات عديدة».

«لا أتذَكَّرُ كذبة كهذه. أيّ رئيس؟ ماهاما؟ هل هذا هو اسمه؟»

«لا. كان ذلك عام 2005. الرئيس جون كوفور[1]. عندما نكون وحدنا».

---

(1) جون كوفي كوفور (بالإنجليزية: John Kofi Kufuor): ولد في 8 ديسمبر 1938. هو الرئيس الحادي عشر لجمهورية غانا منذ 7 يناير 2001 وحتى 7 يناير 2009. حقق لبلده نقلة تاريخية خلال فترة رئاسته، وقد اتسم فيها بحرصه الشديد على مكافحة الفساد والصرامة المالية لتحقيق الاستقرار الاقتصادي الذي ظل يعاني لسنوات طويلة. وخلال فترة حكمه تمكن كوفور من النهوض بغانا الواقعة في غرب إفريقيا والتي يتجاوز تعداد سكانها 23 مليون نسمة، يعيش أغلبهم على الزراعة، وجعلها نموذجاً إفريقياً ديمقراطياً وتعززت آفاقها الاقتصادية في الآونة الأخيرة بعد أن بدأت بالاستفادة من موارد النفط التي تم اكتشافها، وانضمت إلي نادي الدول المنتجة له. كان مبعوثاً للسلام في ليبيريا وسيراليون وغينيا وكوت ديفور، وسفيراً لمكافحة الجوع في العالم لدى برنامج الغذاء العالمي. **المترجم**.

«ماذا_ماذا؟»

«تلقيتُ رصاصةً من أجله. سأُريكِ أثر الإصابة».

في الساعة السادسة من صباح اليوم التالي، 31 أكتوبر، صعدنا على متن طائرةٍ تابعةٍ للخطوط الجوية الكينية متوجهين إلى مطار لونجي الدولي في فريتاون.

استغرقت الرحلة بأكملها، من أسى وأحزان جبل نيوادا إلى رفاهية وراحة أجنحة الفخار الوطنية، 71 ساعة.

على متن الطائرة، قلتُ شيئاً، ورغم أنه جاء من فمي أنا، إلا أنني بالكاد صدقته: «مايكل، إذا لم تتحطم الطائرة بنا، سأصل في الوقت المناسب. سنصل إلى فريتاون قبل الموعد بخمس ساعات».

لم يكن يهمني إن كان بانتظاري سِربٌ من الأشياء اللامتوقعة، أو أيّ شيء يمكن أن يخسفنا. فالرجوع بحد ذاته كان انتصاراً.

«كم ستجني من مشروعك؟»

«ماذا؟»

«كم سترِبح، يا ناير، كم من المال؟»

«مائة ألف دولار أمريكي. هذا هو ثمن خيانتي المطلقة للجميع».

«لكن، يا ناير، أنت لم تخنّي».

«ليس تماماً. ليس الآن».

«الصفحةُ بيضاء بيننا».

«حاولتُ سرقة فتاتك».

«أعتبر هذا مجاملة منك».

عندما هبطنا هنا في فريتاون، أخذ مايكل سيارةً إلى الفندق الوطني وأخذتُ أنا أخرى، بداية إلى مطعمِ بارادي لتنفيذِ أقصرِ وأسعَدِ مهمة، لاسترجاعِ جزءٍ من معدات الكمبيوتر ثم إلى مطعم بوارتشي، حيث انتظرتُ حتى وصل صديقي حامد ومعه المائة ألف دولار في كيسٍ بلاستيكي أزرق بِسَحّاب، وضعتُ الأموال في حضني بينما كان يستخدم حاسوبه لتفحص البضاعة، ثم افترقنا كل فيه طريقه. وبلا مصافحة. لكن إذا جاءت الفرصة مرة أخرى، أعتقدُ أننا سنقومُ بأعمالٍ تجاريةٍ معاً.

في وقتٍ متأخرٍ من الليلة الماضية، التقينا أنا ومايكل مع بعض الرجال في المقهى في الطابق السفلي، ورتبنا لاستئجار قارب، قارب كبير. وكابتن خبير، والكثير من الوقود. ومحطةُ الوقوفِ التالية.. أيّ مكان. أبيدجان[1]، ربما. رغم أننا كلانا لا نُحسِنُ الفرنسية.

---

(1) أبيدجان هي أكبر مدينة في ساحل العاج والعاصمة السابقة لها. **المترجم**.

في هـذه الأثنـاء، سـنحجِزُ أنفسـنا فـي هـذا المبنـى، لأن الكثيـر مـن النـاس يعرفـون مايـكل بالشـكل. اشـتركنا معـاً بجنـاحٍ مُكـوَّنٍ مـن غرفتيـن. مكيـف الهـواءِ والتلفزيـون نادراً مـا يعمـلان، لا يوجدُ مولـد كهربائـي فـي الفنـدق الوطنـي، لـذا فهـو حـار، وممـل أيضـاً. بعـد ظهـر هـذا اليـوم، مـن أجـل الترفيـه، تابعـتُ مايـكل وهـو يقـومُ بِقَـصِّ خيـوطِ الغُـرَزِ مـن ذراعـه باسـتخدام مقـصِّ حلاقـةٍ، وكان يسـحبها بأسـنانه.

سننتظرُ إلى ما بعد منتصف الليل لمغادرة المكان.

ربمـا ليبيريـا. الكثيـرُ مـن الاحتمـالات هنـاك. سـنطالب بالحصـول علـى رُقعـةٍ مـن الغابـة وقطعـةٍ علـى طـول الشـاطئ، وسـأبدأ بكتابـةِ القصـةِ شـبه الصادقـة بينمـا سـيتولى مايـكل أمـر رسـم مخطـط أو اثنيـن لغزواتنـا الدوليـة.

لا داعـي لإرسـاء قواعدنـا وجذورنـا. فمـن يـدري فقـد نسـتمر بالترحـال. مايـكل وأنـا أحببنـا أوغنـدا. ولِـمَ لا؟ فالمنـاخ لطيـف هنـاك.

عندمـا تركـتُ مايـكل منـذ سـاعتين، كان فـي الطابـق السـفلي فـي المقهـى، مُنحنيـاً علـى آلـةِ ألعـابِ فيديـو ضخمـة، وقديمـة جـداً، وهـو يُغنِّـي جـزءاً مـن أغنيـةٍ إفريقيـة بصـوتٍ صـارخٍ، «بْشُـو! بْشُـو! بْشُـو! فـي وجهـكِ، آتيـكِ مـن الفضـاء»[1].

(1) الكلمات التي تغنى بها مايكل كانت: «Pchew! Pchew! Pchew! In yo face, outa space!». المترجم

بالنسـبة لـه، يـا دافيديـا، كنـتِ ببسـاطة الخطيبـة رقـم خمسـة. ولكـن بالنسـبة لـي. يـا إلهـي. بالنسـبة لـي.

تينـا، لقـد تنبَّأتِ أكثـر مـن مـرة بـأن بـرودة قلبـي سـتجعلكِ فـي يـوم مـن الأيـام امـرأة حاقـدة. أظـن أنـكِ قمـتِ باختيـاري لأجـلِ ذلـك السـبب تحديـداً. لا بـد أنـكِ أردتِ ذلـك الأمـر. إذا كنـتِ تشـعرين بالمـرارة، فأنـتِ مـن دَبَّـرَ لذلـك، وأظـن أنـكِ اخترتنـي لأكـون أداةً بيـدك. لذلـك أوقفـي هـذا. توقَّفـي عـن المضـي قدمـاً.. وقدمـاً بهـذا فـي ذهنـي.

ربمـا نعـودُ إلـى غانـا. ربمـا إلى السـنغال. وهنـاك أيضـاً الكاميرون علـى الـدوام.

أو قـد نتـرك هـذه القـارة خلفنـا ونطيـر إلـى الكويـت، إذ يُعَـوِّلُ مايـكل علـى أشـد أشـكال الترحـاب الحماسـي الحـار الـذي سـيحظى بـه هنـاك، بعـد أن كشـف لـي صبـاح هـذا اليـوم أنـه كان قـد قضـى عـدة أشـهر هنـاك وشـعر فيهـا بالراحـة والانسـجام.

وأنا أميلُ إلى تصديقِ ذلك.